هربرت جورج ويلز

أول بشر داخل القمر

رواية

فريق
متميزون
E-BOOK

ترجمة: شهرت العالم

آفاق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أول بشر داخل القمر

رواية مترجمة..

هربرت چورچ ويلز
ترجمة: شهرت العالم

(1)

السيِّد بدفورد يلتقي السيِّد كافور في ليم

بينما أجلسُ للكتابة هنا، وسط ظِلال أوراق الكروم تحت السماء الزرقاء في جنوب إيطاليا، يتبادر إلى ذهني في اندهاشٍ كيف كانت مشاركتي في مغامرات السيِّد كافور المذهِلة نتيجة لصدفةٍ مَحْضة. ربما كانت لتحدث لأيِّ شخصٍ آخر. لقد اشتبكتُ في هذه الأحداث في وقتٍ اعتقدتُ فيه أنني أُبعِد نفسي عن أدنى احتمالٍ لتجاربَ مزعجة. ذهبتُ إلى قرية ليم لأنَّني تخيَّلتُ أنَّها أكثر مكانٍ في العالم يخلو من الأحداث، قلتُ لنفسي: «هنا، على أي حالٍ، سوف أجد السلامَ وفرصة للعمل!».

وهذا الكتاب هو الثمرة. يا له من اختلافٍ كبيرٍ بين قَدرِ المرء وكلِّ الخطط الصغيرة التي يضعها. ولعلِّي أذكر هنا أنَّني واجهتُ في الآونة الأخيرة إخفاقًا شديدًا في بعض الأعمال التجارية، لكنني أجلس الآن مُحاطًا بجميع ظروف الثروة، وأشعر بترفِ الاعتراف بأقصى مجازفاتي. ويمكنني حتى الاعتراف، إلى حدٍّ ما، بأنَّ الكوارثَ التي تعرَّضتُ لها كانت بسببي. قد أمتلك بعضَ القدرات في اتجاهاتٍ بعينها، لكن إدارة العمليات التجارية ليست من بينِها، بيدَ أنَّني في تلك الأيام كنتُ شابًّا، واتَّخذَ شبابي، من بين أشكالٍ أخرى غير مستحبَّة، الفخر بقدرتي على إدارة الشؤون المختلفة. ما زلتُ شابًّا من حيث عدد السنوات، لكنَّ الأشياءَ التي حدثت لي قد أجهزت على جزءٍ من الشباب في ذهني. أمَّا ما إذا كانت تلك الأشياء قد أدَّت إلى تسليط الضوء على أي حكمة لديَّ، فهذه مسألة محلُّ شكٍّ.

لا أجد ضرورة في الخوض بالتفصيل في التصوُّرات التي جعلتني أتوجَّه إلى قرية ليم، في مقاطعة كِنت، فحتى في الوقت الحاضر، وفيما يتعلَّق بالمعاملات التجارية، توجد نكهةٌ قويةٌ للمغامرة، كنتُ أجازف بجرأة. تضمُّ هذه المعاملات دائمًا قدرًا معينًا من الأخذ والعطاء، وفي النهاية اضطررت إلى العطاء على مضضٍ. وحتى عندما خرجتُ من كل شيء، قرَّر أحدُ الدائنين المشاكسين أن يتخابث. ربما تكون قد واجهتَ هذا الشعور المتَّقِد بالفضيلة الغاضبة، أو ربما شعرتَ به فقط، لكنَّه أصابني بقوة. واتَّضح لي، أخيرًا، أنَّه ليس أمامي سوى كتابة مسرحية، إلَّا إذا أردتُ أن أكدح من أجل معيشتي ككاتبٍ. لديَّ خيالٌ معينٌ، وأذواقٌ فاخرة، ورغبتُ في خوض معركة قوية من أجلِها، وكان ذلك قبل أن يدركني ذلك المصير. بالإضافة إلى إيماني بقدراتي كرجل أعمالٍ، كانت لديَّ فكرةٌ دائمًا، في تلك الأيام، أنَّني قادرٌ على كتابة مسرحية جيدة. وأعتقد أنَّه لم يكن اقتناعًا غريبًا. كنتُ أعرف أنَّه لا يوجد شيءٌ يمكن للرجل القيام به خارج المعاملات التجارية المشروعة، التي تتمتع باحتمالاتٍ فاخرة، ومن المحتمل أنَّ هذا ما جعل رأيي متحيزًا. لقد اعتدتُ، في الواقع، النظرَ إلى هذه الدراما غير المكتوبة كاحتياطي بسيطٍ مريحٍ يصلح في يومٍ مطيرٍ، وقد أتى ذلك اليوم المطير، وبدأتُ العمل.

وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ كتابة مسرحية هو عملٌ يستغرق وقتًا أطول مما افترضت؛ فقد حسبتُ في البداية أنَّها تحتاج إلى عشرة أيام، مع ضرورة وجود بيتٍ مؤقتٍ، ولذا أتيتُ إلى ليم. من حُسن حظي أنني وجدتُ ذلك الكوخ الصغير، وتعاقدتُ على استئجاره لمدة ثلاث سنوات، ووضعتُ فيه القليلَ من الأثاث. كنتُ أعمل على المسرحية، وأتولَّى الطبخ أيضًا بنفسي. ربما كان طبخي سيصدم السيدة

بوند، ومع ذلك كانت نكهتَه طيبة. كان لديَّ إبريقَ للقهوة، ووعاءٌ للبيض، وآخر للبطاطس، ومِقلاة للمقانق ولحم الخنزير المقدد. إنها أجهزتي البسيطة اللازمة لراحتي. لا يمكن للمرء أن يعيش على الدوام بفخامة، لكنَّ البساطة بديلٌ ممكنٌ دائمًا. وبالإضافة إلى ذلك، استدنتُ لأحضر برميلًا يسع ثمانية عشر جالونًا من البيرة، واتَّفقتُ مع خبازٍ جديرٍ بالثقة أن يأتي يوميًّا. ربما لم تكن حياتي مترفة على غرار الحياة في سيباريس([1])، لكنَّني مررتُ بأوقاتٍ أسوأ. كنتُ أشعر بالأسف قليلًا على الخباز، حيث كان رجلًا شديدَ الاحترام في الواقع، وتمنيتُ له الخيرَ.

إذا رغب أيُّ شخص في العزلة، فمن المؤكد أنَّ ليم هي المكان المناسب. تقع ليم في الجزء الريفي من كِنت، ويقع كوخي على حافة جرفٍ بحري قديم يطلُّ على بيوت رومني مارش([2]) في البحر. يكاد يتعذَّر الوصولُ إلى المكان في الطقس الرطب، وقد سمعتُ أنَّ ساعي البريد يستعين أحيانًا بألواحٍ عند قدميه لعبور بعض الأجزاء العسيرة في طريقِه. لم أره يفعل ذلك أبدًا، وإنما يمكنني تخيُّل الأمر تمامًا. خارج أبواب الأكواخ والمنازل القليلة التي تُشكِّل القرية الحالية تقف أشجار البتولا الكبيرة لتمحو أسوأ الطين، مما يعطي فكرة عن نسيج المنطقة. كان يمكنني التشكُّك في وجود هذا المكان على الإطلاق، لولا تلك الذكرى الآخذة في التلاشي حول الأشياء التي اختفت إلى الأبد. فقد كانت سابقًا ميناء إنجلترا الكبير في العصر الروماني، بورتوس ليمانيس، والآن يقع البحر على مسافة أربعة أميالٍ. توجد على طول منحدر التل صخورٌ وكُتلٌ من الطوب الروماني، ومنه يتفرَّع شارع واتلينج القديم، الذي لا يزال بعضُه مرصوفًا، ويبدأ مثل سهمٍ في اتجاه الشمال. اعتدتُ أن أقف على التل وأفكر في كلِّ شيء: السفن المزوَّدة بمجاديف، والجيوش، والأسرى والمسؤولين، النساء والتجار، المضاربين مثلي، والحشود والاضطرابات التي تتسلَّل داخل وخارج الميناء. أمَّا الآن، لا يوجد سوى كتلٍ قليلة من الأنقاض على منحدرٍ عشبي، وخروفٍ أو اثنين، وأنا. وحيث كان الميناء، يقع المستنقع بمستوياته، يمتدُّ في منحنى واسعٍ إلى أراضي دنجينس البعيدة، وينتشر هنا وهناك مع كتل الأشجار وأبراج كنائس المدن القديمة، التي تتبع ليمانيس الآن نحو الانقراض.

كانت الإطلالة على المستنقع من أجمل المشاهد التي رأيتُها في حياتي. أعتقد أنَّ دنجينس تقع على بُعد 15 ميلًا، وتمتدُّ كطوفٍ في البحر، وعلى مسافة أبعد، في اتجاه الغرب، تقع تلال هستنجز تحت الشمس الغاربة. تبدو التلال أحيانًا مُعَلَّقة ومتقاربة وواضحة، بينما تبدو في أحيانٍ أخرى باهتة ومنخفضة. وغالبًا ما كان انجراف الطقس يبعدها تمامًا عن الأنظار. كما كانت جميع الأجزاء الأقرب إلى المستنقع مضاءة بالخنادق والقنوات.

تطلُّ النافذة التي أعمل بجانبِها على أفق هذه القمة، وهي النافذة نفسُها التي رأيتُ خلالها كافور لأول مرة. كنتُ منشغلًا في كتابة السيناريو، وذهني مُثقلٌ بهذا العمل الشاق، الذي استحوذ بطبيعة الحال على انتباهي.

كانت الشمس قد غربت، والسماء عبارة عن هدوءٍ مشرقٍ من اللونين الأخضر والأصفر، وفي ظلِّ هذه الخلفية، ظهرت هيئةٌ سوداء: أغرب شخصٍ صغيرِ الحجم.

كان رجلًا قصيرًا، ممتلئ الجسم، نحيفَ الأرجل، تتَّسم حركاتُه ببعض الاهتزاز. وقد رأى من المناسب أن يغطي رأسه غير العادي بالقلنسوة التي يرتديها لاعبو الكريكيت، كما ارتدى معطفًا،

وسروالًا وجوارب راكبي الدراجات. لا أعرف لماذا ارتدى على هذا النحو، وهو الذي لم يركب دراجة أبدًا، ولم يلعب الكريكيت على الإطلاق. تصادف التوافُق في ملابسِه، ولا أعرف كيف. كان يشير بيديه وذراعيه، ويهزُّ رأسَه، ويُصدِر طنينًا مثل شيء كهربائي، لكنَّه طنينٌ غريبٌ لم يُسمَع من قبل، كما ظلّ ينتحنح من حنجرتِه مِرارًا وتكرارًا بضوضاء غير عادية.

كان المطر يهطل، وزاد اهتزاز سيره نتيجة شدة الانزلاق في ممرِّ المشاة. وعندما أصبح في مواجهة الشمس تمامًا، توقَّف، ثم أخرج ساعة، ووقف مترددًا. وبلفتة متشنجة، استدار وتراجع، وبدت عليه كـــلُّ مظاهر التسرُّع. لم يعد يشير بيديه وذراعيه، وإنما أخذ يسير بخطواتٍ واسعة أظهرت حجم قدميه الكبير نسبيًّا؛ وعلى ما أذكر أنَّ حجمهما كان كبيرًا بشكلٍ مُبالَغٍ فيه؛ نظرًا لالتصاق الطين بهما.

حدث ذلك في اليوم الأول من إقامتي، عندما كانت طاقتي في كتابة المسرحية في ذروتِها، واعتبرتُ الأمرَ مجردَ إلهاءٍ مزعجٍ، ضياع لخمس دقائق. عدتُ إلى السيناريو مرة أخرى. ولكن عندما تكرَّر ظهورُه في مساء اليوم التالي في الموعد نفسِه وبالأداء نفسِه بدقة ملحوظة، ثم في المساء التالي، وفي الواقع كل مساء عندما ينقطع سقوط المطر، أصبح تركيزي على السيناريو يتطلَّب جهدًا كبيرًا. قلتُ لنفسي: «يا له من رجلٍ مرتبكٍ. قد يعتقد المرءُ أنَّه يتعلَّم كيف يصبح دمية متحركة!». على أنني بقيتُ ألعنه بشدة لعدة أمسيات، ثم تحوَّل انزعاجي إلى دهشة وفضولٍ: لماذا يقوم رجلٌ بهذا؟ وفي المساء الرابع عشر لم أعد أحتمل الوضعَ. وبمجرد أن ظهر، فتحتُ النافذة الطويلة وخرجتُ إلى الشرفة، وتوجهتُ إلى الموقع الذي يقف عنده دائمًا.

كان يُخرج ساعتَه عندما اقتربتُ منه. كان وجهُه سمينًا وضاربًا إلى الحُمرة، وعيناه باللون البني المحمر؛ فلم أره سابقًا إلَّا مقابل الضوء. قلتُ وهو يستدير: «لحظة واحدة، يا سيدي»، نظر إليَّ محملقًا. قال: «لحظة واحدة بالتأكيد، أو إذا كنت ترغب في التحدُّث معي لفترة أطول، وانتهت اللحظة التي طلبتها، هل يزعجك أن ترافقني؟».

قلتُ وأنا أقترب إلى جوارِه: «كلا، على الإطلاق».

«عاداتي منتظمة. ووقتي للقاءات محدودٌ».

«أتصوَّر أن وقتك الآن لممارسة الرياضة؟».

«نعم. لقد جئتُ إلى هنا لأستمتع بغروب الشمس».

«لا، أنتَ لا تفعل ذلك».

«ماذا تقول، يا سيدي؟».

«أنتَ لا تنظر إلى الشمس أبدًا».

«لا أنظر إليها أبدًا؟».

«لا. لقد شاهدتُك 13 ليلة، ولم تنظر مرة واحدة إلى غروب الشمس، ولا مرة واحدة».

عقد حاجبيه كمن يواجه مشكلة.

«حسنًا، أنا أستمتع بأشعة الشمس، بالجوِّ، وأسير في هذا الطريق، من خلال تلك البوابة»، هزّ رأسَه على كتفِه، «وأتجوَّل».

«أنتَ لا تفعل ذلك، ولم تفعله أبدًا. هذا هُراء. لا يوجد طريقٌ. الليلة مثلًا...».

«أوه، الليلة! دعني أتذكَّر. آه! نظرتُ إلى ساعتي، وأدركتُ أنني خرجتُ أكثر من النصف ساعة بثلاث دقائق، وقررتُ أنَّه لا يوجد وقتٌ للتجوُّل، فاستدرتُ....».

«أنت تفعل ذلك دائمًا».

نظر إليَّ وهو يفكر. «ربما أفعل، أفكر في ذلك الآن. ولكن ما الذي أردتَ التحدُّث معي بشأنه؟».

«هذا بالتحديد».

«هذا؟!».

«نعم، لماذا تفعل ذلك؟ تأتي كل ليلة وتُحدِثُ ضوضاء...».

«أُحدِث ضوضاء؟».

«نعم، هكذا»، وقمتُ بتقليد طنينه. نظر إليَّ، وكان من الواضح أنَّ الطنينَ أثار نفوره. سألني: «هل أفعل ذلك؟».

«نعم، كلَّ مساء».

«لم يكن لديَّ أدنى فكرة».

توقَّف في جمودٍ. نظر إليَّ بجدية قائلًا: «هل يمكن أنني اكتسبتُ عادة؟».

«حسنًا، يبدو ذلك. أليس كذلك؟».

سحب شفته السفلى بين إصبعه وإبهامه، نظر إلى بِركة صغيرة عند قدميه.

قال: «ذهني مشغولٌ جدًّا. وأنتَ تريد أن تعرف لماذا! حسنًا، يا سيدي، يمكنني أن أؤكد لكَ أنَّ الأمرَ لا يقتصر على أنني لا أعرف لماذا أفعل هذه الأشياء، بل لم أكن أعرف حتى إنني أفعلها. ولنفكر في الأمر، ما تقوله صحيح، لم أخرج أبدًا من مجال... هل هذه الأشياء تزعجك؟».

لسببٍ ما بدأت ألين تجاهه، قلتُ: «لا تزعجني. لكن تخيَّل نفسكَ تكتب مسرحية!».

«لا يمكنني».

«حسنًا، تخيل أيَّ شيء يحتاج إلى تركيزٍ».

قال: «آها! بالطبع»، وبدأ يتأمَّل. أصبح تعبيره عن الضيق واضحًا، لدرجة أنني رضخت أكثر. هناك، قبل كل شيء، لمسة من العدوان في مطالبة رجل بشيء وأنت لا تعرف لماذا يصدر ذلك الطنين على ممرٍّ عامٍّ للمشاة.

قال بضعفٍ: «أنت تعرف. إنها عادة».

«أوه، أنا أدرك ذلك».

«يجب أن أتوقف عن ممارستها».

«إلا إذا كان هذا سيضايقك. فقبل كل شيء، هذا ليس من شأني، أنت حُرٌّ».

قال: «كلا على الإطلاق، يا سيدي، على الإطلاق. أنا مَدينٌ لكَ بشدة، يجب أن أحذر من هذه الأشياء، سأتوخَّى الحذر في المستقبل. هل يمكنني أن أزعجك مرة أخرى بسؤالٍ؟ سؤالٍ عن تلك الضوضاء؟».

قلتُ: «شيء مثل زوزووووو، زوزووووو. وإنما في الحقيقة، كما تعلم...».

«أنا ممتنٌّ لكَ جدًّا. وفي واقع الأمر، أعرف أنني أصبحتُ شاردَ الذهن بشكلٍ سخيفٍ. كلامك له ما يبرره، يا سيدي، له ما يبرره تمامًا. وأنا، في الواقع، مَدينٌ لك. ستنتهي هذه المسألة. والآن يا سيدي، لقد أطلتُ عليكَ، أكثر مما ينبغي».

«آمل أن وقاحتي...».

«كلا على الإطلاق، يا سيدي، على الإطلاق».

نظرنا إلى بعضنا لحظة، رفعتُ قبعتي وتمنيتُ له أمسية طيبة، أجاب بهزِّ رأسه، ثم ذهب كلٌّ منَّا في طريقه. نظرتُ إلى الوراء خلال سيري، ورأيته وهو يبتعد؛ تغيَّرت مِشيته بشكلٍ ملحوظٍ، بدا كأنَّما يعرج وينكمش. أشعرني هذا التناقض بين طريقته الآن وطريقته وإيماءاته السابقة بأنني تعاملتُ معه بسخافة. ظللتُ أشاهده حتى اختفى عن نطاق بصري. كنتُ أتمنى من كل قلبي أن أظل مُركِّزًا على عملي وشؤوني الخاصة، عدتُ إلى كوخي ومسرحيتي.

لم أره في المساء التالي، ولا في المساء الذي يليه. لكنَّه شغل ذهني كثيرًا، وخطر لي أنه كشخصية هزلية انفعالية قد يخدم غرضًا مفيدًا في تطوير حبكة مسرحيتي. وفي اليوم الثالث، سمِعته يناديني.

بقيتُ لفترة أفكر في حيرة عن سبب حضوره. أجرى محادثة فاترة بطريقة رسمية، وفجأة انتقل إلى حديث العمل، أراد أن يشتري كوخي.

قال: «كما ترى، أنا على الأقل لا ألومك، لكنَّكَ دمَّرتَ إحدى عاداتي، وهذا يُغيِّر نظام يومي. أنا أمرُّ هنا منذ سنوات... سنوات. لا شكَّ أنني أُصدر أصواتًا... لكنَّكَ جعلتَ الأمرَ كلَّه مستحيلًا!».

اقترحتُ عليه أن يحاول في اتجاهٍ آخر.

«لا. لا يوجد اتجاهٌ آخر، هذا هو الاتجاه الوحيد؛ فقد استفسرتُ عن الأمر. والآن، في الساعة الرابعة بعد ظهر كل يومٍ، آتي إلى حائطٍ مسدودٍ».

«ولكن، يا سيدي العزيز، إذا كان هذا الشيء يمثِّل أهمية كبيرة بالنسبة إليكَ...».

قال: «إنّه أمرٌ حيوي. كما ترى، أنا.. أنا باحثَ، ومنخرط في بحثٍ علميٍّ. أنا أعيش...»، توقف وبدا كأنَّه يفكر، ثم قال: «هناك»، وأشار فجأة بشكلٍ فيه خطورة بالقرب من عيني، «ذلك المنزل بالمداخن البيضاء، تراهم فقط فوق الأشجار. وظروفي غير طبيعية، غير طبيعية. وأنا على وشك التوصُّل إلى أحد أهم الاكتشافات، ويمكنني أن أؤكد لكَ أنَّه أحد أهم الاكتشافات على الإطلاق، ويتطلَّب الأمرُ مني التفكيرَ المستمرَّ، والصفاء والنشاط الذهني الدائميْن، وفترة بعد الظهيرة هي أفضل أوقاتي! تأتيني خلالها أفكارٌ جديدة، ووجهاتُ نظرٍ جديدة».

«ولكن لماذا لا تأتي في هدوءٍ وسكونٍ؟».

«لأنَّ كلَّ شيء سيختلف، يجب أن أتحلَّى بالوعي الذاتي. سوف أفكر فيكَ وأنتَ تكتب مسرحيتَك. ومراقبتك لي تزعجني. وكل هذا بدلًا من التفكير في عملي. لا! يجب أن أحصل على الكوخ».

فكرتُ في الأمر. أردتُ -بطبيعة الحال- أن أفكر في المسألة بدقة قبل قول أي شيء حاسم. كنتُ عمومًا على استعدادٍ للأعمال التجارية في تلك الأيام، والبيع يجذبني دائمًا، ولكن هذا الكوخ ليس ملكي في الأساس، وحتى لو بعته له بسعرٍ جيدٍ، قد أواجه مشاكلَ في نقل المتاع إذا عرف المالك الحالي بالصفقة، ومن ناحية أخرى يجب إبراء ذمتي. كان من الواضح أنَّها عملية تجارية تتطلَّب معالجة دقيقة. علاوة على ذلك، أثار اهتمامي أيضًا إمكانية سعيه وراء اختراعٍ له قيمة كبيرة. تبادر إلى ذهني أن أعرفَ المزيدَ عن هذا البحث، وليس بأي نيَّة غير شريفة، وإنما ببساطة بفكرة أنَّ هذه المعرفة قد تساعدني في أخذ راحة من الكتابة المسرحية، ولذا قررتُ إلقاءَ بعض المجسات.

كان مستعدًّا تمامًا لتقديم المعلومات. وما إن بدأ يتحدث، حتى أصبحت المحادثة في الواقع مونولوجًا؛ تحدَّث كرجلٍ مكبوتٍ منذ فترة طويلة، وظلَّ يناجي نفسَه مِرارًا وتكرارًا، تحدَّث لِمَا يقرب من ساعة، ويجب أن أعترف أنَّني وجدتُ صعوبةً في فَهْم ما قاله، لكنني شعرتُ خلال حديثِه بنبرة الارتياح التي تنتاب المرءُ عندما يتحدَّث عن عملِه. جمعتُ خلال تلك المقابلة الأولى القليلَ جدًّا عن مجمل ما يقوم به. ضمَّت كلماتُه مصطلحاتٍ تقنية غريبة عني تمامًا. أوضح نقطة أو نقطتين بما أسعده أن يطلق عليه «الرياضيات الأولية»، ومع إجراء حساباتٍ على مغلف بقلم من حبر النسخ، بطريقة تجعل حتى إمكانية الفهم صعبة. قلتُ: «نعم، نعم. استمر!». ومع ذلك، فَقد اقتنعتُ تمامًا أنَّه لم يكن مجرد مهووسٍ بالاكتشافات، فعلى الرغم من مظهرِه الغريب، كان يتمتع بقوة تقنعك بجديته بالفعل. كان ما يحكي عنه شيئًا يضمُّ احتمالاتٍ ميكانيكية. أخبرني أنَّ لديه سقيفة عملٍ، وثلاثة مساعدين تولَّى تدريبهم- كانوا في الأصل يعملون بالنجارة. والآن، لم تتبقَّ سوى خطوة واحدة من سقيفة العمل إلى مكتب براءات الاختراع. وقد دعاني لرؤية تلك الأشياء. قبلتُ الدعوة عن طيب خاطرٍ، وحرصتُ، بملاحظة أو نحو ذلك، على تأكيد قبولي. ومن دواعي شعوري بالراحة، أن ظلَّت فكرة انتقاله إلى كوخي مُعلَّقة.

وأخيرًا نهض ليغادر، مع اعتذارٍ عن طول مدة حديثه. قال إنَّ الحديثَ عن عملِه هو متعة لا يحظى بها إلَّا فيما ندر، وأنَّه نادرًا ما يجد مستمعًا ذكيًّا مثلي، حيث لا يختلط كثيرًا برجال العلم المهنيين.

قال موضِّحًا: «هناك الكثير من التفاهات، والكثير من المؤامرات! وفي الحقيقة، عندما توجد فكرة لدى المرء، فكرة جديدة خِصبة، لا أريد أن أكون متعصبًا، ولكن...».

أنا رجل يؤمن بالدوافع. وقدمت ما كان ربما اقتراحًا متهورًا. لكن تذكر أنّني وحيدٌ، أكتب مسرحية في ليم، لمدة أربعة عشر يومًا، ولا يزال ضميري يؤلمني على حديثي عن مشيته المدمَّرة. قلتُ: «لماذا لا تجعل هذه عادتك الجديدة؟ بدلاً من العادة التي أفسدتُها عليكَ؟ على الأقل، حتى نتمكَّن من التوصُّل إلى حلٍّ بشأن الكوخ. ما تريده هو أن تشغل ذهنَك بعملكَ، وهذا ما كنتَ تفعله دائمًا خلال التجول في فترة بعد الظهر، انتهى الأمر للأسف؛ ولا يمكنك استعادة الأشياء كما كانت. ولذا، لماذا لا تأتي وتتحدث معي عن عملِكَ؛ استخدمني كجدارٍ يمكنك إلقاء أفكارك عليه ثم استعادتها مرة أخرى؟ ومن المؤكد أنني لا أعرف ما يكفي لسرقة أفكارك، كما أنني لا أعرف أحدًا من رجال العلم...».

توقَّفتُ عن الكلام. كان يفكر، ومن الواضح أنَّ فكرتي أثارت اهتمامه. قال: «لكنني أخشى أن أُثقِل عليك».

«هل تعتقد أنَّني غبيٌّ جدًّا؟».

«أوه، لا. ولكن الجوانب التقنية...».

«على أي حالٍ، أنا استمتعتُ بحديثِكَ جدًّا بعد ظهر اليوم».

«بالطبع ستكون عونًا كبيرًا لي؛ فلا شيء يوضح أفكار المرء أكثر من شرحها. حتى الآن...».

«سيدي العزيز، لا تقل أكثر».

«ولكن، هل يمكنك حقًّا توفير الوقت؟».

أجبتُ باقتناعٍ عميقٍ: «لا توجد راحة أفضل من تغيير المهنة».

انتهى اللقاء. استدار وهو على سلالم الشرفة قائلًا: «إنَّني مَدينٌ لكَ بالفعل إلى حدٍّ كبيرٍ».

أصدرتُ ضوضاء استفهامية.

قال موضِّحًا: «لقد شفيتني تمامًا من عادة الطنين السخيفة هذه».

أعتقد أنني قلتُ إنَّه يسعدني أن أقدِّم له أيَّ خدمة. استدار مبتعدًا.

ويبدو أنَّ سلسلة الأفكار التي طرحتها محادثتُنا قد بدأت على الفور تستعيد تأرجحها، بدأت ذراعاه تلوحان بالطريقة السابقة، وحمل النسيم صدى الطنين الخافت.

حسنًا، هذا ليس من شأني.

جاء في اليوم التالي، ومرة أخرى في اليوم التالي له، وألقى على مسامعي محاضرتين في الفيزياء، وشعر كلانا بالرضا. تحدث بطريقة متعالية تعطي انطباعًا بفهمه الكامل لأشياء مثل «الأثير» و«أنابيب القوة»، و«إمكانات الجاذبية»، وأشياء أخرى من هذا القبيل. جلستُ على الكرسي الآخر القابل للطي، وقلتُ: «نعم، استمر، أنا أتابعك»، كي يظلَّ مستمرًّا. كانت موضوعات صعبة للغاية، لكنني لا أعتقد أنَّه شكَّ على الإطلاق في عدم فهمي لكلامه. مرَّت لحظاتٌ تشكَّكتُ خلالها فيما إذا كنتُ موظفًا جيدًا لديه؛ لكني، على أي حالٍ، كنت أستريح من العمل في تلك المسرحية المرتبكة. كان

شرحه لبعض الأشياء يبدو واضحًا بين الحين والآخر، وإن كنت أجد صعوبة في الفهم ثانية بعد أن تصورت أنني أمسكت بناصية الفكرة. وفي بعض الأحيان أفقد انتباهي تمامًا، وأرغب في مجرد الجلوس والتحديق بوجهه، متسائلًا عمَّا إذا كان من الأفضل استخدامه كشخصية مركزية في مسرحية هزلية جيدة، وترك جميع الأشياء الأخرى، وبعد ذلك أستعيد انتباهي مرة أخرى لبعض الوقت.

وفي أقرب فرصة ذهبتُ لرؤية منزلِه. منزل واسع ومفروش بإهمالٍ، لا يوجد خدمٌ غير مساعديه الثلاثة، وتميَّزت حياتُه الغذائية والخاصة ببساطة فلسفية. كان يحب شرب الماء، يأكل طعامًا نباتيًّا، ويفعل كلَّ تلك الأشياء التنظيمية المنطقية. لكن مشهد مُعداته حَسَمَ العديدَ من الشكوك. بدا الأمر كأنَّه عملٌ من القبو إلى العِلّية، مكانٌ صغيرٌ مدهشٌ للعثور عليه في قريةٍ تقع بعيدًا عن الطريق. ضمَّت غرف الطابق الأرضي مقاعدَ طويلة وأجهزة، وتطوَّر المخبز وغلّاية المطبخ إلى أفرانٍ محترمة، وامتلأ القبو بمولدات الكهرباء، كما رأيتُ عدَّاد غاز في الحديقة. أراني كلَّ هذه الأشياء بحماسة رجلٍ ظلَّ لفتراتٍ طويلة يعيش وحيدًا. كانت عزلته تفيض الآن بثقة زائدة، وكان من حسن حظي أن أكون المُتلقي.

كان المساعدون الثلاثة نماذجَ يمكن الاعتماد عليها من فئة «رجال العمل اليدوي»، الذي ينتمون إليه، يعملون بما يمليه الضمير وإن كانوا غير أذكياء، ويتمتَّعون بالقوة، وكانوا مُهذبين، وعلى أهبة الاستعداد. يتولَّى أحدُهما، واسمه سبارجوس، الطبخَ وجميعَ الأعمال التي تتعلَّق بالمعادن، وكان بحارًا. والثاني، جيبس، كان نجارًا، أمَّا الثالث، فكان بستانيًّا سابقًا، وهو الآن مساعدٌ عامٌّ. كانوا عمالًا بسطاء، بينما يتولَّى كافور جميعَ الأعمال الذكية. كان جهلُهم شديدًا، مقارنة حتى بانطباعي المشوَّش.

والآن، فيما يتعلَّق بطبيعة استفساراتي، توجد هنا للأسف صعوبة كبيرة؛ فأنا لستُ خبيرًا علميًّا، وإذا حاولتُ أن أوضِّح بلغة السيد كافور العلمية هدفَ تجاربه، أخشى أنني سوف أُربِك القارئ، بل وأُربِك نفسي أيضًا؛ ومن المؤكد أنني سأرتكب أخطاءً فادحة تثير سخرية أي طالب مبتدئ في رياضيات الفيزياء. ولذا، فإنَّ أفضلَ ما يمكنني القيام به هو تقديم انطباعاتي بلغتي غير الدقيقة، من دون أي محاولة لارتداء ثوب المعرفة الذي لا أزعم امتلاكه.

كان الهدف من بحث السيد كافور هو مادة يجب أن تكون «مُعتِمة» بالنسبة إلى «جميع أشكال الطاقة المُشعَّة»، وقد استخدم كلمة أخرى نسيتها، لكن كلمة «مُعتمة» تنقل الفكرة. أوضح لي أنَّ «الطاقة المُشعَّة» هي أي شيء مثل الضوء، أو الحرارة، أو أشعة رونتجن([3]) التي كَثُر الحديث عنها قبل عام أو نحو ذلك، أو مثل الموجات الكهربائية التي اكتشفها ماركوني، أو الجاذبية. وقال إنَّ هذه الأشياءَ جميعًا تشعُّ من مراكزها، وتؤثِّر في الأجسام عن بُعد، ومن هنا يأتي مصطلح «الطاقة المُشعَّة». والآن، تُعتبر جميع المواد تقريبًا مُعتِمة بالنسبة إلى شكلٍ أو آخر من الطاقة المُشعة. فالزجاج، على سبيل المثال، شفافٌ بالنسبة إلى الضوء، لكنَّه أقل شفافية بكثير بالنسبة إلى الحرارة، وبالتالي فهو مفيدٌ كحاجزٍ للنار. وحجر الشب شفافٌ للضوء، لكنَّ الحرارة لا تنفذ منه على الإطلاق. ومن ناحية أخرى، فإنَّ محلول اليود في ثاني كبريتيد الكربون يمنع الضوء تمامًا، لكنَّه شفافٌ بالكامل بالنسبة إلى الحرارة، سوف يمنع عنك النار، لكنَّه سيسمح لدفئها بالوصول إليك. أمَّا المعادن، فهي مُعتمة بالنسبة

إلى الضوء والحرارة، وأيضًا بالنسبة إلى الطاقة الكهربائية التي تمرُّ عبر كل من محلول اليود والزجاج كما لو أنَّهما غير متداخلين، وهَلُمَّ جرًّا.

وجميع المواد المعروفة حاليًّا تُعتبر «شفافة» بالنسبة إلى الجاذبية. يمكنكَ استخدام شاشاتٍ من مختلف الأنواع لمنع الضوء أو الحرارة، أو تأثير الشمس الكهربائي، أو دفء الأرض، عن أي شيء، ويمكنك فحص الأشياء بواسطة صفائح معدنية من أشعة ماركوني، لكن لا شيء سيمنع جاذبية الشمس أو جاذبية الأرض. ومع ذلك، لماذا لا يصعب قول أي شيء؟ لا يرى كافور سببًا لعدم وجود مثل هذه المادة، وبالتأكيد لم أستطع أن أقول له أيَّ شيء؛ فلم أفكر في مثل هذا الاحتمال من قبل. لقد أوضح وجهة نظره بحساباتٍ على الورق رأيتها -يفهمها بلا شكٍّ اللورد كيلفن، أو البروفيسور لودج، أو البروفيسور كارل بيرسون، أو أيٌّ من عظماء العِلم هؤلاء- لكنها ببساطة غمرت ذهني بتشوشٍ يائسٍ؛ فهي لا تقتصر على كونِها مادة ممكنة، بل يجب أن تفيَ أيضًا بشروطٍ معينة. كان تفكيرُه مذهلًا، أدهشني وأثار اهتمامي حينذاك، ومن المستحيل أن أتمكَّن من إعادة شرحه هنا. قلتُ له: «نعم، نعم، واصل حديثك!». يكفي لهذه القصة أنه يعتقد أن بإمكانه تصنيع هذه المادة المحتَملة، المُعتمة بالنسبة للجاذبية، من سبيكة معقدة من المعادن وشيءٍ جديدٍ، عنصرٍ جديدٍ، أعتقد أن اسمه هيليوم، وقد أُرسِل إليه من لندن في جِرار حجرية مُحكَمة الإغلاق. هناك شكٌّ حول هذا التفصيل الأخير، لكنني على يقينٍ أن الجِرار الحجرية محكمة الإغلاق كانت تضم عنصر الهيليوم. إنَّه بالتأكيد عنصرٌ غازيٌّ ورقيقٌ. لو كنت قد دونت ملاحظات، ولكن، كيف كان لي أن أتوقع ضرورة تدوين ملاحظات؟

إنَّ أيَّ شخصٍ لديه أدنى قدرٍ من الخيال سوف يُدرك الاحتمالات غير عادية لهذه المادة، وسوف يتعاطف قليلًا مع المشاعر التي أحسستُ بها عندما ظهر هذا الفهم من بين ضباب العبارات المبهمة التي عبَّر بها كافور عن نفسِه. يا لها من استراحة كوميدية في مسرحية! مرَّ بعضُ الوقت قبل أن أعتقد أنني فسَّرتُ كلامَه جيدًا، وكنتُ شديدَ الحرص على عدم طرح أسئلة قد تجعله يدرك حجم عُمق سوء فهمي خلال استعراضه اليومي لأفكاره. ومع ذلك، لن يتعاطف بالكامل أيُّ شخصٍ يقرأ القصة هنا؛ فمن سردي غير الجذَّاب، يستحيل أنَ تتمكَّن قوة إقناعي من توضيح أنَّ هذه المادة المدهشة سوف تُصنَع بالفعل.

لا أذكر أنني أعطيتُ مسرحيتي ساعة عملٍ متواصلٍ في أي وقتٍ بعد زيارتي لمنزله؛ انشغلتْ مخيلتي بأشياء أخرى. يبدو أنه لا يوجد حدٌّ لإمكانيات تلك المادة؛ أيًّا كانت الطريقة التي حاولتُ بها، كنتُ أشهد معجزاتٍ وثوراتٍ. على سبيل المثال، إذا أراد المرءُ رفعَ ثِقل، مهما كان هائلًا، ليس عليه سوى أن يضع ورقة من هذه المادة أسفل ذلك الثِقل، ثم يرفعه بقشَّة. كان دافعي الطبيعي الأول هو تطبيق هذا المبدأ على المدافع والمدرعات، وجميع مواد وأساليب الحرب، ثم تطبيقه على عمليات الشحن، ووسائل الحركة، والبناء، وكل ما يمكن تصوُّره من أشكال الصناعة البشرية. كانت الفرصة التي جلبتني إلى غرفة ولادة هذا الزمن الجديد -كان حقبة، لا أقل- هي إحدى تلك الفرص التي لا تأتي سوى مرة واحدة كلَّ ألف عام. تكشَّف الأمرُ، وأخذ يتسع ويتسع. رأيتُ فيه، من بين أمورٍ أخرى، خلاصي كرجل أعمالٍ؛ تخيَّلتُ شركة رئيسة، وشركات فرعية، وتطبيقات على اليمين واليسار،

وحلقات وائتمان، ومزايا، وامتيازات، تنتشر وتنتشر، إلى أن تقوم شركة واحدة ضخمة وهائلة للكافوريت بإدارة العالم وحُكمه.

وأكون أنا فيها!

عقدتُ العزمَ على الفور. كنتُ أعرف أنني أراهن بكلِّ شيءٍ، لكنَّني اتَّخذتُ قراري.

قلتُ له، مؤكِّدًا بصيغة الجمع: «نحن على وشك التوصُّل إلى أعظم اختراعٍ على الإطلاق، حتى الآن. إذا أردتَ أن تستبعدني، فعليك أن تفعل ذلك بقوة السلاح؛ سوف آتي لأصبِّح مساعدك الرابع بدءًا من الغد».

بدا متفاجِئًا من حماسي، دون ارتيابٍ أو عدائية، بل باستنكارٍ؛ نظر إليَّ متشكِّكًا، وقال: «ولكن، هل تعتقد حقًّا...؟ ومسرحيتك! ماذا عنها؟».

أجبتُ صائحًا: «لقد تلاشتْ! ألا ترى، يا سيدي العزيز، ما لديك؟ ألا ترى ما ستفعله؟».

كان كلامي يتَّسم بمسحة خطابية، لكنه بالفعل لم يكن يدرك مدى أهمية ما يقوم به. لم أستطع تصديقَه في البداية، لم يكن لديه أدنى فكرة. كان هذا الرجل المدهش، صغير الحجم، يعمل طيلة الوقت على أسس نظرية بحتة! وعندما قال إنَّه «أهم» بحث شهده العالمِ على الإطلاق، كان يعني ببساطة أنه جمع الكثيرَ من النظريات، وحسم الكثيرَ مما كان موضع شكٍّ؛ لكنَّه لم يفكر في كيفية تطبيق فكرته واستخدام هذا العنصر الجديد، أكثر من كونه مجردَ آلة تصنع بنادق، إنها مادة مُحتَمَلة، وهو على وشك صُنعها! هذه هي المسألة.

وهناك ما بعد صُنعها أيضًا، يا له من أحمق! إذا نجح في صُنعها، سوف تدرسها الأجيال القادمة باسم كافوريت أو كافورين، ويشتهر اسمُه وتنتشر صورته باعتباره حقَّق إنجازًا علميًّا في مجال الطبيعة، وأشياء من هذا القبيل، كان هذا كل ما في ذهنه! أنه سوف يُسقِط هذه القنبلة على العالم، كأنَّما اكتشف نوعًا جديدًا من البعوض! لكن مصادفة لقائي به غيَّرت الكثير، فقد كان يمكن أن يتلاشى كلُّ شيء، مثل شيء أو اثنين من الأشياء الصغيرة الأخرى التي أضاءها العلماء ثم تساقطت.

وعندما أدركتُ ذلك، كنتُ أنا من يتحدث، وكافور من يقول: «استمر!». قفزتُ، وأخذتُ أسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا، وأومئ مثل صبيٍّ في العشرين من عمره. حاولتُ أن أجعله يفهم واجباته ومسؤولياته في هذه المسألة- واجباتنا ومسؤولياتنا في هذه المسألة. أكدتُ له أنَّنا قد نجني ثروة كافية للقيام بأي نوعٍ من الثورة الاجتماعية التي نتخيَّلها، وقد نملك العالم بأسره وننظمه. أخبرته عن الشركات وبراءات الاختراع، وقضية العمليات السرية. وإنما يبدو أنَّ استيعابه لكل هذه الأشياء كان بقدر استيعابي لمعادلاته الرياضية. ظهرت نظرةٌ من الحيرة على وجهه الصغير المتورد، تلعثم بشيء حول اللا مبالاة بالثروة، لكنَّني تجاهلتُ كلَّ ذلك جانبًا؛ إذ يجب أن يصبح ثريًّا، ولم يكن من الجيد أن يتلعثم. حاولتُ أن أوضح له طبيعتي، وخبرتي الكبيرة جدًّا في مجال الأعمال التجارية. لم أخبره أنني مُفلس في ذلك الوقت، لأنَّه وضعٌ مؤقتٌ، لكنني أعتقد أنني نجحتُ في التوفيق بين فقري الواضح ومزاعمي المالية. وعلى نحوٍ تلقائي تمامًا، فيما يتعلَّق بطريقة نماء مثل هذه المشاريع، نشأ بيننا فَهْمٌ حول احتكار الكافوريت: عليه صُنع المادة، أنا أتولَّى الدعاية والترويج.

تشبَّثتَ بقوة بكلمتي «نحن» و«أنت»، في حين لم تكن كلمة «أنا» موجودة بالنسبة إليَّ.

كانت فكرته أنَّ الأرباح التي تحدثتُ عنها قد تذهب إلى مِنح البحث، لكن هذه المسألة، بطبيعة الحال، كان علينا تسويتها في وقتٍ لاحقٍ. قلتُ صائحًا: «لا بأس، لا بأس»، وأصررتُ على أهم نقطة وهي إنجاز صُنع المادة.

صِحتُ قائلًا: «إنها مادة لا يجرؤ أيُّ منزلٍ أو مصنعٍ أو حِصنٍ أو سفينة أن يستغني عنها؛ ذلك أنَّ تطبيقاتها عالمية، أكثر حتى من دواءٍ حاصلٍ على براءة اختراع، واستخدامها لا يقتصر على جانبٍ واحدٍ؛ فكلُّ استخدام من استخداماتها الممكنة -التي تتجاوز عشرة آلاف- سوف يجعلنا أغنياء، يا كافور، بما يفوق أحلام الجشع!».

قال: «لا! بدأتُ أفهم. يا لروعة أن يتعرَّف المرء على وجهات نظرٍ جديدة من خلال تبادُل الحديث!».

«وهو ما حدث للتوِّ، عندما تحدثت مع الرجل المناسب!».

قال: «لا أعتقد أنَّ هناك من يكره على الإطلاق الثروة الهائلة. وإنَّما، بالطبع، يوجد شيء واحد...».

توقَّف. ووقفتُ ساكنًا.

«من الممكن، كما تعرف، أننا قد لا نتمكَّن من صُنعها! ربما هي أحد تلك الأشياء الممكنة نظريًّا، لكنها غير قابلة للتحقيق عمليًّا، أو عندما نتمكَّن من صُنعها، قد تظهر عقبة ما صغيرة!».

قلتُ: «سوف نعالج العقبة عندما تظهر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)
صُنع الكافوريت للمرة الأولى

لم يكن لمخاوف كافور أساسٌ من الصحة فيما يتعلَّق بصُنع المادة فعليًّا، وفي 14 أكتوبر 1899، انتهى صُنع هذه المادة المذهلة!

ومن الغريب أنَّها صُنِعت في النهاية بمحض الصدفة، عندما لم يكن السيد كافور يتوقع ذلك. قام بصهر عددٍ من المعادن وبعض الأشياء الأخرى -أتمنَّى الآن لو كنتُ أعرف التفاصيل!- مع نية ترك الخليط ينصهر لمدة أسبوع، ثم تركه ليبرد ببطءٍ. تأتي المرحلة الأخيرة للخليط عندما تصل درجة حرارته إلى 60 درجة فهرنهايت، إلَّا إذا كان قد أخطأ في الحساب. لكن ما حدث أنَّ خلافًا نشب -لا يعرف عنه كافور أي شيء- حول صيانة الفرن، كان جيبس هو المسؤول عن الصيانة، وحاول فجأة تحويل المهمة إلى الرجل الذي كان بستانيًّا في السابق، على أساس أنَّ الفحمَ ليس سوى تربة، ويجري حفرها، وبالتالي لا تقع داخل دائرة اختصاص نجارٍ مثله. على أنَّ الرجلَ الذي كان بستانيًّا زعم أنَّ الفحم مادة معدنية أو شبيهة بالخام، ناهيك عن أنَّه كان يطبخ، لكن سبارجوس أصرَّ على أن يتولَّى جيبس الأمرَ لأنَّه نجارٌ، والفحم خشبٌ أحفوريٌّ معروفٌ، وبالتالي توقف جيبس عن تزويد الفرن، ولم يقم أيُّ شخصٍ آخر بهذه المهمة. هذا، في حين كان كافور منغمسًا بشدة في بعض المشاكل المهمة المتعلقة بآلة كافوريت للطيران (التي تُهمِل مقاومة الهواء، فضلًا عن موضوع أو موضوعين آخريْن)، بحيث لم يدرك وجود شيء خاطئ. حدثت الولادة المبكرة لاختراعه، عندما كان يعبُر الحقل متوجهًا نحو كوخي لنواصل حديثنا في فترة بعد الظهر ونشرب الشاي معًا.

أتذكر المناسبة بوضوحٍ شديدٍ. كان الماء يغلي، وكلُّ شيء جاهزٌ، وأخرجني طنينه إلى الشرفة. ظهرت هيئته القصيرة النشطة سوداء في مواجهة غروب الشمس الخريفي، وارتفعتْ إلى اليمين مداخنُ منزلِه فوق مجموعة من الأشجار رائعة الألوان، كما ارتفعت على مسافة أبعد تلال ويلدن، باهتة وزرقاء، في حين انتشر المستنقع الضبابي إلى اليسار واسعًا وهادئًا. ثم... اهتزَّت المداخن وانطلقت إلى عنان السماء، مصطدمة خلال ارتفاعها بسلسلة من الطوب، وتبعها سقفُ المنزل وقطعٌ مختلفة من الأثاث، ثم تجاوزهم لهبٌ أبيض ضخمٌ، وتمايلتْ الأشجار المحيطة بالمبنى وهي تدور وتتمزَّق إلى أشْلاء تقفز نحو النيران. كان دوي الرعد قد أصاب أذنيَّ من قبل وتركني بأذنٍ صماء مدى الحياة، وبالتالي كان كلُّ شيء حولي عبارة عن نوافذ تتحطَّم دون أن أنتبه.

مشيتُ ثلاث خطواتٍ من الشرفة نحو منزل كافور، ثم هاجمتني الرياح، وعلى الفور أصبح ذيل معطفي فوق رأسي، وأنا أتقدَّم إلى كافور في قفزاتٍ كبيرة وضد إرادتي تمامًا. وفي اللحظة نفسها، أمسكتْ الريح به، وأدارته بحيث حلَّق في الهواء. رأيتُ أحدَ أواني مدخنتي يصطدم بالأرض على بُعد ست ياردات مني، ويقفز كالأقدام، مسرعًا في خطواتٍ كبيرة نحو مركز الاضطراب. سقط كافور مرة ثانية وهو يرفس، ويتدحرج مِرارًا وتكرارًا على الأرض لمسافة، ثم جاهد وقام لتحمله الرياح إلى الأمام بسرعة هائلة، ثم تلاشى أخيرًا بين الأشجار المضطربة التي تتلوَّى حول منزله.

اندفعتْ كتلة من الدخان والرماد، وقطعة من مادة لامعة مزرقة إلى القمة. تحرَّك جزءٌ كبيرٌ من السياج أمامي، سقطتْ حوافُه، اصطدم بالأرض وسقط مسطحًا. وهكذا انتهى الأسوأ. سرعان ما هبط الاضطراب الجوي إلى مجرد عاصفة قوية، وعاد لي شعوري بأنني أتنفَّس ولديَّ قدمان. نجحتُ في التوقُّف، بالانحناء إلى الوراء ضد الرياح، وتمكَّنتُ من جمع شتات نفسي وعقلي. تغيَّر وجه العالَم كله في تلك اللحظة. اختفى غروب الشمس الهادئ، وأظلمت السماء بسحبٍ مهرولة، وسقط كلُّ شيء على الأرض متمايلًا مع العاصفة. نظرتُ إلى الوراء لأرى ما إذا كان كوخي لا يزال قائمًا بشكلٍ عامٍّ، ثم خطوتُ إلى الأشجار التي اختفى كافور بينها، ومن خلال فروعها الطويلة المكسوة بأوراق الشجر شاهدت ألسنة اللهب تتصاعد من منزلِه المحترق.

دخلتُ إلى الأيكة، واندفعتُ من شجرة إلى أخرى وأنا متشبثٌ بها، بحثتُ عنه دون جدوى، ثم رأيتُ شيئًا يتحرَّك وسط كومة من الأغصان والسياجات المُحطَّمة التي التصقتْ بجزءٍ من جدار حديقته. ركضتُ نحوه. وقبل أن أصل إليه، رأيته ينهض على قدميه الموحلتين، ويمدُّ يديه المتدليتين الداميتين. كما تطايرت مع الرياح بعض نهايات ملابسه الممزقة من منتصفها.

للحظة لم أتعرَّف على هذه الكتلة الترابية، ثم أدركتُ أنَّه كافور، مُغطًّى بالطين الذي تدحرج فيه. انحنى إلى الأمام في مواجهة الريح، يفرك الوحلَ من عينيه وفمه.

مدَّ يده الموحلة، وأسرع نحوي مترنحًا. كان الانفعال باديًا على وجهِه، وكتلٌ صغيرة من الطين لا تزال تتساقط منه. بدا متضررًا ومثيرًا للشفقة على نحوٍ لم أشهده من قبل، لذا أذهلتني جدًّا ملاحظته:

قال لاهثًا: «بارك لي، بارك لي!».

قلت: «أبارك لك! يا إلهي! لماذا؟».

«لقد فعلتها».

«فعلتها. ما الذي تسبَّب في ذلك الانفجار؟».

هبَّت عاصفةٌ من الرياح حالت دون إلمامي بكلِّ ما قاله، على أنَّني فهمتُ أنَّه قال إنَّ ما حدث لم يكن انفجارًا على الإطلاق. قذفتني الرياح نحوه، اصطدمتُ به ووقفنا متشبثين ببعضنا.

صرختُ في أذنه: «حاول أن تذهب إلى كوخي». لم يسمعني، وصاح بشيء عن «ثلاثة شهداء عِلم»، وأيضًا عن شيء: «ليس جيدًا بدرجة كبيرة». كان يعاني حينذاك من انطباعٍ بأنَّ مرافقيه الثلاثة لقوا حتفهم في الزوبعة، ولحسن الحظ لم يكن انطباعه صحيحًا؛ فما إن خرج من منزله ليأتي لزيارتي، حتى ذهب الثلاثة إلى الحانة في ليم لمناقشة مسألة الأفران وهم يحتسون المرطبات.

كرَّرتُ اقتراحي بالعودة إلى كوخي، وسمعني هذه المرة. تأبطتُ ذراعه ومشينا، ونجحنا أخيرًا في الوصول إلى سقيفة بقيت من سطح كوخي. جلس كلٌّ منَّا لاهثًا على كرسي بذراعين. وجدنا جميعَ النوافذ مكسورة، وقطعَ الأثاث الخفيفة في حالة من الفوضى، وإن لم يحدث أيُّ ضررٍ غير قابل للإصلاح. ومن حسن الحظ أنَّ باب المطبخ تحمَّل الضغط عليه، بحيث نجت جميع الأوانِي الفخارية

ومواد الطبخ. كان موقد الزيت لا يزال مشتعلًا، فوضعتَ الماءَ ليغلي مرة أخرى لإعداد الشاي. وبعد أن انتهيتُ، طلبتُ من كافور أن يفسِّر لي ما حدث.

قال بإصرارٍ: «هذا صحيحٌ، صحيحٌ تمامًا. لقد فعلتُها، وكلُّ شيء على ما يُرام».

اعترضتُ قائلًا: «حسنًا، لا بأس، لماذا لا نجد أيَّ كومة في مكانِها، أو سياجًا أو سقفًا من القش غير متضرر، على مسافة عشرين ميلًا تقريبًا...».

«كلُّ شيء على ما يرام بالفعل. لم أتوقَّع هذا الإزعاج البسيط. كان عقلي مشغولًا بمشكلة أخرى، وأنا أميل إلى تجاهل هذه القضايا الجانبية العملية. لكن كل شيء على ما يُرام...».

صحتُ: «سيدي العزيز، ألا ترى أنَّك ألحقتَ أضرارًا تُقدَّر بآلاف الجنيهات؟».

«أنا تحت أمرك. فأنا لستُ رجلًا عمليًّا، بالطبع، ولكن ألا تعتقد أنَّهم سيعتبرون ما حدث إعصارًا؟».

«لكن الانفجار...».

قال: «لم يكن انفجارًا. المسألة بسيطة جدًّا، لكنَّني، كما قلتُ، أميل إلى تجاهل هذه الأشياء الصغيرة، بسبب موضوع الطنين على نطاقٍ أوسع. لقد صنعتُ هذه المادة مصادفة، الكافوريت، على شكل شريحة رقيقة عريضة...».

توقَّف عن الكلام. «هل أنتَ على يقينٍ أن هذه المادة مُعتمة بالنسبة إلى الجاذبية، وأنَّها تحوُل دون انجذاب الأشياء نحو بعضها؟».

«نعم»، قلت. «نعم».

«حسنًا، بمجرد أن وصلت درجة الحرارة إلى 60 درجة فهرنهايت، واكتملت عملية تصنيعها، لم يعُد للهواء فوقها وزنًا، فضلًا عن أجزاءٍ من السقف والسطح والطابق فوقها. أعتقد أنك تعرف، كما يعرف الجميع حاليًّا، أنَّ الهواء له وزنٌ ويضغط على كل شيء على سطح الأرض، يضغط في جميع الاتجاهات، بضغطٍ يبلغ أربعة عشر رطلًا ونصفًا على البوصة المُربعة؟».

أجبته: «أعرف ذلك، استمر».

قال: «أعرف ذلك أيضًا». وهذا يوضح لك عدم جدوى المعرفة ما لم تُطبقها. كما ترى، الأمر ليس كذلك في حالة الكافوريت؛ فعندما توقَّف الهواءُ عن ممارسة أي ضغط، مارس الهواء المحيط به -وليس الذي فوقه- ضغطًا يبلغ أربعة عشر رطلًا ونصفًا على البوصة المُربعة على هذا الهواء الذي انعدم وزنه فجأة. آه! بدأت ترى! اندفع كلُّ الهواء المحيط بالكافوريت نحو الهواء فوقه بقوة لا تُقاوَم، فاضطرَّ الهواء فوق الكافوريت إلى الصعود لأعلى بعنفٍ، وفَقَدَ الهواء -الذي هرع ليحلَّ محله- وزنَه على الفور، فتوقفت عن ممارسة أي ضغط، وبالتالي فجَّر السقف والسطح.

«تعرف أنَّه شكَّل نوعًا من النافورة الجوية، نوعًا من المدخنة في الجو. وإذا لم يكن الكافوريت نفسه فضفاضًا وبالتالي امتصته المدخنة، هل خطر ببالك ما كان سيحدث؟».

فكرتَ، ثم قلتَ: «أعتقد أنّ الهواء سيندفع صاعدًا فوق تلك القطعة الجهنمية الآن».

قال: «بالضبط. نافورة ضخمة...».

«تتدفَّق إلى الفضاء! يا إلهي! كانت لتطرد الغلاف الجوي للأرض! وتسرق الهواء من العالَم! وبالتالي قد تتسبَّب في فناء البشرية جمعاء! تلك الكتلة الصغيرة من المادة!».

قال كافور: «ليس بالضبط إلى الفضاء، ولكن عمليًّا بدرجة السوء نفسها. كانت لتزيل الهواء من العالَم، مثلما يقشر المرءُ موزةً ويقذفها آلاف الأميال. ومن الممكن أن ترجع مرة أخرى، بالطبع، ولكن إلى عالَم مختنق! وهذا، من وجهة نظرنا، أفضل قليلًا من عدم عودتها على الإطلاق!».

بقيتُ للحظات مُحملِقًا ومذهولًا، لإدراكي كيف أفسد توقعاتي. سألته: «ماذا ستفعل الآن؟».

«بداية، إذا أمكنني استعارة مجرفة حديقة لأتخلَّص من بعض ذلك الطين الذي يغطيني، وأود أن تسمح لي بالاستفادة من وسائل الراحة في كوخك واستحم. وبعد ذلك نتحدث بإسهاب. فمن الحكمة، على ما أعتقد...»، وضع يده الموحلة على ذراعي واستأنف: «ألَّا تتحدث عن هذا الموضوع مع أيِّ شخص آخر. أعرف أنَّني تسبَّبتُ في أضرار كبيرة؛ وربما حتى انهارت بعضُ المساكن هنا وهناك في الريف. لكنَّني، من ناحية أخرى، لا أستطيع أن أدفع ثمنَ الأضرار التي تسبَّبتُ فيها؛ وبالتالي لن يؤدي الكشف عن السبب الحقيقي إلَّا إلى الحموضة المعوية وعرقلة عملي. تعرف أنَّ المرءَ ليس بإمكانِه أن يتنبَّأ بكلِّ شيء، ولا يمكن الموافقة للحظة واحدة على إضافة عبء الاعتبارات العملية إلى نظريتي. وفي وقتٍ لاحقٍ، عندما يحين أوان تدخل عقلك العملي، ويبدأ الإعلان عن الكافوريت – الإعلان عنه هي الكلمة الصحيحة، أليس كذلك؟- ويتحقَّق كلُّ ما تتوقَّعه له، يمكننا تسوية الأمور مع هؤلاء الأشخاص، ولكن ليس الآن، ليس الآن. وإذا لم تُقَدَّم تفسيرات أخرى، سيعزو الناس كلَّ ما حدث إلى الإعصار – نظرًا للحالة غير المُرضية لعلوم الأرصاد الجوية الراهنة. وعندئذ قد يجمع الناس بعض المال لتعويض المتضررين؛ وبما أنَّ منزلي قد احترق وانهار، فسوف أحصل في هذه الحالة على حصة كبيرة من التعويض، وهذا سيفيدنا للغاية في استكمال أبحاثنا. وإنما إذا عرف الناس أنني السبب في ذلك، فلن يحدث اكتتابٌ عامٌّ، وسوف يستبعدون الآخرين. وعندئذٍ، من الناحية العملية، لن أحصل على فرصة للعمل مجددًا في سلام. أما بالنسبة إلى المساعدين الثلاثة، ربما لا يزالون أحياء وربما لقوا حتفهم، هذه نقطة تفصيلية، فإذا كانوا قد لقوا حتفهم، فهي ليست خسارة كبيرة؛ فقد كان حماسهم أكبر كثيرًا من قدراتِهم، ويرجع هذا الحدث السيِّئ إلى إهمالِهم العمل في الفرن، وإذا كانوا لا يزالون أحياء، فإنني أشك في قدرة ما لديهم من ذكاءٍ على تفسير هذه المسألة، وسوف يقبلون قصة الإعصار. والآن، ونظرًا لأنَّ بيتي ليس صالحًا للسكنى مؤقتًا، هل تسمح لي بالإقامة في إحدى الغرف الخالية في كوخك...».

توقَّف، ونظر إليَّ.

فكرتُ في أنَّ مثل هذا الرجل ليس ضيفًا عاديًّا.

وقفتُ قائلًا: «ربما من الأفضل أن نبدأ بالبحث عن مجرفة»، ثم قدتُ الطريقَ إلى البقايا المتناثرة من الدفيئة.

وبينما كان يستحم، أخذتَ أفكر بمفردي في المسألة بأكملِها. من الواضح أنّ هناك مخاطرَ لم أكن أتوقَّعها في مرافقة السيد كافور؛ فشرود ذهنه الذي كاد أن يؤدي إلى إخلاء كوكب الأرض من سكان العالم، قد يؤدي في أي لحظة إلى مشكلاتٍ خطيرة أخرى. لكنَّني كنتُ شابًّا، وشؤوني الخاصة في حالة فوضى، وأتمتَّع بمِزاج لمغامرة متهورة، مع فرصة لشيء جيدٍ في نهايتها. استقرَّ في ذهني تمامًا الحصول على نصف النتائج على الأقل. من حسن الحظ أنني حصلتُ على كوخي بموجب اتفاقٍ لمدة ثلاث سنوات، كما سبق وأوضحت، دون أي مسؤولية عن الإصلاحات. واقتنيتُ الأثاثَ على عجلٍ بالمجان، وهو مؤمَّنٌ عليه. وفي النهاية قررتُ أن أستمر مع كافور وأرى نتائج عمله.

تغيَّرتْ، بطبيعة الحال، العديدُ من الجوانب إلى حدٍّ كبيرٍ. لم أعد أشكُّ في جميع الاحتمالات الهائلة للمادة، لكنَّ شكوكي بدأتْ تتجه نحو حاملات المدفعية وبراءات الأحذية طويلة الرقبة. بدأنا العملَ على الفور لإعادة بناء مختبره، والمضي قدمًا في تجاربِنا. بدأ كافور يتحدث بلغة تقترب من مستوى فهمي، كما لم يفعل من قبل، عندما يتعلَّق الأمر بخطوات صُنع المادة مرة أخرى.

«بالطبع يجب أن نصنعها مرة أخرى»، قال بنوعٍ من البهجة لم أتوقعه، «بالطبع يجب أن نصنعها مرة أخرى. ربما تغلَّبنا على الصعوبة، لكنَّنا تركنا النظرية خلفنا للأبد وإلى الأبد. إذا استطعنا تجنُّب تدمير كوكبنا الصغير هذا، فسوف نفعل ذلك. ولكن، هناك مخاطر! سوف توجد مخاطر. توجد مخاطر دائمًا في أي عملٍ تجريبي. وأقول لك، كرجلٍ عمليٍّ، إنَّنا سنواجه مخاطرَ. سوف أحاول من جانبي أن أجعلها أقل ما يمكن، وربما محدودة جدًّا. ومع ذلك لا أعرف. على أنَّ لديَّ تصوُّرًا لطريقة أخرى، يصعب شرحها حاليًّا. لكنَّ الغريبَ أنَّها تبادرت إلى ذهني بينما أتدحرج مِرارًا وتكرارًا في الوحل نتيجة الرياح، وتشككتُ كثيرًا في نهاية المغامرة برمتها، وهو الشيء الذي كان يجب أن أفكر فيه».

واجهنا بعض الصعوبات حتى مع مساعداتي، وفي الوقت نفسِه واصلنا العمل على ترميم المختبر. كان هناك الكثيرُ الذي يجب أن ننجزه قبل أن نصل إلى ضرورة اتخاذ قرارٍ حول دقة شكل وطريقة محاولتنا الثانية. وكانت العقبة الوحيدة أمامنا هي إضراب العمال الثلاثة، الذين اعترضوا على دوري كرئيس عمالٍ. لكنَّنا نجحنا في تسوية الأمر بعد يومين من التأخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

بناء الكرة

أتذكَّر بوضوح تلك المناسبة، عندما أخبرني كافور بفكرته عن الكرة. لقد ألمح إلى ذلك من قبل، وإنَّما يبدو الآن أنَّه كان في عجلة من أمره. كنَّا عائديْن إلى الكوخ لتناول الشاي، وفي الطريق بدأ طنينُه. وفجأة صاح: «هذا هو! هذا ينهي الأمر! نوع من الستائر الدوارة!».

سألته: «ينهي ماذا؟».

«الفضاء، في أي مكان! القمر».

«ماذا تعني؟».

أعني؟ ماذا، يجب أن تكون كرة! هذا ما أعنيه!».

رأيتُ أنَّني خارج الموضوع، فتركته فترة من الوقت يتحدَّث بطريقتِه. لم تكن لديَّ فكرةٌ عن الموضوع، وبالتالي عن اندفاعِه، لكنَّه أوضح لي الأمرَ بعد أن احتسى الشاي.

قال: «المسألة كالتالي: في المرة الأولى صنعتُ هذه المادة، التي تَحُول دون تأثير الجاذبية، في حوضٍ مسطَّح له حافة تُبقيه مُثبَّتًا. وبعد أن بردتْ مباشرة وانتهى التصنيع، حدث الاضطراب؛ لا يوجد شيءٌ فوقها له وزنه، تدفَّق الهواء متصاعدًا، وكذا المنزل. وإذا لم تتصاعد المادة نفسها، لا أعرف ماذا كان سيحدث! ولكن، لنفترض أنَّ المادة فضفاضة، وحرة تمامًا في الصعود؟».

«سوف ترتفع على الفور!».

«بالضبط. مع اضطرابٍ لا يزيد على إطلاق النار من مدفعٍ كبيرٍ».

«ولكن ما فائدة ذلك؟».

«سوف أصعد معها!».

وضعتُ فنجاني، وحدَّقت إليه.

أوضَحَ قائلًا: «تخيَّل كرةً كبيرةً بما يكفي لاستيعاب شخصين وأمتعتهما، كرة مصنوعة من الفولاذ ومُبطَّنة بالزجاج السميك؛ وتحتوي على مخزنٍ مناسبٍ من الهواء المتصلب، والغذاء المُركز، وجهاز تقطير المياه، وهلُمَّ جرًّا؛ ومطليَّة من الخارج بمينا من...».

«الكافوريت؟».

«نعم».

«وما كيفية الدخول فيها؟».

«كانت هناك مشكلة مماثلة حول شخصٍ بدينٍ».

«نعم، أعرف. ولكن كيف؟».

«هذا في منتهى السهولة. كوة محكمة الإغلاق تسمح بالدخول، هذا هو كلُّ المطلوب. وهذه، بطبيعة الحال، مسألة مُعقدة بعض الشيء؛ يجب أن يوجد صمامٌ، بحيث يمكن إلقاء الأشياء، إذا لزم الأمر، دون فقدان الكثير من الهواء».

«مثل ما فعله جول فيرن في روايتِه رحلة إلى القمر».

لكن كافور لم يكن قارئًا للروايات.

قلت ببطءٍ: «بدأتُ أفهم. يمكنُكَ الدخول عندما يكون الكافوريت دافئًا. وبمجرد أن يبرد، سيصبح منيعًا أمام الجاذبية، وعندئذٍ تطير...».

«في خطِّ المماس».

«سوف تنطلق في خطٍّ مستقيم ...»، توقفتُ فجأة. سألته: «ما الذي يمنع الكرة من السفر في خطٍّ مستقيم إلى الفضاء إلى الأبد؟ لستُ متأكدًا من الوصول إلى أي مكانٍ، وإذا حدث ووصلت؛ كيف ستعود؟».

أجاب كافور: «لقد فكرتُ في ذلك الآن، وهذا ما قصدتُه عندما قلتُ إنَّ هذا ينهي الأمر. يمكن أن تكون الكرة الزجاجية الداخلية محكمة الإغلاق دائمًا، باستثناء كوة الدخول. ويمكن تقسيم الكرة الفولاذية إلى أقسام، وبمقدور كلِّ قسم التدحرج على غرار الستائر الدوَّارة، التي يمكن تشغيلها بسهولة عن طريقَ زنبرك، وتحريكهاً بالكهرباء المنقولة عبر أسلاكٍ من البلاتين تنصهر خلال الزجاج. كلُّ هذه مجرد تفاصيل. وهكذا، كما ترى، أنَّه باستثناء سُمك الستائر الدوَّارة، فإنَّ الكافوريت الذي يغطي الكرة من الخارج سوف يتكوَّن من نوافذ أو ستائر - أي اسم تريده منهما. وعند إغلاق كلِّ هذه النوافذ أو الستائر، لن يدخل إلى الكرة أيُّ نوعٍ من الضوء، أو الحرارة، أو الجاذبية، أو الطاقة المشعة، وسوف تطير عبر الفضاء في خطٍّ مستقيمٍ، كما تقول. وعند فتح نافذة، تخيَّل إحدى النوافذ مفتوحة، هنا على الفور سوف يجذبنا أي جسمٍ ثقيلٍ يَصدف وجوده في هذا الاتجاه...».

جلستُ أستوعب الفكرة.

قال: «هل فهمتَ فكرتي؟».

«أووه، نعم».

«سنتمكَّن عمليًّا من التحرُّك في الفضاء كما يحلو لنا، وننجذب لهذا أو ذاك».

«أووه، نعم، هذا واضحٌ بما فيه الكفاية. وإنما فقط...».

«ماذا؟».

«لا أفهم تمامًا لماذا سنقوم بذلك! فهي مجرد قفزة خارج عالَمنا ثم العودة مرة أخرى».

«بالتأكيد! وعلى سبيل المثال، يمكننا أن نذهب إلى القمر».

«وعندما نصل إلى هناك؟ ماذا ستجد؟».

«سوف نرى. أووه! فكّر في المعرفة الجديدة».

«وهل هناك هواء؟».

«ربما».

قلتُ: «إنَّها فكرةٌ جيدةٌ، لكنَّها صادمة. فهي مسألةٌ كبيرةٌ جدًّا. القمر! أنا أُفضِّل تجربة بعض الأشياء الصغيرة أولًا».

«الكتل الصغيرة ليست واردة، نظرًا لتعذُّر وجود هواء».

«لماذا لا نُطبِّق فكرة الستائر الزنبركية -ستائر الكافوريت في حاويات فولاذية قوية- لرفع الأثقال؟».

قال بإصرار: «هذا لن ينجح. وعلى أي حالٍ، الذهاب إلى الفضاء الخارجي ليس أسوأ بكثيرٍ، إن لم يكن على الإطلاق، من رحلة استكشافية قطبية، ذهب كثيرون بالفعل في رحلاتٍ قطبية».

«ليس رجال الأعمال، وإلى جانب ذلك، يتقاضون رواتبَهم نظير البعثات الاستكشافية القطبية، وإذا حدث شيءٌ ما، هناك فرق الإغاثة. لكن ما تفكر فيه، ليس سوى طرد أنفسنا من العالَم من أجل لا شيء».

«يمكنك تسميتها رحلة تنقيب».

قلتُ: «عليكَ أن تسميها هكذا... ربما أكتب عنها كتابًا».

قال كافور: «ليس لديَّ أدنى شكٍّ في وجود معادن هناك».

«ماذا، على سبيل المثال؟».

«أوه! الكبريت، والخامات، وربما الذهب، وربما عناصر جديدة».

قلتُ: «وبالنسبة لتكلفة النقل. أنتَ تعرف أنَّكَ لستَ رجلًا عمليًّا، والقمر على بُعد ربع مليون ميل».

«يبدو لي أنَّ نقلَ أي وزنٍ إلى أي مكانٍ لن يكلِّف كثيرًا إذا قمتَ بتعبئته في حاوية من الكافوريت».

«لم أفكر في ذلك، يتسلَّمها الشاري مجانًا من البائع، هه؟».

«كما أنَّنا لسنا مُقيدين بالقمر».

«ماذا تعني؟».

«هناك المريخ: جوٌّ صافٍ، وبيئة جديدة، وشعورٌ مبهجٌ بخفة الوزن؛ ربما من الممتع الذهاب إلى هناك».

«هل يوجد هواءٌ على المريخ؟».

«أوه، نعم!».

«تتحدَّث كأنَّما تدير منشأة صحية. وبالمناسبة، كم يبعد المريخ؟».

قال كافور مبتهجًا: «مائتي مليون ميل في الوقت الحاضر، وتقترب من الشمس».

بدأ خيالي ينتعش مرة أخرى. «قبل أي شيء»، قلت، «هناك شيءٌ في كلِّ ما قيل، هناك سفرٌ...».

قفز إلى ذهني احتمالٌ غريبٌ، رأيتُ فجأة -كأنَّما في حلم- النظامَ الشمسي كلَّه متصلًا معًا بسفنٍ وكراتٍ فاخرة من الكافوريت، طافت في رأسي «حقوق السبق» - حقوق السبق الكوكبية. تذكرتُ الاحتكار الإسباني القديم في الذهب الأمريكي، ليس هذا الكوكب أو ذاك فقط، بل جميعهم. حدَّقت بوجه كافور الضارب إلى الحُمرة، وفجأة بدأ خيالي يقفز ويرقص. وقفتُ، مشيتُ صعودًا وهبوطًا. وانعقد لساني.

قلتُ: «لقد بدأتُ أستوعب. بدأت بالفعل أستوعب». ويبدو أنَّ الانتقال من الشكِّ إلى الحماس لا يستغرق فترة طويلة على الإطلاق. قلتُ صائحًا: «هذا رائعٌ! لا يُصدَّق! لم أكن أحلم بهذا النوع من الأشياء».

وبمجرد أن تخلَّصتُ من قشعريرة معارضتي، بدأتُ أشعر بما كان يكبته من إثارة. نهض هو أيضًا، وأخذ يتحرك في الغرفة مبتهجًا وصائحًا. تصرَّفنا كرجلين مُلهَمين.

«سوف نجد حلًّا لكل شيء!»، قال ردًّا على بعض الصعوبات التي تحدَّثتُ عنها. «سنحسم ذلك قريبًا! سنبدأ الليلة برسم تصميمات القوالب».

أجبتُه: «سنبدأ الآن»، وهرعنا إلى المختبر للبدء في العمل على الفور.

كنتُ، طيلة تلك الليلة، مثل طفلٍ في بلاد العجائب. بزغ الفجر وكلانا لا يزال يعمل، وأبقينا الضوء الكهربائي مستمرًّا، بغض النظر عن طلوع النهار. أتذكر الآن بالضبط كيف بدتْ هذه الرسوم، كنتُ أقوم بالتظليل والتلوين، في حين يرسم كافور؛ رسم أشياءَ وعلاماتٍ بسرعة في كل سطرٍ، لكنَّها صحيحة تمامًا. أرسلنا طلبات الستائر الفولاذية والإطارات التي كنَّا بحاجة إليها بعد عمل تلكَ الليلة، وانتهى تصميم الكرة الزجاجية خلال أسبوعٍ. تخلينا تمامًا عن محادثاتِنا في فترة بعد الظهر، وعن روتين حياتِنا القديم. كنَّا نعمل، وننام ونأكل عندما لم نعُد قادرين على العمل من شدة الجوع والتعب. أصابت عدوى حماسِنا رجالنا الثلاثة، على الرغم من عدم معرفتهم بالغرض من الكرة؛ خلال تلك الأيام، تخلَّى جيبس عن المشي، وأخذ يذهب إلى كلِّ مكانٍ حتى عبر الغرفة بنوعٍ من الركض الغريب.

كانت الكرة تنمو. انتهى شهر ديسمبر، وقضيتُ يومًا في يناير لشقِّ مسارٍ بمكنسة خلال الثلج من الكوخ إلى المختبر. مرَّ فبراير ومارس، وبحلول نهاية مارس، كنَّا على وشكِ الانتهاء. في يناير، جاء فريقٌ من الخيول، وحاوية ضخمة؛ أصبحت لدينا الآن كرة زجاجية سميكة جاهزة. وفي موقعها أسفل الرافعة، ربطناها بالحبال لرفعِها وإدخالِها إلى الهيكلِ الفولاذي. وصلتْ جميع القضبان وستائر

الغلاف الفولاذي في شهر فبراير؛ لم يكن في الحقيقة غلافًا كرويًّا، وإنّما متعدِّد الأسطح، مع ستارة دوارة عند كل سطحٍ، وقمنا بتثبيت أجزاء النصف السفلي معًا. وبحلول شهر مارس، كان الكافوريت نصفَ مصنوعٍ؛ فقد مرَّ تصنيع المعجون المعدني بمرحلتين، ولصقنا نصفه تمامًا على القضبان الفولاذية والستائر. كان من المدهش كيف حافظنا على اقترابِنا من خطوط إلهام كافور الأولى في العمل على المخطط. وعند الانتهاء من ربط أجزاء الكرة ببعضها، اقترح كافور إزالة سقف المختبر المؤقت الخشن، الذي أنجزنا فيه العمل، وبناء فرن حول الكرة، وبالتالي، يمكن إنجاز المرحلة الأخيرة من صُنع الكافوريت بعد تسخين المعجون إلى أن يصبح توهجًا أحمر باهتًا في تيارٍ من الهيليوم ووضعه على الكرة بالفعل.

ثم كان علينا أن نناقش ونقرر ما المؤن التي يجب أن نأخذها: الأطعمة المُعلبة، والسوائل المُركزة، وأسطوانات فولاذية تحتوي على أكسجين احتياطي. وترتيب لإزالة حمض الكربونيك والنفايات من الهواء، واستعادة الأكسجين عن طريق بيروكسيد الصوديوم، ومكثفات المياه، وغير ذلك من ضروريات. أتذكر تلك الكومة الصغيرة التي صنعناها في الركن -علب، ولفائف، وصناديق- أشياء عملية في واقع الأمر.

كان وقتًا عصيبًا، لم يتح فرصة للتفكير. وفي أحد الأيام، عندما كنَّا نقترب من النهاية، انتابني مِزاجٌ غريبٌ. كنتُ أضع طوبَ الفرن طوال الصباح، وجلستُ بجانب هذه الأشياء في حالة شديدة من الإرهاق، بدا كلُّ شيءٍ غريبًا ويصعب تصديقه.

قلتُ: «ولكن، يا كافور، بعد كل شيء! لماذا نفعل ذلك؟».

ابتسم قائلًا: «علينا الآن الذهاب».

قلتُ متأمِّلًا: «إلى القمر. ولكن ماذا تتوقَّع؟ أعتقد أنَّ القمر عالمٌ ميتٌ».

هزَّ كتفيه.

«سوف نرى».

«هل نحن؟»، قلتُ، وحدَّقت إلى الأمام.

قال: «أنت متعبٌ. من الأفضل أن تذهب في تمشية بعد ظهر اليوم».

قلت بعنادٍ: «لا، سأنهي عملي في بناء الطوب».

أكملتُ عملي، وأمضيتُ ليلة من الأرق. لا أظنني أمضيتُ مثل هذه الليلة من قبل. لقد مررتُ سابقًا ببعض الأوقات العصيبة قبل انهيار عملي، لكنَّني في أسوأها كنتُ أنام جيدًا مقارنة بهذه اليقظة المؤلمة اللا نهائية. شعرتُ فجأة بفزعٍ هائلٍ مما نحن على وشك القيام به.

لا أذكر أنني فكرتُ، قبل تلك الليلة، في جميع المخاطر التي يمكن أن نواجهها. والآن، ظهرتْ جميعُها أمامي كمجموعة من الأشباح، مثل تلك التي حاصرت براغ في يوم ما، وخيمت حولي. اكتسحتني غرابة ما كنَّا على وشك القيام به، وطبيعته الفضائية. كنتُ مثل رجُلٍ استيقظ من أحلامٍ

سارة إلى أكثر المناطق المحيطة فظاعة. رقدتَ وعيناي مفتوحتان، وبدت الكرة كأنّها تزداد ضعفًا، وبدا كافور خياليًّا وغير واقعي، وبدا المشروع كله يزداد جنونًا في كل لحظة.

نهضتُ من السرير وتجوَّلتُ في الغرفة. جلستُ عند النافذة محدِّقًا بضخامة الفضاء. بين النجوم يقع الفراغ، الظلام الذي يتعذَّر فهمه! حاولتُ أن أتذكر بعضَ المعارف المُجزَّأة التي اكتسبتها خلال قراءاتي غير المنتظمة في علم الفلك، لكنَّها كانت مبهمة لتقديم أي فكرة عمَّا قد نتوقعه. عُدتُ أخيرًا إلى الفراش، وانتزعتُ بعضَ لحظات النوم -بل بالأحرى لحظات من كابوس- شعرتُ خلالها أنني أسقط، وأسقط، أسقط إلى الأبد في هاوية السماء.

أذهلتُ كافور في وجبة الإفطار؛ قلتُ له باختصارٍ: «لن آتي معك في الكرة».

قابلتُ كلَّ احتجاجاتِه بإصرارٍ متجهمٍ، قلتُ: «هذا شيءٌ في غاية الجنون. وأنا لن آتي، الأمر في غاية الجنون».

لم أذهب معه إلى المختبر، شعرتُ بالقلق لفترة في كوخي؛ فأخذتُ القبعة والعصا وانطلقتُ بمفردي من دون أن أعرف إلى أين. تصادف أنَّه صباحٌ رائعٌ: رياح دافئة، وسماء زرقاء، وبداية ربيع أخضر، وجموع من الطيور تغرد. تناولتُ غداءً من لحم البقر والبيرة في حانة صغيرة بالقرب من قرية إلهام، وأذهلت المالك بملاحظة مناسبة عن الطقس: «يا له من أحمق، من يغادر العالَم في أيامٍ مثل هذه!».

قال المالِك: «هذا ما دأبتُ على قوله عندما أتأمَّل هذا العالَم». وجدتُ أنَّ هذا العالَم فسيحٌ، بالنسبة لروحٍ فقيرة واحدة على الأقل، ثم صمتنا. غادرتُ، والأفكار تتطور في ذهني.

استمتعتُ بنومٍ لطيفٍ في فترة بعد الظهر، في مكانٍ مُشمسٍ، وواصلتُ طريقي منتعشًا.

وصلتُ إلى فندقٍ صغيرٍ مريح المظهر بالقرب من كانتربري. كان مدخلَه مشرقًا، والمالكة امرأةٌ عجوزٌ محبة للنظافة، لفتتْ انتباهي. وجدتُ أنَّ لديَّ ما يكفي من المال لسداد أجرة سكني عندها، وقررتُ المبيتَ هناك. كانت امرأةً ثرثارة، ومن بين العديد من التفاصيل الأخرى، علمتُ أنَّها لم تذهب أبدًا إلى لندن، قالت: «لم أبعد أبدًا عن كانتربري. أنا لستُ شخصًا يحب التجول».

سألتها: «ماذا تقولين عن رحلة إلى القمر؟».

قالت بوضوحٍ، تحت انطباع أنَّها رحلة عادية: «لم أركب معهم أبدًا في أي بالون، لن أصعد في إحداها أبدًا».

أضحكني كلامها. بعد أن تناولتُ وجبة العشاء، جلستُ على مقعدٍ عند باب الفندق، وأخذتُ أدردش مع عاملَيْن حول صناعة الطوب، والسيارات، ومسابقة الكريكيت في العام الماضي. وفي السماء، غرق هلالٌ جديدٌ باهتٌ، أزرق وغامض مثل جبلٍ بعيدٍ، غربًا فوق الشمس.

عُدتُ إلى كافور في اليوم التالي. قلتُ له: «أنا قادمٌ معك، كنتُ مضطربًا قليلًا، هذا كلُّ شيءٍ».

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أشعر فيها بشكوكٍ جدية في مشروعنا، مجرد توتر أعصابٍ! بعد ذلك عملتُ بعناية أكبر قليلًا، ودأبتُ على المشي لمدة ساعة يوميًّا. وأخيرًا، باستثناء التدفئة في الفرن، وصل عملُنا إلى نهايتِه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)
داخل الكرة

جلستُ عند حافة كوة الدخول، ونظرتُ إلى المناطق الداخلية السوداء من الكرة، فقال كافور: «هيَّا». كنَّا بمفردِنا هذا المساء، والشمس غربت، وسكون الغسق يلفُّ كلَّ شيء.

سحبتُ ساقي الأخرى إلى الداخل، وانزلقتُ على الزجاج الأملس إلى داخل الكرة، ثم استدرتُ لآخذ علبَ الطعام والمُعدات الأخرى من كافور. كان داخل الكرة دافئًا، ويشير مقياس الحرارة إلى 80 درجة فهرنهايت. ونظرًا لأنَّنا قد نفقد القليلَ أو لا نفقد أيَّ شيء من الحرارة عن طريق الإشعاع، فقد ارتدينا أحذية وملابس خفيفة. ومع ذلك، أخذنا معنا مجموعة من الملابس الصوفية والعديدَ من البطانيات السميكة للحماية من أي طارئ.

بتوجيهٍ من كافور، وضعتُ العبوات، وأسطوانات الأكسجين، وباقي الأشياء، من دون إحكام حول قدمي؛ وسرعان ما أدخلنا كلَّ شيء. سار كافور لبعض الوقت حول السقيفة الخالية من السطحً، بحثًا عن أي شيء ربما نسيناه، ثم زحف بعدي إلى الداخل. لاحظتُ شيئًا في يده.

سألته: «ماذا لديكَ؟».

«ألم تجلب معك أيَّ شيء للقراءة؟».

«يا إلهي! كلا».

«نسيتُ أن أخبرك. هناك شكوكٌ في أن تستمر رحلتنا... ربما لأسابيع!».

«ولكن...».

«سنطفو في هذه الكرة دون أي عملٍ على الإطلاق».

«ليتك أخبرتني...».

أطلَّ من كوة الدخول وقال: «انظر! يوجد شيءٌ هناك!».

«ألدينا وقتٌ؟».

«أمامنا ساعة».

نظرتُ إلى الخارج، ورأيتُ عددًا قديمًا من مجلة «تيت-بيتس»، لا بُدَّ أنَّ أحدَ الرجال أحضره. وأبعد منه، عند الركن، رأيتُ أجزاءً من صحيفة «لويدس نيوز». خرجتُ، ثم عُدت سريعًا إلى الكرة ومعي هذه الأشياء. قلتُ: «ماذا لديكَ؟».

أخذتُ الكتاب من يدِه، وقرأتُ: «أعمال ويليام شكسبير».

تلوَّن وجهُه قليلًا، وقال معتذرًا: «لقد كان تعليمي علميًّا بحتًا».

«ألم تقرأه أبدًا؟».

«أبدًا».

«كان يعرف القليلَ، كما تعلم، بطريقة غير منتظمة».

قال كافور: «هذا بالضبط ما قيل لي».

ساعدته على تثبيت الغطاء الزجاجي للكوة، ثم ضغط هو على مسمارٍ كبيرٍ لإغلاق الستارة المقابلة في الهيكل الخارجي. اختفى المستطيل الصغير الذي كنَّا نشهد منه الغَسَق، وخيَّم الظلام. بقينا لفترة صامتين. وعلى الرغم من أنَّ حاويتنا ليست منيعةً للصوت، فقد كان كلُّ شيءٍ ساكنًا. أدركتُ أنَّه لا يوجد شيءٌ يمكن الإمساك به عندما تحدث صدمة بداية الحركة، وأدركتُ أنَّني غير مستريحٍ لعدم وجود كرسي.

سألته: «لماذا ليس لدينا كراسٍ؟».

أجاب: «لقد رتبتُ كلَّ شيء؛ لن نحتاج إلى كراسٍ».

«لماذا؟».

قال بنبرة رجلٍ لا يريد التحدُّث: «سوف ترى».

لذتُ بالصمت. وفجأة خطر ببالي أنني أحمق لقبولي الوجود داخل هذه الكرة. وحتى الآن، سألتُ نفسي، هل فات أوان الانسحاب؟ أعرف أنَّ العالَم خارج الكرة سيكون باردًا وغير مضيافٍ بما يكفي؛ فقد عشتُ لأسابيع على إعاناتٍ من كافور، ولكن هل سيكون باردًا مثل الصفر اللا نهائي، وغير مضيافٍ مثل الفضاء الفارغ؟ لو لم يكن لمظهر الجُبن، أظن أنه كان يجب -حتى ذلك الحين- أن أدعه يُخرِجني، لكنني تردَّدتُ. تردَّدتُ، وتنامى غضبي، ومرَّ الوقت.

صدر صوتُ هزَّة صغيرة، مثل صوت غطاءِ زجاجة الشمبانيا عند فتحها في غرفة أخرى، وتلاه صوتُ صفيرٍ خافت. شعرتُ للحظة بتوتُّرٍ هائلٍ، واعتقادٍ عابرٍ بأنَّ قدمي تضغط إلى أسفل بقوة أطنان تُعد ولَا تُحصى. استمرَّ هذا الشعورُ لفترة محدودة جدًّا، لكنَّه دفعني لاتخاذ موقفٍ. قلتُ في الظلام: «كافور، أعصابي تتمزَّق. لا أعتقد أن...».

توقفتُ، ولم يرد.

قلتُ صائحًا: «أنا مرتبكٌ! أنا أحمق! ماذا أفعل هنا؟ لن آتي يا كافور، الأمرُ جدٌّ خطيرٌ، سوف أخرج».

قال: «لا يمكنك».

«لا يمكنني! سنرى حالًا!».

مرَّت عشر ثوانٍ من دون أن يرد، ثم قال: «لقد فات أوان الشِجار الآن، يا بدفورد. ذلك الاهتزاز الأحمق الصغير كان البداية؛ نحن نطير في الفضاء الآن بسرعة انطلاق رصاصة».

قلتَ: «أنا...»، ثم انتابني شعورٌ باللا مبالاة. بقيتَ لفترة، وهو أيضًا، في حالة ذهولٍ. لم يكن لديَّ ما أقوله؛ كأنَّما لم أسمع بفكرة مغادرة العالَم من قبل. ثم أدركتُ تغييرًا، غير قابلٍ للتفسير، في أحاسيسي الجسدية. كان شعورًا بالخفَّة واللا واقعية، فضلًا عن شعورٍ غريبٍ في الرأس، وتأثيرٍ يشبه السكتة الدماغية، وضربات الأوعية الدموية في الأذنين. لم تتضاءلْ أيٌّ من هذه المشاعر مع مرور الوقت، لكني اعتدتها في النهاية لدرجة أنها لم تعُد تزعجني.

سمعتُ صوتَ طقطقة، ثم أُضيء مصباحٌ صغيرٌ.

رأيتُ وجه كافور، كان شاحبًا، وشعرتُ أنَّ وجهي شاحبٌ أيضًا. نظر كلٌّ منَّا إلى الآخر في صمتٍ، بدا كأنَّه يطفو في الفراغ، بسبب سواد الزجاج الشفاف خلفه.

قلتُ أخيرًا: «حسنًا، نحن على التزامنا».

قال: «نعم، نحن على التزامنا».

كنتُ على وشك الالتفات، فصرخ: «لا تتحرك، دع عضلاتكَ تسترخي تمامًا، كأنَّك في سريرك. نحن الآن داخل عالَمنا الصغير. انظر إلى هذه الأشياء!»، وأشار إلى الصناديق والحِزم المُلقاة بحرية على البطانيات في قاع الكرة. اندهشتُ لرؤيتِها تطفو الآن على بُعد قدمٍ تقريبًا من الجدار الكروي. ثم رأيتُ من ظل كافور أنَّه لم يعُد يتكئ على الزجاج. مددتُ يدي خلفي، ووجدتُ أنني أيضًا مُعلقٌ في الفضاء، بعيدًا عن الزجاج.

لم أصرخ ولم أتحرَّك، لكنَّ الخوفَ تملَّكني. كان الأمرُ أشبه بشيءٍ أمسكَ بي ورفعني، ولا أعرف ما هو، ومجرد لمسة من يدي على الزجاج جعلتني أتحرَّك بسرعة. فهمتُ ما حدث، لكنَّ ذلك لم يمنع خوفي. لقد انفصلنا عن كلِّ جاذبية خارجية، وأصبحنا نقع فقط تحت تأثير جاذبية الأشياء الموجودة داخل كرتنا، وبالتالي، كلُّ ما لم نقم بتثبيته على الزجاج كان يسقط -ببطءٍ بسبب ضآلة كتلتينا- نحو مركز ثِقل عالَمِنا الصغير، الذي بدا أنَّه في مكانٍ ما بالقرب من منتصف الكرة، بل أقرب إليَّ من كافور، بسبب وزني الأكبر.

«يجب أن نستدير»، قال كافور، «ونطفو مرة أخرى إلى الخلف، على أن توجد الأشياء بيننا».

كان أغرب إحساسٍ يمكن تصوُّره، الطفو على هذا النحو بحرية في الفضاء. كان في البداية غريبًا بشكلٍ مفزعٍ؛ وعندما زال الرعب، لم يكن الأمرُ مزعجًا على الإطلاق، بل مُريحًا للغاية. وفي الواقع، يمكن القولُ إنَّ أقرب شيءٍ أعرفه لهذا الإحساس على الأرض هو الاستلقاء على سريرٍ سميكٍ من الريش الناعم. لكنَّ الفارقَ هو نوعية الانفصال التام والاستقلال! لم أكن أتوقَّع أشياءَ من هذا القبيل، توقَّعتُ اهتزازًا عنيفًا عند الانطلاق، وشعورًا بالدوار من جرَّاء السرعة. لكنَّني شعرتُ كأنَّني بلا جسدٍ، لم تكن بداية رحلة، بل كانت مثل بداية حلمٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)
الرحلة إلى القمر

أطفأ كافور الضوءَ الآن. وقال إنَّ مخزونَ الطاقة لدينا ليس كبيرًا، ويجب أن نوفِّره للقراءة. بقينا لفترة، لا أعرف طويلة أم قصيرة، ليس فيها أيُّ شيء سوى الظلام الدامس.

أثار الفراغُ من حولي سؤالًا: «كيف نسير؟ ما اتجاهنا؟».

«نحن نطير بعيدًا عن الأرض في خطٍّ مستقيم، وبما أنَّ القمرَ قريبٌ من الربع الثالث من كوكب الأرض، فإنَّنا ذاهبون إلى مكانٍ ما نحوه. سأفتح الستارة...».

سمعتُ نقرةً، انفتحتْ بعدها نافذةٌ في الغلاف الخارجي للكرة. كانت السماء سوداء في الخارج، مثل الظلام داخل الكرة، لكنَّ شكل النافذة المفتوحة تميَّز بعددٍ لا حصر له من النجوم. أولئك الذين لم يروْا السماءَ المرصَّعة بالنجوم إلَّا من على كوكب الأرض، لا يمكنهم تخيُّل مظهرها عند سحب الحجاب الغامض نصف المضيء لهوائنا، فالنجوم التي نراها من كوكبِنا هي مجرد نجوم ناجية متناثرة، تخترق غلافَنا الجوي الضبابي. وبإمكاني أخيرًا الآن أن أدرك معنى ضيوف السماء!

نرى الآن أشياءَ غريبة، تلك السماء خالية الهواء، المرصَّعة بالنجوم! وأعتقد أنَّ هذا المشهد، من بين كلِّ الأشياء، سيكون آخر ما يمكن نسيانه.

اختفتْ النافذة الصغيرة بنقرة، وانفتحتْ نافذةٌ أخرى بجانبِها ثم أُغلِقت على الفور، ثم ثالثة، وللحظة اضطررتُ إلى إغلاق عيني بسبب ضوء القمر المبهر.

بقيتُ لفترة أتطلَّع إلى كافور والأشياء البيضاء المضاءة حولي لتعتاد عيني الضوء مرة أخرى، قبل أن أتمكَّن من تحويلِها نحو هذا الوهج الباهت.

فتح كافور أربعَ نوافذ كي تؤثِّر جاذبية القمر على جميع المواد في كرتنا. وجدتُ أنَّني لم أعد أطفو بحرية في الفضاء، بل استقرَّت قدماي على الزجاج في اتجاه القمر. كما أخذتْ البطانيات وصناديق المؤن تزحف ببطءٍ إلى أسفل نحو الزجاج، ثم استقرَّت في وضعٍ يحجب جزءًا من المشهد. بدا لي، بالطبع، أنَّني أنظر «إلى الأسفل»، عندما نظرتُ إلى القمر. فعلى كوكب الأرض، كلمة «أسفل» تعني في اتجاه الأرض، أي الطريقة التي تسقط بها الأشياء، وكلمة «أعلى» تعني الاتجاه العكسي. قوة الجاذبية الآن نحو القمر؛ وعلى عكس ما كنت أعرفه، تُعتبر أرضنا في أعلى. وبطبيعة الحال، عند إغلاق جميع الستائر الكافوريت، كان «أسفل» في اتجاه وسط كرتنا، و«أعلى» في اتجاه جدارها الخارجي.

وكان من الغريب، على عكس الوضع على كوكب الأرض أيضًا، أن يصعد الضوءُ إليكَ. يسقط الضوء على الأرض من الأعلى، أو يأتي مائلًا إلى أسفل، لكنَّه هنا أتى من تحت أقدامِنا؛ ولكي نرى ظلالنا، علينا أن ننظر إلى أعلى.

شعرتَ في البداية بنوعٍ من الدوار، وأنا أقف على زجاجٍ سميكٍ، وأنظر إلى أسفل نحو سطح القمر عبر مئات الآلاف من الأميال من المساحة الشاغرة، لكنَّ هذا الشعور المَرَضي مرَّ بسرعة كبيرة. وبعد ذلك.. يا لَروعة المشهد!

قد يتصوَّر القارئ أنَّه من الأفضل أن يرقد على الأرض في ليلة صيفٍ دافئة وينظر بين قدميه المرتفعتين إلى القمر، لكنَّ القمرَ، لسببٍ ما، بدا أكبر كثيرًا عمَّا يبدو عليه من الأرض (ربما لأنَّ غياب الهواء جعله أكثر إشراقًا)، بدا القمر بالفعل أكبر بكثيرٍ مما هو عليه من الأرض؛ كانت التفاصيل الدقيقة لسطحِه واضحة للغاية. ونظرًا لأنَّنا لم نره من خلال الهواء، كانت حدوده ساطعة ومُحددة بوضوحٍ، ولم يوجد توهُّجٌ أو هالة حوله، ووصل غبار النجوم -الذي غطى السماء- إلى حوافِه مباشرة، مُحدِّدًا خطوطه الخارجية للجزء غير المُضاء. وبينما كنتُ أقف مُحدِّقًا إلى القمر بين قدمي، عاودني ذلك التصوُّر حول المستحيل الذي راودني منذ البداية، عاودني مرة أخرى وباقتناعٍ أكبر بعشرة أضعاف.

قلتُ: «كافور، أنا قلِقٌ بشكلٍ غريبٍ. تلك الشركات التي نود إدارتها، وكلُّ كلامنا عن المعادن؟».

«ماذا؟».

«لا أتخيَّلها هنا».

قال كافور: «لا. لكنَّك ستتغلَّب على كلِّ هذا».

«أعتقد أنني يجب أن أعود إلى الاتجاه الصحيح مرة أخرى. ومع ذلك، فإنني... للحظة كنت شبه مُعتَقِد أنه لا يمكن أن يوجد هناك عالَمٌ أبدًا».

«هذه النسخة من صحيفة «لويد نيوز» قد تساعدك».

نظرتُ في الصحيفة للحظة، ثم رفعتها فوق مستوى وجهي، ووجدتُ أنَّني أستطيع قراءتها بسهولة تامة. وقع بصري على عمودٍ للإعلانات الصغيرة السخيفة، قرأتُ: «رجلٌ لديه وسائل خاصة على استعدادٍ لإقراض المال»، أعرف ذلك الرجل. ثم شخصٌ غريبُ الأطوار يريد بيع دراجة كوتاواي «جديدة تمامًا تتكلَّف 15 جنيهًا استرلينيًّا» مقابل خمسة جنيهات. وسيدة في محنة ترغب في التخلُّص من بعض سكاكين وشوك السمك «هدية زفاف» في تضحية كبيرة. مما لا شكَّ فيه أنَّ شخصًا بسيطًا كان يفحص هذه السكاكين والشوك بعناية؛ وآخر يركب بانتصارٍ على تلك الدراجة؛ ويتناقش ثالثٌ بثقة مع رجل الخير الذي لديه وسائل خاصة، حتى وأنا أقرأ الصَحيفة. ضحكتُ، وتركتُ الصحيفة تسقط من يدي.

سألتُ: «هل يرانا سكان كوكب الأرض؟» هل نحن مرئيون من الأرض؟».

«لماذا؟».

«أعرف شخصًا يهتم إلى حدٍّ ما بعلم الفلك، وخطر لي أنَّه سيكون غريبًا نوعًا ما إذا تصادف وكان هذا الصديق ينظر من خلال تلسكوبٍ ما».

«يتطلب الأمر أقوى تلسكوبٍ على وجه الأرض حتى الآن، لرؤيتنا كنقطة صغيرة جدًّا».

أخذتُ أنظر صامتًا لفترة نحو سطح القمر.

قلتُ: «يا له من عالَمٍ؛ عالَمٍ يشعر به المرء أكثر مما يشعر به وهو على كوكب الأرض. ربما الناس...».

صاح: «الناس! لا، ابتعد عن هذه الفكرة! فكّر أنَّك من رحالة القطب الشمالي، تستكشف الأماكن المقفرة في الفضاء. انظر إليه!» وأشار بيده إلى البياض الساطع أدناه. «إنَّه ميتٌ، ميتٌ! براكين شاسعة انقرضتْ، وبراري من الحمم البركانية، ونفايات ثلجية متساقطة، أو حمض الكربونيك المُجمّد، أو هواء مُجمّد، وفي كلِّ مكانٍ طبقاتُ انزلاق التربة والشقوق والخلجان. لا شيء يحدث. يراقب البشر هذا الكوكب بشكلٍ منهجيٍّ، باستخدام التلسكوبات، منذ أكثر من مائتي عامٍ. ما حجم التغيير الذي تعتقد أنهم شاهدوه؟».

«لا شيء».

«لقد تتبَّعوا انزلاقيْن في التربة لا جدال فيهما، وصدعًا مشكوكًا فيه، وتغييرًا دوريًّا طفيفًا في اللون. وهذا كلُّ شيء».

«لم أكن أعرف حتى إنهم تتبَّعوا ذلك».

«أوه، نعم. ولكن بالنسبة إلى الناس...!».

«بالمناسبة»، سألته، «كيف يبدو صِغر أي شيء على سطح القمر عند النظر إليه من أكبر التلسكوبات على كوكب الأرض؟».

«يمكن للمرء أن يرى كنيسة بحجم معقولٍ. ويمكن بالتأكيد رؤية أي بلداتٍ أو مبانٍ، أو أي شيءٍ مثل الأعمال التي يقوم بها البشر يدويًّا. ربما هناك حشراتٌ، شيءٌ كالنمل مثلًا، تختبئ في جحورٍ عميقة من ضوء القمر، أو نوع جديد من المخلوقات التي ليس لها مثيلٌ أرضيٌّ. وهذا هو الأكثر احتمالًا، إذا وجدنا حياة هناك على الإطلاق. فكِّر في اختلاف الظروف! فالحياة يجب أن تتكيَّف مع يوم طوله أربعة عشر يومًا من أيام كوكب الأرض، ومع شمسٍ متوهجة بلا غيوم لأربعة عشر يومًا، ثم مع ليلة بالطول نفسِه، تزداد برودة تحت هذه النجوم الباردة الدقيقة. وتتسم تلكَ الليلة بالبرودة، أقصى برودة، الصفر المطلق، أي 273 درجة مئوية تحت درجة التجمُّد على كوكبنا الأرضي. ومهما كانت الحياة هناك، فإنَّ عليها أن تكمن خلال تلك الظروف ثم تنهض مرة أخرى كل يومٍ».

صمتَ للحظاتٍ متأمِّلًا، ثم قال: «يمكن للمرء أن يتصوَّر وجودَ شيء مثل دودة، تستنشق هواءً صلبًا كما يبتلع الدود على كوكب الأرض التربة؛ أو وحوش سميكة البشرة...».

قلتُ: «بالمناسبة، لماذا لم نجلب مسدسًا؟».

لم يُجِب عن هذا السؤال. واختتم حديثه قائلًا: «لا، علينا فقط أن نذهب. سنرى متى نصل إلى هناك».

تذكرتُ شيئًا. قلتُ: «بالطبع، لديَّ موادٌ معدنية، على أي حالٍ، مهما كانت الظروف».

أخبرني الآن أنّه يرغب في تغيير مسارِنا قليلًا، بالسماح لِكوكب الأرض أن يجذبنا للحظة. كان سيفتح ستارة في اتجاه كوكب الأرض لمَدة ثلاثين ثانية. حذَّرني من أنَّ ذلك سيجعل رأسي يسبح، ونصحني بمدِّ يدي نحو الزجاج لمنع سقوطي. فعلتُ ما نصحني به، ودفعتُ قدمي ضد بالاتٍ من علب الطعام وأسطوانات الهواء حتى لا تسقط فوقي. وبنقرة واحدة فُتِحت النافذة. وقعتُ بشكلٍ أخرق على يدي ووجهي، ورأيتُ للحظة -بين أصابعي السوداء الممتدة- أمنا الأرض، كوكبًا في سماء أسفلنا.

كنَّا لا نزال قريبين جدًّا. وأخبرني كافور أنَّ المسافة ربما 800 ميلٍ، والقرص الأرضي الضخم ملأ السماء كلَّها، لكنَّنا رأينا بوضوحٍ أنَّ العالَم كرويٌّ. كانت الأرض أسفلنا غامضة في الشفق، ولكن غربًا أشرقت الامتدادات الرماديَّة الشاسعة من المحيط الأطلسي، مثل الفضة المنصهرة في اليوم الآخذ في الانحسار. أعتقد أنني تعرفتُ على خطوط الساحل الباهتة الغائمة في فرنسا، وإسبانيا، وجنوب إنجلترا. ثم بنقرة واحدة، أغلقَ الستارة مرة أخرى، ووجدتني في حالة من الارتباك غير العادي وأنا أنزلق ببطءٍ فوق الزجاج الأملس.

عندما استقرَّت الأمور في ذهني مرة أخرى، بدا غير قابلٍ للتشكيك أنَّ القمر في «الأسفل» وتحت قدمي، وأنَّ كوكب الأرض في مكانٍ ما بعيدٍ على مستوى الأفق، الأرض التي كانت «أسفل» بالنسبة إليَّ ولنوعي البشري منذ بداية الأشياء.

كان المجهود المطلوب منَّا طفيفًا للغاية، بسبب الإلغاء العملي لأوزاننا، بحيث لم يتطلَّب الأمر منَّا تناول المرطبات لمدة ست ساعات تقريبًا (وفقًا لجهاز الكرونومتر[4]) لدى كافور) منذ بداية رحلتنا. أدهشني مرورُ الوقت. وحتى عندئذٍ، كنتُ راضيًا بأقل شيء. فحص كافور جهازَ امتصاص حمض الكربونيك والماء، وأبلغني أنَّه في حالة مُرضِية؛ حيث كان استهلاكنا للأكسجين طفيفًا بشكلٍ استثنائي. انتهينا من حديثِنا الآن، ولم يعُد لدينا شيءٌ آخر نقوم به، فاستسلمنا لنعاسٍ غريبٍ حلَّ بنا، فردنا البطانيات عند قاع الكرة بطريقة تمنع معظم ضوء القمر، وتمنينا لبعضنا ليلة سعيدة، وسقطنا نائمين على الفور.

وهكذا، نمنا، وأحيانًا نصحو لنتحدَّث ونقرأ قليلًا، وأحيانًا لنأكل وإن كان من دون شهية([5]). لكنَّ الجزءَ الأكبر كان نوعًا من الهدوء الذي لم يكن يقظة ولا نومًا؛ حيث سقطنا خلال فترة زمنية ليست ليلًا ولا نهارًا، ونحن نتجه بصمتٍ وهدوءٍ وسرعة إلى القمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)

الهبوط على سطح القمر

أتذكر كيف فتح كافور في أحد الأيام ست ستائر فجأة، وأعماني حتى إنني صرختُ بصوتٍ عالٍ في وجهه. كان القمر يملأ المكان بأكمله: هلالٌ أبيض هائلٌ، تتخلَّل شقوقٌ من الظلام حافتَه، ويدعم الهلال انحسار الظلام، وتبرز منه قممٌ وذُرًى تتلألأ في وهج الشمس. أعلم أنَّ القارئ قد رأى صورًا أو رسومًا للقمر، وأنَّني لستُ بحاجة إلى وصف ملامح أوسع لهذا المشهد؛ تلك السلاسل الجبلية الشبيهة بالحلقات وأوسع من أي جبالٍ على كوكب الأرض، وقممها مشرقة خلال النهار، وظلالها قاسية وعميقة، وتلك السهول الرمادية غير المنتظمة، والجبال والتلال والحُفر، تمرُّ جميعُها أخيرًا من إضاءة متوهجة إلى سوادٍ عامٍّ مُلغز. كنَّا نطير على نحوٍ مستعرَضٍ فوق قمم وذروات هذا العالَم على ارتفاع يبلغ حوالي مائة ميل. ويمكننا الآن رؤية ما لن تراه أيُّ عينٍ على الأرض: تحت وهج النهار، نرى الخطوط العريضة القاسية للصخور، ونرى وديانًا من السهول، وأرضيات فوهات البراكين، تبدو رمادية وغير واضحة تحت ضبابٍ كثيفٍ، بحيث يقتحم اللون الأبيض لأسطحها المضاءة كتلًا وبقعًا، ثم ينكمش مرة أخرى ويتقلص ويتلاشى، فضلًا عن درجات غريبة من اللونين البني والزيتوني تظهر وتنتشر.

على أنَّ الوقت الذي لدينا للمشاهدة كان محدودًا، فقد وصلنا الآن إلى مرحلة الخطر الحقيقي في رحلتنا. علينا أن نقترب أكثر من القمر، أثناء الدوران حوله، وأن نتباطأ في وتيرتِنا وننتهز فرصتَنا، حتى يمكننا أخيرًا أن نجرؤ على الهبوط على سطحِه.

كانت هذه فترة الجهد المكثَّف بالنسبة إلى كافور. أما بالنسبة إليَّ، فقد كانت فترة خمولٍ قلِق. بدا أنني أبتعد دومًا عن طريقه. أخذ يقفز في الكرة من نقطة إلى أخرى، بخفة حركة يستحيل تحقيقها على كوكب الأرض. ظلَّ خلال تلك الساعات الأخيرة المليئة بالأحداث يفتح ويغلق نوافذ الكافوريت باستمرارٍ، ويُجري الحسابات، وينظِر إلى مؤشر الكرونومتر مستعينًا بمصباحٍ. استمرَّت جميع نوافذنا مغلقة لفترة طويلة، ونحن معلَّقان بصمتٍ في الظلام عبر الفضاء.

أخذ يتحسَّس أزرار النوافذ، وفجأة فُتِحت أربع نوافذ. ترنَّحتُ وغطيتُ عيني، التي تشبعتا واحترقتا وأصيبتا بعمى مؤقت من وهج الشمس غير المعتاد تحت قدمي. ثم أغلق النوافذ مرة أخرى، وترك ذهني يدور في الظلام الذي ضغط على عينيَّ، ثم سبحتُ في صمتٍ أسود واسعٍ آخر.

أشعل كافور الضوءَ الكهربائي، وأخبرني أنَّه يقترح ربطَ جميع أمتعتِنا ولفَّها بالبطانيات، لتتحمَّل صدمة هبوطنا. أنجزنا ذلك ونوافذنا مُغلقة، وبهذه الطريقة رتَّبتْ أمتعتنا نفسها بشكلٍ طبيعيٍّ في وسط الكرة. وكان هذا أيضًا عملًا غريبًا: رجلان يطفوان بحرية في هذا الفضاء الكروي، ويجمعان المؤن ويسحبان الحِبال. تخيَّل ذلك إن استطعتَ! لا يوجد أعلى أو أسفل، وكلُّ جهدٍ يؤدي إلى تحرُّكاتٍ غير متوقَّعة. والآن، قمتُ بالضغط على الزجاج بقوة دفع كافور كاملة، وأخذتُ أركل بلا حولٍ ولا قوة في فراغ. أصبح نجمُ الضوء الكهربائي فوقي، والآن تحت أقدامي. تطفو أقدام كافور أمام عيني، تقاطع مسارانا. وأخيرًا أصبحت أمتعتنا مربوطة بأمانٍ في حزمة بطانياتٍ ناعمة كبيرة - ما عدا بطانيتين،

يلفَ كل منّا واحدة حوله ولا يظهر منه سوى رأسه. ثم فتح كافور لبرهة نافذة نحو القمر، ورأينا أنّنا نهبط في اتجاه فوهة رئيسة ضخمة، ذات عددٍ من الفوهات الصغيرة تتناثر متقاطعة حولها. فتح كافور مرة أخرى كرتَنا الصغيرة أمام الشمس الحارقة المُسبِّبة للعمى. أعتقد أنَّه كان يستخدم جاذبية الشمس كفرملة. صاح: «غطِّ نفسَك ببطانية»، ودفع نفسَه مبتعدًا عني. للحظة لم أفهم.

سحبتُ البطانية من تحت قدمي ولففتُ نفسي كاملًا، بما في ذلك رأسِي وعيني. وفجأة أغلق الستائر مرة أخرى، ثم فتح واحدة وأغلقها. ثم فجأة أيضًا بدأ يفتحها جميعًا، كلٌ بأمانٍ في أسطوانتِها الفولاذية. صدر صوتُ تصادم، وتدحرجنا كثيرًا واصطدمنا بالزجاج وبحزمة كبيرة من أمتعتنا؛ وفي الخارج، تناثرت مادة بيضاء كأنَّما نتدحرج على منحدرٍ من الثلج.

أعلى، قبضة، صدمة، قبضة، صدمة، أعلى...

صدر صوتٌ مكتومٌ. كنتُ نصفَ مدفونٍ تحت حزمة متاعنا، ولفَّ السكون كلَّ شيء لفترة. ثم سمعتُ كافور يلهث وينفخ، وزر الستارة في مكانه. بذلتُ جهدًا، ودفعتُ أمتعتنا الملفوفة بالبطانيات، وخرجتُ من تحتِها. بدتْ نوافذُنا المفتوحة كمجموعة أكثر سوادًا ومرصعة بالنجوم.

لا نزال أحياء، نرقد في ظلام ظل جدار الفوهة الهائلة التي سقطنا فيها.

جلسنا نستجمع أنفاسنا مرة أخرى، ونتحسَّس الكدمات على أطرافِنا. لا أعتقد أنَّ أيًّا منَّا كان يتوقَّع مثل هذا الهبوط القاسي. كافحتُ متألِّمًا حتى تمكَّنتُ من الوقوف. قلتُ: «والآن، لأتطلَّع إلى المشهد الطبيعي على القمر! ولكن...! إنَّه مظلمٌ للغاية يا كافور!».

كان الزجاج نديًّا، مسحته ببطانيتي وأنا أتحدَّث. قال كافور: «وصلنا قبل طلوع النهار بنصف ساعة أو نحو ذلك. يجب أن ننتظر».

كان من المستحيل التمييز بين أي شيء. كان ما يمكن رؤيته يوحي بأنَّنا في كرة فولاذية. مسحتُ لطخات الزجاج بالبطانية، لكنه سرعان ما أصبح معتمًا مرة أخرى بسبب كثافة الرطوبة الحديثة مختلطة بكمية متزايدة من شعر البطانية. بالطبع لم يكن عليَّ استخدام البطانية. وخلال جهدي لمسح الزجاج، انزلقتُ على سطحٍ رطبٍ، واصطدم ساقي بإحدى أسطوانات الأكسجين التي برزتْ من حزمة أمتعتنا.

كان الأمر مستفِزًّا، وسخيفًا؛ لقد وصلنا للتوِّ إلى سطح القمر، في وسط لا نعرف عجائبه، وكلُّ ما يمكننا رؤيته هو ذلك الجدار الرمادي للفقاعة التي جئنا بها.

قلتُ: «اللعنة! ربما توقفنا عند المنزل»، ثم جلستُ على الحزمة مرتجفًا، وأحكمتُ بطانيتي حولي.

وفجأة تحوَّلت الرطوبة إلى نقاطٍ لامعة وتجمدت. قال كافور: «هل يمكنكَ الوصول إلى السخان الكهربائي. نعم، ذلك المقبض الأسود. أو سنتجمَّد».

لم أنتظر ليكرِّر كلامَه. قلتُ: «والآن، ماذا سنفعل؟».

قال: «ننتظر».

«ننتظر؟».

«بالطبع، يجب أن ننتظر حتى يدفأ الهواء ثانية، ومن ثَمَّ يصبح هذا الزجاج صافيًا. لا يمكننا فعل أي شيء حتى ذلك الحين. الوقت هنا الآن ليلًا. يجب أن ننتظر طلوع النهار. وفي هذه الأثناء، ألا تشعر بالجوع؟».

لم أرد عليه، وجلستُ غاضبًا. أدرتُ وجهي على مضضٍ بعيدًا عن لطخات الزجاج، ونظرت إليه. قلتُ: «نعم، أنا جائعٌ. أشعر بخيبة أملٍ كبيرة. كنتُ أتوقع...، لا أعرف ماذا كنتُ أتوقَّع، ولكن ليس هذا».

استعدتُ رباطة جأشي، وأعدتُ ترتيب بطانيتي حولي، وجلستُ على الحزمة مرة أخرى، وبدأتُ أول وجبة لي على سطح القمر. لا أعتقد أنني أنهيتُ وجبتي، لا أتذكر. والآن، بدأتْ البقع تتمدَّد في مساحاتٍ أوسع، وبالتالي بدأ الزجاج يصفو، وزال الحجاب الضبابي الذي أخفى عالم القمر عن أعيننا.

أخذنا ننظر إلى المشهد الطبيعي على سطح القمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)

شروق الشمس على القمر

ما رأيناه في البداية كان أكثر المشاهد قفرًا وخرابًا. كنَّا في ملعبٍ ضخم، سهلٍ دائري واسع يُشكِّل أرضية الفوهة العملاقة. تحيط بنا من كل جانبٍ جدرانُه الشبيهة بمنحدرٍ صخري. سقط ضوء الشمس غير المرئية على الفوهة من جهة الغرب، ووصل إلى سفح المنحدر، فأظهر خندقًا غير منتظم من الصخور الكئيبة والرمادية، تصطف هنا وهناك عبر ضفاف الثلج وشقوقه. ربما كان هذا على بُعد اثني عشر ميلًا. لم يؤثر المناخ، في البداية، بأدنى درجة في تقليص التألُّق الشديد لتلك الأشياء الدقيقة أمامنا. وقفت واضحة مبهرة على خلفية من السواد المرصَّع بالنجوم، التي بدت لأعيننا البشرية كستارة مخملية أكثر تألُّقًا ولمعانًا من اتساع السماء.

كان المنحدر في اتجاه الشرق مجرد حافة بلا نجوم مقارنة بالقبة المرصَّعة بالنجوم. لم يُعلِن أيُّ تدفقٍ وردي، أو شحوبٍ زاحفٍ، عن بداية النهار. أشارت فقط الهالة، وضوء البروج، وضباب ضخم مخروطي الشكل ومضيء، إلى روعة نجمة الصباح، محذِّرة من اقتراب الشمس الوشيك.

وأيًّا ما كان الضوء حولنا، فقد انعكس في اتجاه الغرب على المنحدرات، وأظهر سهلًا متموجًا ضخمًا، باردًا ورماديًّا؛ وتعمَّقت الرمادية شرقًا في الظلام المُطلق لظلِّ المنحدر. أدركنا مسافة جدار الفوهة من عددٍ لا يُحصى من القمم الرمادية المستديرة، والروابي الشبحية، وكُتل المادة الثلجية، التي تمتد قمة وراء الأخرى إلى ظلام غامضٍ بعيدٍ. بدتْ هذه الروابي مثل الثلج. اعتقدتُ حينذاك أنها ثلوجٌ؛ لكنَّها لم تكن كذلك، بل كانتً أكوامًا وكتلًا من هواءٍ متجمِّدٍ.

هذا كان في البداية؛ ثم فجأة، وبسرعة مذهلة، ظهر النهار القمري.

تسلَّل ضوءُ الشمس إلى الجرف، ولمس الكتل المنجرفة في قاعدتِه، وأخذ يتقدَّم بخُطى واسعة نحونا. بدا المنحدر البعيد كأنَّما يتحرَّك ويرتجف. وعند لمسة الفجر، تصاعدت رائحة بخارٍ رماديٍّ إلى أعلى من أرضية الفوهة، فضلًا عن دوامات ونفخاتٍ وأعمدة دخانية منجرفة -رمادية، وأكثر سُمكا وكثافة واتساعًا- وفي النهاية، أصبح البخار يتصاعد من السهل كلِّه غربًا، مثل منديلٍ مبللٍ معرضٍ للنار؛ ولم تكن المنحدرات في الغرب أكثر من وهجٍ مكسورٍ في الخلف.

قال كافور: «إنَّه الهواء. لا بُدَّ من أنَّه الهواء، وإلَّا لن يرتفع هكذا بمجرد لمسة من شعاع الشمس. وعلى هذه الوتيرة...».

نظر إلى أعلى، ثم قال: «انظر!».

«ماذا؟»، سألته.

«في السماء، بالفعل. فوق السواد، هناك لمسة صغيرة من اللون الأزرق. انظر! تبدو النجوم أكبر، والنجوم الصغيرة، وكل تلك الضبابية الخافتة التي رأيناها في الفضاء الفارغ... لقد اختبأت!».

اقترب منّا النهار بسرعة وثباتٍ. أخذ وهجُ الشمس يجتاح القممَ الرمادية واحدة تِلوَ الأخرى، وتحوَّلت إلى دخانٍ أبيض كثيفٍ. وأخيرًا، في اتجاه الغرب، لم يكن هناك أيُّ شيءٍ سوى كومةٍ من الضباب الآخذ في الارتفاع، وتصاعد الضبابُ الملبَّدُ بالغيوم، زاد انحسار المنحدر البعيد، وبدا غامضًا ومتغيرًا خلال الدوامة، ثم غرق أخيرًا واختفى مرتبكًا.

زاد اقتراب البخار المتقدِّم، قادمًا بسرعة مثل ظلِّ سحابة، أمام الرياح الجنوبية الغربية، وارتفع حولنا ضبابٌ رقيقٌ.

أمسك كافور بذراعي. سألته: «ماذا هناك؟».

«انظر! شروق الشمس! الشمس!».

أدارني مشيرًا إلى حافة الجرف في اتجاه الشرق، حيث تلُوح فوق الضباب المحيط بنا، بلونٍ أفتح قليلًا من ظلام السماء، لكن حدوده تميَّزت الآن بأشكالٍ حمراء غريبة، ألسنة من لهبٍ قرمزيٍّ تتلوَّى وتتراقص. تخيَّلتُ أنَّها لا بُدَّ من أنَّها دوامات البخار التي اكتسبتْ الضوء وصنعتْ تلك القمة من الألسنة النارية في مواجهة السماء، لكن ما رأيته في الواقع كان بروزَ الشمس، تاجًا من النار حول الشمس، ويخفيه عن أعيننا إلى الأبد حجابُ غلافنا الجوي على كوكب الأرض.

ثم الشمس!

ظهر بثباتٍ خطٌّ لامعٌ، حافة رقيقة من سطوعٍ لا يُحتَمل يتَّخذ شكلًا دائريًّا، ثم أصبح قوسًا، فصولجانًا مشتعلًا حارقًا، وألقى علينا بعمودٍ من الحرارة كالرُمح.

بدا كأنَّه يطعن عيناي! صحتُ بصوتٍ عالٍ، وأخذتُ أدور كالأعمى، وأتلمس البطانية تحت حزمة المتاع.

ومع هذا الوهج جاء صوتٌ، أول صوتٍ يصلنا من الخارج منذ أن غادرنا كوكبَ الأرض، صوتُ هسهسة وحفيف، بقايا الأثر العاصف لطلوع نهار اليوم. تمايلتْ الكرة مع قدوم الصوت والضوء، وترنَّح كلانا بلا حولٍ ولا قوةٍ، والضوء يبهرنا ويعمي أعيننا. تمايلتْ الكرة مرة أخرى، وارتفع صوت الهسهسة. أغلقتُ عيناي بحكم الضرورة، وبذلتُ جهودًا خرقاء لتغطية رأسي ببطانيتي، لكن هذا التمايل الثاني أوقعني. سقطتُ فوق حزمة الأمتعة، وفتحتُ عيناي في لمحة لحظية للهواء خارج الزجاج. كان الهواء يغلي، مثل ثلجٍ دفعنا داخله بقضيبٍ أبيض ساخنٍ. فما كان هواءً صلبًا أصبح فجأة عند لمسة الشمس عجينًا، طينًا، وحلًا ذائبًا، يهسهس ويبقبق متحولًا إلى غازٍ.

دارتْ الكرة على نحوٍ عنيفٍ، فأمسك بعضنا ببعض. وفي اللحظة التالية كنَّا ندور مرة أخرى. دُرنا حوله مِرارًا وتكرارًا، ثم وجدتُ نفسي على أطرافي الأربعة. كنَّا في قبضة الفجر القمري، يريد أن يرينا -نحن الرجال الصغار- ما يمكن أن يفعله بنا القمر.

ألقيتُ لمحة ثانية نحو الأشياء في الخارج: نفث من البخار، وطين شبه ذائب يشق الحُفر وينزلق، يسقط، ينزلق. خيَّم علينا ظلامٌ. سقطتُ وركبتيْ كافور في صدري، ثم طار بعيدًا عني، وللحظة رقدتُ وكلُّ نفس من جسدي ينظر إلى أعلى. تناثرت فوقنا صخورٌ متساقطة من المواد المنصهرة،

دفنتنا، ثم أصبحتْ الآن رقيقة وبدأتْ تبعد وهي تغلي. رأيتَ الفقاعات تتراقص على الزجاج أعلاه. وسمعتُ كافور يصيح بضعفٍ.

ثم جرفنا انهيارٌ هائلٌ في الهواء الذائب أسفلنا، مع أصواتٍ عنيفة، وبدأنا نتدحرج أسفل منحدر، وندور بسرعة أكبر، نعبر الشقوق، ونقفز فوق الركام، أسرع وأسرع في اتجاه الغرب، نحو اضطراب الغليان الأبيض الساخن لليوم القمري.

تشبَّث كلٌّ منَّا بالآخر ونحن ندور ونتحرك في جميع الاتجاهات، وربطة الأمتعة تقفز نحونا وتصطدم بنا. تصادمنا، تماسكنا، تفرَّقنا، التقتْ رأسانا، وانفجر الكونُ كلُّه في سهام نارية ونجوم! لو كنَّا على كوكب الأرض، لقُضي علينا عشرات المرات؛ لكن وزننا على سطح القمرِ كان -لحسنَ الحظ- سُدس وزننا على كوكبنا الأرضي، لذا سقطنا برفقٍ شديدٍ. أتذكر إحساسي بالغثيان، كأنَّ عقلي انقلب رأسًا على عقب داخل جمجمتي، وبعد ذلك...

شعرتُ بشيءٍ يتحسَّس وجهي، مجسَّات رقيقة في أذني. ثم اكتشفتُ أنَّ تألُّق المشهد الطبيعي حولي قد خففته نظاراتٌ زرقاء. انحنى كافور فوقي، رأيتُ وجهَه مقلوبًا، وعينيه محميتين أيضًا بنظاراتٍ واقية ملونة، كان يتنفَّس بشكلٍ غير منتظمٍ، وشفته تنزف من كدمة. «أفضل الآن؟»، قال وهو يمسح الدم بظهر يده.

بدا كلُّ شيءٍ متمايلًا، لكن ذلك كان يرجع ببساطة إلى شعوري بالدوار. أدركتُ أنَّ كافورٍ أغلق بعض الستائر في الكرة الخارجية لإنقاذي من وهج الشمس المباشر، وكنتُ على وعيٍ بأنَّ كلَّ شيءٍ حولنا كان ساطعًا.

قلتُ لاهثًا: «يا إلهي! لكن هذا...».

رفعتُ رقبتي لأرى. تصورتُ أنَّ هناك وهجًا يعمي الأبصار في الخارج، هو اختلاف كامل عن الظلام الكئيب لانطباعاتنا الأولى. سألتُ: «هل فقدتُ الوعي لفترة طويلة؟».

«لا أعرف، فالكرونومتر مكسورٌ. ربما وقت قليل... يا عزيزي الشاب! أنا كنتُ خائفًا...».

بقيتُ مستلقيًا فترة في محاولة لاستيعاب ما حدث، رأيتُ مشاعر العاطفة على وجهِه، لم أقُل شيئًا فترة من الوقت. تحسَّستُ بيدي الفضولية كدماتي، ونظرتُ إلى وجهِه بحثًا عن أضرارٍ مماثلة. تركزتْ إصاباتي في ظهر يدي اليمنى، حيث أصبحت منزوعة الجلد وخشنة، كما أصيبتْ جبهتي بكدماتٍ، ونزفت. أعطاني جرعة من دواء -نسيت اسمه- كان قد أحضره معنا، وبعد فترة شعرتُ بالتحسُّن قليلًا. بدأتُ في تمديد أطرافي بعناية. وسرعان ما تمكَّنتُ من التحدُّث.

قلتُ: «لم يكن ذلك ليحدث، كما لو لم يوجد فاصلٌ زمني».

«لا، لم يكن ليحدث».

أخذ يفكر، ويداه على ركبتيه. نظر عبر الزجاج ثم حدّق إليَّ قائلًا: «يا إلهي! لا!».

سألتُه بعد لحظة توقُّف: «ماذا حدث؟ هل قفزنا إلى المناطق المدارية؟».

«لقد حدث ما توقعته؛ تبخر هذا الهواء -إذا كان هواءً. على أي حالٍ- تبخر، وظهر سطحُ القمر، نحن نرقد على ركام صخرة ترابية، تتكشف هنا وهناك التربة العارية، نوعٌ غريبٌ من التربة!». تبادر إلى ذهنِه أن الشرح ليس ضروريًّا، بل ساعدني لأجلس، ورأيتُ بنفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)
صباح قمري

اختفتْ تمامًا التمايزات الحادة، مشهد الأسود والأبيض القاسي. واتَّخذ وهج الشمس مسحةً خفيفة من اللون الأصفر الكهرماني، واتَّخذت الظلالُ على جرف الفوهة لونًا أرجوانيًّا غامقًا. وفي اتجاه الشرق، كان ركامٌ ضبابي مظلمٌ لا يزال جاثمًا ومحميًّا من شروق الشمس، بينما كانت السماء زرقاء وصافية في اتجاه الغرب. بدأتُ أدرك طول فترة غيابي عن الوعي.

لم نعُد في فضاءٍ خالٍ؛ فقد تصاعد جوٌّ حولنا. كما اكتسبتْ خطوط الأشياء شكلًا، وزادتْ حِدةً وتنوعًا باستثناء مساحة مظللة من مادة بيضاء تتناثر هنا وهناك، مادة بيضاء لم تعُد هواءً وإنما ثلجٌ، واختفى مظهر القطب الشمالي تمامًا، وانتشرت في كلِّ مكانٍ مساحاتٌ بنية صدئة واسعة من التربة العارية، تعكس وهج الشمس. وتناثرتْ على حوافِ الانجرافات الثلجية بِركٌ صغيرة عابرة ودواماتٌ من الماء كانت بمثابة الأشياء الوحيدة التي تتحرك في ذلك الاتساع القاحل. غمر ضوء الشمس الستارتين العلويتين في الكرة، فتحوَّل مناخنا إلى صيفٍ، لكنَّ أقدامنا كانت لا تزال في الظلِّ، والكرة لا تزال راقدة على انجرافٍ ثلجي.

تناثرتْ على المنحدر أشكالٌ مثل العصي تأكد وجودُها من خيوطٍ بيضاء صغيرة من الثلج المتجمِّد على جوانبِها المظللة- العصي الملتوية الجافة من نفس لون الصخرة الصدئ التي تكمن عليها. لفتت الانتباه بشدة. عِصِيٌّ! في عالمٍ بلا حياة؟ وبعد أن اعتادت عيني نسيج مادتها، أدركتُ أنَّ هذا السطح مُغطًّى كله تقريبًا بنسيجٍ ليفي، مثل الكليم الذي يجلس عليه الناس تحت ظلال أشجار الصنوبر.

قلت: «كافور».

«نعم».

«قد يكون هذا العالَم ميتًا الآن، ولكن ما أن...».

لفتَ انتباهي شيءٌ ما. اكتشفتُ بين هذه الإبر عددًا من الأشياء الصغيرة المستديرة. وبدا لي أن إحداها قد تحرَّكتْ. همستُ: «كافور».

«ماذا؟».

لم أرد على الفور. أمعنتُ النظرَ متشككًا. وللحظة لم أستطع تصديق عيني. صرختُ ولساني عاجزٌ عن الكلام، وأمسكتُ بذراعِه وأشرتُ، انطلق لساني أخيرًا صائحًا: «انظر! هناك! نعم! وهناك!».

تبعت عيناه إصبعي، قال: «ماذا؟».

كيف يمكنني وصف الشيء الذي رأيته؟ فهو شيءٌ صغيرٌ جدًّا يصعب وصفه، ومع ذلك بدا رائعًا للغاية، ومُحمَّلًا بالعاطفة. قلتُ إنَّني رأيتُ وسط النفايات الشبيهة بالعِصِيِّ تلك الأجسام المستديرة، أجسامًا بيضاوية صغيرة ربما تبدو كحصى صغيرٍ جدًّا. والآن تحرَّك إحداها ثم تلاه آخر، تدحرجا

وتصدّعا، ظهر أسفل تشقق كل منهما خط دقيقَ، لونه أخضر مصفر، وتدفق إلى الخارج، استجابة لتشجيع دفء الشمس حديثة الظهور. كان هذا كل ما حدث للحظة؛ ثم تحرك ثالث وتصدع!

قال كافور: «إنها بذرة». ثم سمعته يهمس بهدوءٍ شديدٍ: «حياة!».

«حياة!»، وأدركنا على الفور أنَّ رحلتنا الهائلة لم تكن عبثًا، وأنَّنا لم نصل إلى موقع نفايات قاحلة من المعادن، وإنما إلى عالم يعيش ويتنقل! أخذنا نشاهد باهتمامٍ شديدٍ. أتذكر أنني ظللتُ أفرك الزجاج أمامي بكمي لأزيل الضبَاب وأتمكَّن من المشاهدة.

كانت الصورة واضحة وحية في وسط الحقل فقط، أما حول هذه النقطة المركزية، فقد أدَّى انحناء الزجاج إلى تضخيم الألياف والبذور الميتة وتشويهها. ولكن يمكننا أن نرى ما يكفي! أخذتْ هذه الأجسام البُنية الصغيرة المُعجزة تتشقَّق وتتباعد واحدة تِلْوَ الأخرى، أسفل المنحدر المُضاء بأشعة الشمس، مثل حوافظ البذور، مثل قشور الفواكه؛ وتفتح أفواهها متحمسة لتشرب من الحرارة والضوء المتدفقيْن كشلالٍ من الشمس التي أشرقت اليوم.

وكانت في كلِّ لحظة تمزِّق المزيدَ من أغطية هذه البذور، وحتى مع قيامِها بذلك، كانت البذور الأولى المنتفخة تفيض من تلك المتضخمة، وتنتقل إلى مرحلة النمو الثانية. تدفع هذه البذور المذهلة، بثقة ثابتة وسرعة محسوبة، بجذرٍ صغيرٍ إلى التربة، وببرعمٍ صغيرٍ يشبه الحِزمة إلى الهواء. بعد فترة وجيزة، امتلأ المنحدر كلُّه بنبتَات دقيقَة تقف مستقيمة في وَهج الشَمس.

لم تصمد تلك النبتات طويلًا. تضخَّمت البراعم الشبيهة بالحِزم، وتوتَّرت، واهتزَّت مفتوحة، وأخرجت أطرافًا من رؤوسٍ حادة صغيرة، ونثرتْ دوامة من الأوراق الصغيرة الشائكة بنية اللون، وأخذ طولُها يزداد بسرعة أمام أعينِنا ونحن نشاهد. كانت الحركة أبطأ من حركة أي حيوانٍ، وأسرع من حركة أي نباتٍ سبق أن رأيته. كيف يمكنني توضيح الأمر لك، أعني طريقة استمرار النمو؟ نَمَت أطرافُ الأوراق وتحركت حتى إلى الأمام، خلال مشاهدتنا لها. وذبلت أغطية البذور البنية، وجرى امتصاصها بالسرعة نفسها. هل سبق لك في يوم باردٍ أن أمسكت الترمومتر بيدك الدافئة وشاهدت خيط الزئبق الرفيع يزحف إلى أعلى داخل الأنبوبً؟ لقد نَمَت هذه النباتات القمرية بطريقة مماثلة.

وخلال بضع دقائق، امتدتْ براعم النباتات المتقدمة إلى أعلى مكونة سيقانًا، تطرح دوامة ثانية من الأوراق، بحيث إنَّ المنحدر الذي بدا مؤخرًا امتدادًا هامدًا من الركام المبعثر، أصبح الآن مملوءًا بعشبٍ أخضر زيتوني متقزمٍ من الأشواك الخشنة التي تمايلت بقوة نموها.

التفتُّ حولي، ونظرتُ! رأيتُ على طول الحافة العليا لصخرة في اتجاه الشرق أهدابًا مماثلة أقل نضجًا بقليلٍ، تتمايل وتنحني داكنة أمام وهج الشمس الساطع المُسبِّب للعمى. ورأيتُ أبعد من هذه الأهداب صورة ظلية لكتلة نباتية، تتفرَّع عشوائيًّا كالصبار، وتنتفخ بوضوحٍ مثل كيسٍ مملوءٍ بالهواء.

ثم نظرتُ غربًا، واكتشفتُ أيضًا شكلًا منتفخًا آخر يرتفع فوق التربة، لكنَّ الضوءَ سقط هنا على جوانبِه الملساء، واستطعتُ رؤية لونه البرتقالي الزاهي. كان مرتفعًا طوال مشاهدة المرء له، أما إذا أبعد المرء نظرَه عنه لدقيقة ثم عاود النظر، فإنه يجد تغيُّرًا في خطوطِه العريضة؛ حيث يدفع فروعًا

مزدحمة حادة، ويرتفع بعد فترة قصيرة على شكلٍ مرجانيٍّ يصل ارتفاعه إلى عدة أقدام. ومقارنة بهذا النمو، يصبح نمو المجاميع الفِطرية على كوكب الأرض متخلِفًا بشكلٍ يائسٍ؛ حيث تنتفخ تلك المجاميع الفطرية أحيانًا، من حيث القُطر، بمقدار قدم في ليلة واحدة. لكن الفِطر ينمو بعد ذلك في مواجهة سحب الجاذبية بمقدار ستة أضعاف قوة جاذبيةِ القمر. وأبعد من ذلك، بين الأخاديد والشقوق التي كانت مُخبأة عنَّا، ولكن ليس عن الشمس المتسارعة، وعلى الصخور المرجانية وكُتل الصخور الساطعة، كانت لحية خشنة من النباتات الشائكة واللحمية تجاهد لترتفع، مسرعة بقوة للاستفادة من اليوم القصير الذي يجب أن تُخرِج فيه زهورها، وثمارَها، وتنثر بذورَها مرة أخرى، ثم تموت. يا لها من معجزة، معجزة هذا النمو، لذلك، على المرء أن يتخيَّل أنَّ الأشجار والنباتات انبثقت عند الخلق وغطت خراب التربة حديثة النشأة.

تخيل ذلك! تخيل ذلك الفجر! قيامة الهواء المتجمِّد، وحركة التربة وسرعتها، ثم هذه الانتفاضة الصامتة للغطاء النباتي، وهذا الصعود الغريب للنباتات اللحمية والشوكية. وتصور أنَّ هذا كلَّه مُضاءٌ بوهجٍ يجعل أشدَّ أشعة للشمس على كوكب الأرض تبدو هزيلة وضعيفة. علاوة على ذلك، ما زالت هناك أكوامٌ من الثلوج المائلة للزُرقة حول هذه الغابة المتحركة. ولاستكمال انطباعنا، يجب أن تضع في حسبانِكَ أنَّنا رأينا كلَّ شيء من خلال زجاجٍ سميكٍ منحنٍ، أدَّى إلى تشويهها؛ لأنَّ العدسة تشوِّه الأشياء، بحيث تبدو حادة في وسط الصورة فقط، ومشرقة للغاية هناك، ونحو الحواف تكون مُكبّرة وغير واقعية.

(9)
بداية الاستكشاف

توقفنا عن الحملقة. التفتَ بعضُنا إلى بعضٍ، والفكرة نفسها، السؤال نفسه، في أعيننا: لكي تنمو هذه النباتات، يجب أن يوجد هواءٌ، مهما كان ضئيلًا؛ هواء يجعلنا قادرين أيضًا على التنفُّس.

قلتُ: «الكوة التي دخلنا منها إلى الكرة؟».

«نعم!»، قال كافور، «سنرى إن كان هواءً!».

قلتُ: «في غضون فترة قصيرة، سيصل ارتفاع هذه النباتات إلى طولنا. لنفترض، قبل كل شيء، مجرد افتراضٍ، هل الأمر مؤكدٌ؟ كيف تعرف أنَّ هذه المادة هي هواءٌ؟ ربما نيتروجين، أو حتى حمض الكربونيك!».

قال كافور: «هذا سهلٌ»، وبدأ في التأكُّد من ذلك. أحضرَ من حزمة الأمتعة قطعةً كبيرة من الورق المُجعَّد وأشعلها، ثم ألقاها بسرعة خلال صمام كوة الدخول. انحنيتُ لأطل عبر الزجاج السميك وأتتبع ما يحدث للورقة المشتعلة في الخارج، تلك الشعلة الصغيرة التي نعتمد عليها كثيرًا!

رأيتُ الورقة تسقط، وتستلقي بخفة على الثلج، اختفى لهب احتراقها الوردي، وبدا للحظة أنَّها تنطفئ. ثم رأيتُ لسانًا أزرق صغيرًا على حافتِها يرتجف، ويتسلَّل، وينتشر!

تفحَّمتْ بهدوءٍ الورقة بأكملِها وذبلتْ، باستثناء مكان تلامسها المباشر مع الثلج، وتصاعد منها خيطٌ مرتعشٌ من الدخان. لم يعُد لديَّ شكٌّ؛ جوُّ القمر عبارة عن أكسجين نقي أو هواء، وبالتالي يمكنه دعم حياتنا الغريبة، إلا إذا كان رقيقًا بإفراطٍ. يمكننا أن نخرج، ونعيش!

جلستُ وساقاي على جانبي كوة الدخول، مستعدًّا لفتحِها، لكنَّ كافور أوقفني. قال: «يجب بداية اتِّخاذ القليل من الاحتياطات». وأشار إلى أنَّه على الرغم من تأكُّدنا من أنَّ الجوَّ في الخارج به أكسجين، فربما يكون محدودًا بحيث يسبِّب لنا إصاباتٍ خطيرة. ذكَّرني بمرض الجبال، والنزيف الذي يصيب الطيارين أحيانًا عند التحليق عاليًا بسرعة كبيرة. أمضى بعض الوقت في إعداد مشروبٍ، سيِّئ المذاق، وأصرَّ أن أشاركه. جعلني المشروب أشعر بالخدر قليلًا، دون أي تأثير آخر عليَّ، سمح لي كافور بعد ذلك أن أبدأ في فكِّ صواميل غطاء الكوة.

كنتُ على وشك الانتهاء الآن من فكِّ الغطاء الزجاجي للكوة، حتى إنَّ الهواء الأكثر كثافة داخل كرتنا بدأ يهرب على طول الصواميل، مع إصدار صفيرٍ مثل الغلاية قبل أن يغلي الماء داخلها. عندئذٍ جعلني أتوقف، حيث سرعان ما اتَّضح أنَّ الضغط في الخارج أقل بكثيرٍ من نظيره في الداخل، ولم يكن لدينا أيُّ وسيلة نعرف بها الفرق بين الضغط في الحالتين.

جلستُ مُمسكًا بالغطاء بكلتا يديَّ، وعلى استعدادٍ لإغلاقه مرة أخرى إذا ثبت بعد كلِّ ذلك، وعلى الرغم من أملنا الشديد، أنَّ الهواء في الجو القمري ضئيلٌ بالنسبة إلينا. وجلس كافور وفي يده

أسطوانة من الأكسجين المضغوط لاستعادة ضغطنا. نظرنا إلى بعضنا في صمتٍ، ثم إلى الغطاء النباتي الرائع الذي تمايل ونما بوضوحٍ وبلا ضجيجٍ، ولا يزال مستمرًّا.

بدأتْ أوعيتي الدموية تخفق في أذني، وتضاءل صوتُ حركة كافور. لاحظتُ كيف أصبح كلُّ شيء ساكنًا بسبب ترقق الهواء.

عندما صدر أزيز الهواء لدينا، مع فتح الغطاء، تكثَّفت رطوبتُه في نفثاتٍ صغيرة.

شعرتُ بضيقٍ غريبٍ في التنفُّس، استمرَّ بالفعل طيلة فترة تعرُّضنا للجو الخارجي للقمر، كما انتابني إحساسٌ غير سار إلى حدٍّ ما حول الأذنين، وأظافر الأصابع، والحلق؛ لكنَّه انتهى بعد لحظاتٍ.

وبعد ذلك جاء الدوار والغثيان، فتغيَّرت فجأة شجاعتي. فتحتُ الغطاء نصف فتحة، مع تقديم تفسير متسرع لكافور، لكنه الآن أصبح أكثر تفاؤلًا. أجابني بصوتٍ يبدو ضعيفًا وبعيدًا بشكلٍ غير عادي، بسبب رقة الهواء الذي حمل الصوت. أوصى بشرب قليلٍ من البراندي، وبدأ هو وفعلتُ مثله، وشعرتُ أنَّني أفضل حالًا. أدرتُ غطاء الكوة ثانية، نما الخفقان في أذني بصوتٍ أعلى، ثم لاحظتُ أنَّ شعوري بالخفقان توقف. بقيتُ لفترة غير قادرٍ على التأكُّد من أنَّه توقف.

«حسنًا؟»، قال كافور بصوتٍ شبحيٍّ.

قلتُ: «ماذا؟».

«هل نخرج؟».

فكرتُ، ثم سألته: «هل هذا كل شيء؟».

«إذا كنتَ قادرًا على التحمُّل».

أجبتُ بأن واصلتُ فكَّ الصواميل. رفعتُ الغطاء الدائري من مكانه، ووضعته بعناية فوق حزمة الأمتعة. تطاير جزءٌ رقيقٌ من الثلج وتلاشى، عندما استحوذ ذلك الهواء الرقيق غير المألوف على كرتنا. ركعتُ، ثم جلستُ عند حافة الكوة مُحدِّقًا. امتدَّ الثلج القمري، الذي لم تطأه قدمٌ من قبل، على مسافة ياردة.

صمتنا للحظات. التقتْ أعيننا.

سألني كافور: «لا أعتقد أنَّ رئتيك تتألمان كثيرًا؟».

أجبته: «لا، يمكنني تحمُّل ذلك».

مدَّ يده ليمسك ببطانيته، ودفع رأسَه عبر فتحتها الرئيسة ولفَّها حوله. جلس على حافة الكوة، وترك قدميه تسقطان حتى أصبحتا على بُعد ست بوصات من الأرض القمرية. تردَّد للحظة، ثم دفع نفسَه إلى الأمام متدليًا، ووقف على تربة القمر التي لم يطأها بشرٌ من قبل.

ومع تقدُّمه، حدث انكسارٌ لأشعة الشمس عند حافة الزجاج. وقف للحظة ينظر إلى هذا الاتجاه وذاك، ثم جمع شتات نفسه وقفز.

شوَّه الزجاج المشهدَ كله، لكنها بدت لي حينذاك قفزة كبيرة جدًّا؛ أصبح بعدها بعيدًا، ربما على بُعد 20 أو 30 قدمًا. وقف عاليًا على كتلة صخرية، وأخذ يشير إليَّ. ربما كان يصيح، لكن الصوت لم يصلني. كيف قفز هكذا؟ شعرتُ أنَّني رأيتُ للتوِّ خدعة سحرية جديدة.

كنتُ في حالة ذهنية مشوَّشة، وقررتُ الهبوط من الكوة أيضًا. نزلتُ، ووقفتُ. رأيتُ أمامي مباشرة أنَّ التكدُّس الثلجي قد ذاب مكونًا بِركة من نوعٍ ما. تقدَّمتُ خطوة، وقفزتُ.

وجدتني أطير في الهواء، ورأيتُ الصخرة التي وقف كافور عليها قادمة لمقابلتي؛ فأمسكتُ بها متشبثًا وأنا في حالة لا نهائية من الذهول.

لهثتُ، وضحكتُ ضحكة مُنفِّرة. كنتُ في غاية الارتباك. انحنى كافور وصاح بصوتٍ حادٍّ لتنبيهي.

نسيتُ أنَّنا على سطح القمر -الذي يبلغ ثُمن كتلة كوكب الأرض وربع قطره- وبالتالي يبلغ وزني بالكاد سُدس وزني على كوكب الأرض. علينا الآن أن نتذكر هذه الحقيقة.

قال: «لقد خرجنا من السلاسل الرئيسة لأمنا الأرض الآن».

رفعتُ نفسي إلى القمة بجهدٍ حَذِر، وتحركتُ بحرصٍ مثل مريض الروماتيزم، ووقفتُ بجانب كافور تحت وهج الشمس. كانت الكرة خلفنا، راقدة فوق التكدُّس الثلجي الآخذ في الذوبان، على بُعد ثلاثين قدمًا.

وبقدر ما يمكن للعين أن ترى أعلى الفوضى الهائل من الصخور التي شكَّلت أرضية الفُوَّهة، كانت النباتات الشوكية نفسها التي أحاطت بنا تبدأ في الحياة، مع تنويعاتٍ هنا وهناك لكتلٍ منتفخة على شكل الصبّار، فضلًا عن الأشنات[6] القرمزية والأرجوانية التي نمت بسرعة بحيث بدأت تزحف فوق الصخور. بدت لي منطقة الفُوهة بأكملِها حينذاك شبيهة بتلك المساحة البرية التي تمتد إلى سفح الجرف المحيط بنا.

كان هذا الجرف على ما يبدو خاليًا من الغطاء النباتي، باستثناء قاعدته، ويتكوَّن من دعاماتٍ، ومدرجاتٍ، ومنصاتٍ، لم تجذب انتباهنا كثيرًا في ذلك الوقت. كانت على بُعد أميالٍ عديدة منَّا في كل اتجاهٍ. بدا أننا في وسط الفُوهة تقريبًا، ورأينا ذلك من خلال بعض الضباب الذي سبق الرياح؛ فهناك رياحٌ الآن في الهواء الرقيق. رياحٌ سريعة وإن كانت ضعيفة، وشديدة البرودة لكن ضغطها محدودٌ، كانت تهبُّ حول الفُوهة، كما يبدو، في اتجاه الجانب المضاء الساخن من الظلام الضبابي تحت الجدار باتجاه الشمس. كان من الصعب النظر خلال هذا الضباب في اتجاه الشرق. كان علينا أن ننظر بأعين نصف مغلقة تحت ظلال أيدينا، بسبب شراسة قوة الشمس الساكنة.

قال كافور: «يبدو المكان مهجورًا، مقفرًا تمامًا».

نظرتُ حولي مرة أخرى، تشبثتُ، حتى حينذاك، بأمل العثور على بعض الدلائل شبه البشرية: قمة مبنى، بيت أو مُحرّك؛ لكن الصخور التي انتشرت في كل مكانٍ، متساقطة من القمم والذروات، وتلك الأشجار الشوكية، والصبار المنتفخ الذي يتضخم ويتضخم، كان ينفي ذلك الأمل.

قلتُ: «يبدو كأنَّما هذه النباتات توجد لنفسِها. ما من أثرٍ لأي مخلوقٍ آخر».

قال كافور: «لا حشرات ولا طيور، كلا! ما من أثر على الإطلاق. ولا حتى قطعة أو جُسيم من الحياة الحيوانية، وإذا وُجِدت، ماذا ستفعل في الليل؟ لا، لاَ يوجد سوى هذه النباتات».

ظللت عيني بيدي. «إنَّه مثل مشهدٍ في حُلم، فهذه الأشياء لا تشبه حتى النباتات الأرضية التي يتصوَّر المرء وجودَها بين الصخور في قاع البحَر على كوكب الأرض. انظر إلى ذلك هناك! قد يتصوَّر المرءُ أنَّها سحلية تحوَّلت إلى نباتٍ. وهذا الوهج!».

قال كافور: «إنَّه مجرد صباحٍ جديدٍ».

تنهَّد ونظر حوله، ثم قال: «هذا ليس عالمًا للبشر، ومع ذلك، فهو جذَّابٌ على نحوٍ ما».

صمتَ لفترة، ثم بدأ طنينه التأمُّلي.

شعرتُ بلمسة خفيفة، ووجدتُ ورقة رقيقة من نبتة أشنة باهتة تتلوى على حذائي، ركلتها، فسقطتْ متحولة إلى مسحوقٍ، وبدأتْ كلُّ بقعة منها في النمو.

سمعتُ كافور يصرخ بحدة، تصورتُ أنَّ شوكة من الشجيرات الثابتة قد وخزته. تردَّد، وأخذ يبحث بعينيه بين الصخور حولنا. تسلَّل بريقٌ مفاجئ، وردي اللون، إلى عمودٍ صخري خشن، كان لونه ورديًّا استثنائيًّا، أرجوانيًّا زاهيًا.

قلتُ: «انظر!»، واستدرتُ، فإذا بكافور قد اختفى.

وقفتُ للحظة مذهولًا، ثم قمتُ بخطوة متسرعة للنظر من فوق حافة الصخرة، ولدهشتي من اختفائه، نسيتُ مرة أخرى أنَّنا على سطح القمر. اندفاع خطوة قدمي كانت لتعني مسافة ياردة على كوكب الأرض، أما على القمر، فقد حملتني خمس أو ست ياردات فوق الحافة. شعرتُ في هذه اللحظة بتأثير تلك الكوابيس التي يجد فيها المرء نفسَه يسقط ويسقط، ففي حين يقطع المرء مسافة ستة عشر قدمًا في الثانية الأولى عند سقوطه على كوكب الأرض، فإنه يسقط على سطح القمر بسُدس وزنه فقط. لقد سقطتُ، أو بالأحرى قفزتُ، قرابة عشر ياردات. يبدو أنَّ الأمرَ يستغرق وقتًا طويلًا، خمس أو ست ثوانٍ، على ما أعتقد. سبحتُ في الهواء وسقطتُ مثل ريشة، وغُصتُ حتى ركبتي بعمقٍ في الانجراف الثلجي عند قاع أخدودٍ من الصخور الزرقاء والرمادية التي يمتد اللون الأبيض خلالها.

بحثتُ حولي، وناديتُ: «كافور!». لكنَّني لم أره على مرمى البصر.

«كافور!»، ناديتُ بصوتٍ أعلى، وردَّدتْ الصخورُ صوتي.

استدرتُ بعنفٍ إلى الصخور وتسلَّقتُ قمتَها. ناديتُ: «كافور!». رنَّ صوتي كأنَّه صوت حَمَلٍ ضائع.

الكرة، أيضًا، لم تكن على مرمى البصر، انتابني للحظة شعورٌ فظيعٌ بالوحشة، انقبض صدري.

ثم رأيته. كان يضحك ويلوح لجذب انتباهي. وقف على صخرة جرداء على بُعد 20 أو 30 ياردة. لم أتمكَّن من سماع صوتِه، لكنَّ تلويحَه كان يقول لي: «اقفز». تردَّدتُ، بدت المسافة هائلة، ومع ذلك فكرت أنني أكثر قدرة بالتأكيد من كافور على قطع مسافة أكبر.

اتخذتَ خطوة إلى الخلف، واستجمعتَ كل قوتي وقفزتَ، بدا لي أنني أنطلق في الهواء كأنّني لن أهبط أبدًا.

كان الطيران بهذه الطريقة مُروعًا ومُبهِجًا، وحشيًّا مثل كابوسٍ. أدركتُ أن قفزتي كانت عنيفة للغاية؛ فقد طرتُ فوق رأس كافور، ورأيتُ كتلةً من نباتات شائكة في أخدودٍ ممتدٍّ وقعتُ فوقه، أطلقتُ صيحة ذعرٍ، مددتُ يدي وفردتُ ساقيَّ.

اصطدمتُ بكتلة ضخمة من النباتات الفطرية، فتفجَّرتْ حولي، ونثرتْ مجموعة من البذور برتقالية اللون في جميع الاتجاهات، وغطتني بمسحوقٍ برتقالي. تدحرجتُ مغمغمًا، إلى أن توقفت وأخذتُ أضحك لاهثًا.

تبيَّنتُ وجه كافور الصغير المستدير، يطلُّ من فوق سياجٍ كثيفٍ من الشجيرات. صاح بصوتٍ ضعيفٍ: «ماذا؟». حاولتُ الصياح، لكنَّني لم أستطع لصعوبةِ التنفُّس. شقَّ طريقَه نحوي، قادمًا بحذرٍ من بين الشجيرات.

قال: «علينا أن نتوخَّى الحذرَ. لا يوجد نظامٌ في هذا القمر، وقد يجعلنا ندمِّر أنفسَنا».

ساعدني على الوقوف على قدمي قائلًا وهو يفرك المادة الصفراء بيده لإزالتها من ملابسي: «أنتَ بذلتَ جهدًا كبيرًا».

وقفتُ ساكنًا ألهث، وتركته يزيل الهلامِ من ركبتَيّ ومرفقَيّ، ويحدثني عن سوء حظي: «لم نعتد الجاذبية تمامًا. بالكاد بدأتْ عضلاتُنا تتعلَّم الآن. يجب أن نتدرَّب قليلًا، عندما تسترد أنفاسَك».

سحبتُ شوكتين أو ثلاثًا من يدي، وجلستُ قليلًا على صخرة، كانت عضلاتي ترتجف. شعرتُ بخيبة أملٍ شخصية، تلك التي تصاحب أول سقوط عند تعلُّم ركوب الدراجات على كوكب الأرض.

خشي كافور أن الهواء البارد في الخندق، بعد سطوع الشمس، قد يصيبني بالحمى، لذا تسلقنا عائديْن إلى ضوء الشمس. باستثناء بعض الخدوش، لم أتعرَّض لأي إصاباتٍ خطيرة نتيجة لتعثُّري. وبناء على اقتراح كافور، بدأنا نبحث حولنا عن مكانٍ آمنٍ ويسير للهبوط عند قفزتي التالية. اخترنا لوحًا صخريًّا على بُعد نحو عشر ياردات، تفصل بيننا وبينه غابة صغيرة من أشجارٍ شوكية باللون الأخضر الزيتوني.

«تخيلها هناك!»، قال كافور متقمِّصًا أجواء المُدرِّب، وأشار إلى بقعة على بُعد قرابة أربعة أقدام من أصابع قدمي. نجحتُ في هذه القفزة دون صعوبة، لكنني يجب أن أعترف بشعوري بالرضا لعدم نجاح قفزة كافور، حيث لم يصل إلى مبتغاه بنحو قدم أو نحو ذلك، وتذوَّق أشواك الشجيرات. قال وهو يسحب الأشواك من جسمِه: «على المرء أن يحَذر، كما ترى»؛ وبذلك لم يعُد مُرشدي، بل زميلي الذي يتعلَّم معي فن الحركة على سطح القمر.

اخترنا قفزة أسهل وقمنا بها من دون صعوبة، ثم قفزنا مرة أخرى، ذِهابًا وإيابًا عدة مرات، حتى تعتاد عضلاتُنا الوضعَ الجديد. لم أكن لأصدق سرعة تَكَيُّفِنا، لو لم أُجرِّب. ففي وقتٍ قصيرٍ جدًّا

بالفعل، بعد أقل من ثلاثين قفزة بالتأكيد، أصبح بمقدورِنا الحُكم على الجهد اللازم لكل مسافة مع تصورنا التقريبي للوضع على كوكب الأرض.

وطيلة ذلك الوقت كانت النباتات القمرية تنمو حولنا، أعلى وأكثر كثافة وتشابكًا، وكل لحظة أطول وأكثر سُمكًا: نباتات شائكة، وكتل الصبار الأخضر، والفطريات، وأشياء لحمية وأشنات، وأشكال غريبة جدًّا مُشعة ومتعرجة، لكنَّ تركيزَنا كلَّه انصبَّ على القفز، لدرجة أننا لم نلقِ بالًا لفترة لتوسعهم المستمر.

تملَّكتنا سعادة غير عادية. أعتقد أنَّها ترجع جزئيًّا إلى شعورِنا بالتحرُّر من الحبس داخل الكرة، على أن الأساس هو حلاوة الهواء الرقيق، التي أعتقد يقينًا أنها تحتوي على نسبة من الأكسجين أكبر بكثيرٍ من جونا على كوكب الأرض. وعلى الرغم من النوعيات الغريبة لكلِّ شيء حولنا، انتابني شعورٌ بالمغامرة والتجريب، مثل شعور رجل المدينة الذي يجد نفسه للمرة الأولى بين الجبال؛ ولا أعتقد أن أيًّا منَّا شعر بخوفٍ شديدٍ، رغم أنَّنا واجهنا المجهول وجهًا لوجه.

استحوذتْ علينا روحُ المغامرة. اخترنا تلَّة صغيرة تتخلَّلها نبتات الأشنة، ربما على بُعد خمس عشرة ياردة. قفزنا إليها، وهبطنا بدقة على قمتها الواحد تِلْوَ الآخر. «جيد!»، قال كلٌّ منَّا للآخر. سار كافور ثلاث خطواتٍ إلى منحدرٍ ثلجي جذَّاب على بُعدٍ يزيد على عشرين ياردة. وقفتُ للحظة مندهشًا من التأثير الغريب لشخصيتِهِ الطائرة -قبعة قذرة يرتديها لاعبو الكريكيت، وشعره الشائك، وجسمه الصغير المستدير، ذراعاه وساقاه المتشابكان والمطويان بإحكام- في مقابل رحابة المشهد القمري الغريب. تملَّكتني عاصفة من الضحك، ثم خطوتُ لأتبعه. قفزتُ، وهبطتُ بجانبِه.

قطعنا بضعَ خطواتٍ عملاقة، وقفزنا ثلاث أو أربع مراتٍ، ثم جلسنا أخيرًا في تجويفٍ لنبتات الأشنة، شعرنا بآلام في رئتينا، جلسنا نلهث ضاحكين، ونتطلَّع لبعضنا بتقدير. قال كافور لاهثًا شيئًا عن «الأحاسيسِ المدهشة». تبادرتْ إلى ذهني فكرة، لم تكن تبدو عندئذٍ فكرة مروعة بشكلٍ خاصٍّ، بل مجرد سؤالٍ طبيعي يطرحه الظرف.

قلت: «بالمناسبة، أين كرتنا بالضبط؟».

نظر كافور إليَّ: «هه؟».

أذهلني تمامًا معنى ما كنَّا نقوله.

صحتُ، واضعًا يدي على ذراعه: «كافور، أين الكرة؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)

تائهان على القمر

التقطتْ عيناه فزعي. وقف، ونظر حوله في الشجيرات المحيطة بنا وترتفع حولنا، وهي تبذل جهدًا لمزيدٍ من الارتفاع رغبة في النمو. وضع يدَه على شفتيه متشكِّكًا. تحدث بعدم اطمئنان مفاجئ. قال ببطءٍ: «أعتقد أنَّنا تركناها... في مكانٍ ما... هناك».

أشار بإصبع مترددة، تتمايل على شكل قوسٍ.

«لستُ متأكدًا». تعمَّقتْ نظرتُه المذعورة، ثم قال وهو ينظر إليَّ: «على أي حالٍ، لا يمكن أن تكون بعيدة».

وقف كلانا. أخذنا نصيح بلا معنى، وأعيننا تبحث في الغابة الكثيفة المتشابكة حولنا.

كان كلُّ شيءٍ على المنحدرات المضاءة بأشعة الشمس مكسوًّا بالزَبَد ويتمايل: الشجيرات الشائكة، والصبار المنتفخ، والأشنات الزاحفة. وأينما يوجد الظل، تتباطأ الانجرافات الثلجية. انتشرتْ رتابة متطابقة من أشكالٍ غير مألوفة في الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب. وفي مكانٍ ما بين هذه النباتات المتشابكة، كانت كرتنا مدفونة بالفعل، كرتنا، وطننا، مصدرنا الوحيد، وأملنا الوحيد في الهروب من هذه البرية الخيالية من النماء سريع الزوال الذي وصلنا إليه.

أشار كافور فجأة، قائلًا: «أعتقد أنَّها ربما توجد هناك».

قلتُ: «لا، لقد دُرنا في منحنى. انظر! هنا توجد آثار أقدامي. من الواضح أنَّها تقع في اتجاه الشرق، أبعد من هنا بكثيرٍ. لا، يجب أن توجد الكرة هناك».

قال كافور: «أعتقد أنني أبقيتُ الشمسَ على يميني طوال الوقت».

قلتُ: «أعتقد أنَّ ظلي طار أمامي في كلِّ قفزة».

حدَّق كلٌّ منَّا إلى عيني الآخر. اتسعت مساحة الفُوهة بشكلٍ هائلٍ بالنسبة لتصورنا، كما زادتْ كثافة الغابات المتنامية على نحوٍ يصعب بالفعل اختراقه.

«يا إلهي! يا لنا من حمقى!».

قال كافور: «من الواضح أنَّنا سنعثر عليها مرة أخرى، سنعثر عليها قريبًا. الشمس تزداد قوة. قد نُصاب بإغماءٍ بسبب الحرارة، إن لم تكن جافة جدًّا. كما أنني جائعٌ».

نظرتُ إليه. لم أفكر في هذا الجانب من قبل، لكنَّه تبادر إلى ذهني على الفور: الرغبة الإيجابية. قلتُ مؤكِدًا: «نعم، أنا جائعٌ أيضًا».

وقف وفي عينيه نظرة عزيمة نشطة: «يجب أن نجد الكرة بالتأكيد».

بحثنا، بأكبرِ قدرٍ ممكنٍ من الهدوء، الصخور المرجانية والشجيرات اللا نهائية التي شكلتْ أرضية الفُوهة؛ وكلٌّ منَّا يحسب في صمتٍ فرصَ العثور على الكرة قبل أن تغمرنا الحرارة ويقتلنا الجوع.

«لا يمكن أن تبعد أكثر من خمسين ياردة من هنا»، قال كافور بلفتاتٍ مترددة، «الشيء الوحيد هو أن نُغيِّر الموضوعَ ونتحدث في شيء آخر إلى أن نجدها».

قلتُ، من دون أيِّ حماسٍ لبدء بحثنا: «هذا كلُّ ما يمكننا القيام به، أتمنَّى ألَّا تنمو هذه الشجيرات الشائكة بهذه السرعة!».

قال كافور: «هذا كلُّ شيء، لكنَّها كانت ترقد فوق ركامٍ من الثلج».

حدَّقتُ بما حولي على أملٍ عبثيٍّ أن أتعرَّف على ربوة أو شجيرة كانت بالقرب من الكرة، لكنَّ التشابُه كان مُربِكًا في كلِّ مكانٍ؛ فقد كانت الشجيرات الطموحة، والفطريات المنتفخة، وركام الثلج المتضائل، تتغيَّر على الدوام بشكلٍ طبيعيٍّ. زادت حرارة الشمس ولسعتنا، واختلط إحساسُنا بالجوع بحيرتنا اللا نهائية. وخلال وقوفِنا، مرتبكين ومشوَّشين وسط أشياء غير مسبوقة، أدركنا للمرة الأولى وجود صوتٍ على سطح القمر غير هواء النباتات المتنامية، أو تنهد الريح الخافت، أو أصواتنا.

بووم.. بووم.. بووم.

جاء هذا الصوت من تحت أقدامِنا، صوتٌ قادمٌ من التربة، بدا أننا نسمعه بأقدامِنا بقدر ما نسمعه بآذاننا. كان صداه الخافت مكتومًا بسبب المسافة، وسميكًا بسبب نوعية المادة الفاصلة. لا أستطيع أن أتخيَّل صوتًا يمكن أن يدهشنا أكثر هذا الصوت، أو يُغير تمامًا نوعية الأشياء حولنا. كان صوتًا ثريًّا وبطيئًا ومتأنيًا، بدا لنا كأنَّه ضربات ساعة عملاقة مدفونة.

بووم.. بووم.. بووم.

صوتٌ يوحي بالأديرة الساكنة، بالليالي الطوال في المدن المزدحمة، بأحلام اليقظة والساعة المنتظرة، بكلِّ ما هو مُنظمٌ ومنهجي في الحياة؛ صوتٌ يهدر محمَّلًا بالمعاني ويبدو غامضًا في هذه الصحراء الخيالية! بالنسبة للعين، لم يتغير أيُّ شيء: الشجيرات ونباتات الصبار المعزولة تُلوح بصمتٍ في مهبِّ الريح، وتمتدُّ من دون انقطاعٍ إلى المنحدرات البعيدة؛ والسماء لا تزال مظلمة خالية فوقنا، والشمس الحارقة مُعلَّقة ومشتعلة. وخلالَ ذلك كله، صدر هذا اللغز الصوتي، بمثابة تحذيرٍ أو تهديد.

بووم.. بووم.. بووم.

تساءلنا بأصواتٍ خافتة ومتلاشية:

«ساعة؟».

«مثل الساعة!».

«ما هو؟».

«ماذا يمكن أن يكون؟».

«علينا أن نحصي عددَ الضربات»، كان اقتراحًا متأخرًا من كافور، حيث توقَّفتْ الضربات عند هذه العبارة».

جاء الصمتُ، الإحباط بسبب إيقاع الصمت، بمثابة صدمة جديدة. تشككتُ للحظة ما إذا كنَّا سمعنا صوتًا، أو ما إذا كان مستمرًّا. هل سمعتُ صوتًا بالفعل؟

شعرتُ بضغط يد كافور على ذراعي. تحدثَ همسًا، كأنَّما يخشى إيقاظ شيء نائمٍ: «دعنا نبقى معًا، ونبحث عن الكرة، يجب أن نعود إلى الكرة؛ فما يحدث يتجاوز فهمنا».

«إلى أي طريقٍ نذهب؟».

تردَّد. سيطر على عقولنا اقتناعٌ شديدٌ بوجود أشياء غير مرئية حولنا وبالقرب منَّا. ما هذه الأشياء؟ أين يمكن أن توجد؟ هل هذه البريَّة القاحلة، المتجمدة والمحترقة على التناوب، هي مجرد قشرة خارجية وقناعٍ لعالمٍ سفلي؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأي نوعٍ من العوالم؟ وأي نوعٍ من السكان، وهل يمكن أن يخرجَ إلينا الآن؟

وعندئذٍ، وبشكلٍ واضحٍ ومفاجئ، مثل رعدٍ غير متوقع، قطع رنينٌ وصليلٌ السكونَ المؤلم؛ كأنَّ بواباتٍ معدنية هائلة قد انفتحت فجأة.

تسمَّرنا، ووقفنا محملقين بلا حولٍ ولا قوة، ثم اقترب مني كافور.

همس بالقرب من وجهي: «أنا لا أفهم!». لوح بيدِه بشكلٍ غامضٍ نحو السماء؛ اقتراح غامض لأفكارٍ لا تزال أكثر غموضًا.

«مكان للاختباء! إذا جاء أي شيء...».

نظرتُ حولنا، وأومأتُ برأسي بالموافقة على اقتراحِه.

بدأنا نتحرك خلسة، مع أخذ احتياطاتٍ مبالغٍ فيها حتى لا تصدر منَّا أيُّ ضوضاءٍ. توجهنا إلى غابة من الشجيرات، أسرعنا في خطواتِنا على إثر سماعنا لضجة تشبه صوت المطارق حول مرجل. همس كافور: «يجب أن نزحف».

كانت الأوراق السفلية للنباتات الشائكة -التي طغت فوقها بالفعل الأوراق الأحدث نموًا- قد بدأت تذوي وتذبل؛ وبالتالي استطعنا شق طريقنا بين سيقان الشجيرات من دون إصاباتٍ خطيرة. لم نهتم بطعنة في الوجه أو الذراع. توقفتُ في وسط الغابة، ونظرتُ لاهثًا إلى وجه كافور.

همس كافور: «تحت الأرض، أدناه».

«قد يخرجون».

«يجب أن نجد الكرة!».

قلت: «نعم، ولكن كيف؟».

«نزحف حتى نصل إليها».

«ولكن، إذا لم نجدها؟».

«نظل مُختفين، ونرى كيف يبدون».

قلتُ: «سنظل معًا».

أخذ يفكر. «أي طريق سنتخذه؟».

«علينا أن نجرب حظنا».

نظرنا إلى هذا الطريق وذاك. ثم بدأنا الزحف بحذرٍ شديدٍ عبر الغابة السفلية، حركة دائرية بقدر ما نستطيع أن نحُكم. كنَّا نتوقَّف عند كلِّ فِطرٍ يلوح، وعند كلِّ صوتٍ؛ لا نستهدف سوى العثور على الكرة التي خرجنا منها بحماقة. وكنَّا نسمع بين حينٍ وآخر أصواتَ اهتزازاتٍ وضرباتٍ تأتي أسفل التربة تحتنا، فضلًا عن أصواتٍ ميكانيكية غريبة ومبهمة. تصورنا مرة، ثم مرة أخرى، أننا سمعنا شيئًا، حشرجة خافتة وجلبة، حملها لنا الهواء. لكنَّ الخوفَ حال دون تجرؤنا على الوصول إلى موقع مراقبة جيد للفوهة. لم نرَ، لفترة طويلة، أيًّا من تلك الكائنات التي كانت أصواتها وفيرة ومُلحة. لكنَّ الدوار الناتج عن جوعِنا وجفاف حناجرنا أشعرنا أنَّ الزحف يشبه حلمًا حيًّا. لم يكن الوضع واقعيًّا على الإطلاق، وكانت تلك الأصوات هي العنصر الوحيد الذي يتَّسم بلمسة واقعية.

تخيَّل الأمرَ لنفسِك! توجد حولنا غابة شبيهة بالحلم؛ وترتفع فوقنا أوراقٌ شائكة صامتة وأشنات صامتة زاهية تنثرها الشمس تحت أيدينا وركبتينا، وتلوح بقوة نموها كبساطٍ متموجٍ عندما تهب الرياح تحتها، وتميل نحونا -بين الفينة والأخرى- إحدى الفطريات المنتفخة، التي تتضخَّم أكثر وأكثر تحت الشمس. كما يتكرر ظهورُ بعض الأشكال الجديدة الزاهية. أمَّا الخلايا نفسُها التي بنتْ هذه النباتات، فقد كانت كبيرةً بحجم إبهامي، مثل حباتٍ من الزجاج الملون. وكانت كلُّ هذه الأشياء مُشبَّعة بوهج الشمس الحاد، وتراها في مواجهة سماء سوداء تشوبها زُرقة ولا تزال متلألئة، على الرغم من أشعة الشمس، حيث يتناثر عددٌ قليلٌ من النجوم الباقية. يا لَلغرابة! كانت أشكال الحجارة وملمسها غريبًا. كان كلُّ شيءٍ غريبًا، الشعور بجسد المرء لم يسبق له مثيلٌ، وكلُّ حركة تنتهي بمفاجأة. كان التنفُّس رقيقًا في الحلق، والدم يتدفق نابضًا عبر آذان المرء – جلجل، جلجل، جلجل، جلجل.

كنَّا نسمع بين الحين والآخر عاصفة من جلبة وقرعٍ وقعقعة آلات، والآن خوار وحوش ضخمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(11)
مراعي عجول القمر

أصبحنا الآن اثنين من المنبوذين المساكين القادمين من كوكب الأرض، وتائهيْن في غابة القمر البرية المتنامية، نزحف مرعوبين من الأصوات التي نسمعها تقترب. زحفنا لفترة طويلة قبل أن نرى إما السيلينايت أو عجول القمر، على الرغم من أنَّنا سمعنا ضجيجَ خوارِ مزعجٍ يقترب منَّا باستمرار. زحفنا عبر الوديان الحجرية، وفوق منحدرات الثلوج، ووسط الفطريات التي تمزَّقت عندما أبعدناها مثل تمزُّق الأكياس الرقيقة، وأطلقتْ خليطًا مائيًّا، وزحفنا فوق أرضية مرصوفة تمامًا بأشياء مثل الكرات المنتفخة، وتحت مجموعة لا نهائية من الشجيرات الشائكة. كما بحثت أعيننا، بلا جدوى، عن كرتِنا المهجورة. كان ضجيج عجول القمر يبدو في بعض الأحيان كصوتٍ عريضٍ يشبه صوت العجل، بينما يرتفع في أحيانٍ أخرى كخوارٍ مذهولٍ وغاضبٍ، ثم نسمعه مرة أخرى كصوتٍ مكتومٍ لحيوانٍ، كأنَّما هذه المخلوقات غير المرئية كانت تسعى لتناول الطعام والخوار في الوقت نفسِه.

لم تكن رؤيتُنا لتلك الكائنات سوى لمحة عابرة غير كافية، لكنَّها كانت مزعجة أيضًا لأنَّها لم تكن كاملة. كان كافور يزحف أمامي حينذاك، وبالتالي عرف بقربهما أولًا، تسمَّر في مكانِه، وأشار إليَّ بالتوقف.

طقطقتْ وتهشَّمتْ الشجيرات الشائكة، مما أشار إلى أنَّهم يتقدمون مباشرة نحونا. عندئذٍ جثمنا مقتربين في محاولة لمعرفة مدى اقتراب هذا الضجيج واتجاهه. صدر خوارٌ هائلٌ خلفنا، قريبًا جدًّا وشديدًا إلى حدِّ انحِناء قمم الشجيرات الشائكة، وشعرنا بأنفاسٍ ساخنة ورطبة. استدرنا. رأينا بشكلٍ غير واضحٍ، خلال حشدٍ من سيقان الشجيرات المتمايلة، الجانبَ الساطعَ لعجول القمر والطابور الطويل لظهورهم يلوح في الأفق في مواجهة السماء.

يصعب الآن بالطبع أن أحدِّد قدرَ ما رأيته في ذلك الوقت، لأنني صحَّحتُ انطباعاتي بعد ذلك من خلال ملاحظاتي اللاحقة. أول انطباعٍ يتعلَّق بحجمِهم الهائل؛ حيث بلغ محيط جسم الواحد منهم قرابة ثمانين قدمًا، وطوله ربما مائتي قدم. وترتفع جوانبه وتنخفض مع تنفُّسه الثقيل. لاحظتُ أنَّ جسمه العملاق المترهل يصل إلى الأرضِ، وجلده أبيض مموجٌ، وتمتد على طول عمودِه الفقري نقاطٌ سوداء، لكنَّنا لم نرَ قدميه، وأعتقد أيضًا أنَّنا رأينا عندئذٍ المظهر الجانبي على الأقل لرؤوسهم الغبية، ورقابهم المُثقلة بالدهون، وأفواههم النهمة التي يسيل منها اللُّعاب، وفتحات أنوفهم الصغيرة، وأعينهم المُغلقة بإحكام (لأن عجل القمر يغلق عينيه دائمًا في وجود الشمس). لمحنا تجويفًا أحمر واسعًا عندما فتح عجلٌ فمَهُ ليخور مرة أخرى، وشعرنا بنفخة صادرة عن ذلك التجويف. ثم مال الوحش مثل سفينة، وجرَّ نفسَه على الأرض -حيث تجعَّد جلدُه كلُّه- وتدحرج مرة أخرى. تجاوزنا مُحطِّمًا المسار وسط الشجيرات، وسرعان ما أخفاه تشابكُ الشجيرات الكثيف عن أعيننا. ظهر عن بُعدٍ عجلٌ آخر، ثم آخر. بعد ذلك ظهر لحظيًّا في نطاق بصرنا سيلينايت، كأنَّما يوجِّه هذه الكتل المتحركة إلى مرعاها، وعندما رأيته، تشنَّجت قبضتي على قدم كافور، وبقينا نحدِّق بلا حراكٍ لفترة طويلة بعد أن ابتعد عن نطاق بصرنا.

على النقيض من عجول القمر، بدا تافهًا، مجرد نملة، يصل طوله بالكاد إلى خمسة أقدام، كان يرتدي ملابسَ من مادة جلدية، بحيث لم يظهر أيُّ جزءٍ من جسدِه الفعلي، الذي نجهله تمامًا بطبيعة الحال. ولذا يمكن القول إنَّه مخلوقٌ صغيرُ الحجم، يشبه كثيرًا حشرة مُعقدة ذات مجسَّاتٍ تشبه السوط، وذراعٍ متدلية من هيئة جسمه الأسطوانية اللامعة. وكان شكل رأسِه مختفيًا في خوذته الشائكة ذات الارتفاعات العديدة، واكتشفنا فيما بعد أنه يستخدم هذه الأشواك لوخز عجول القمر المقاوِمة للحرارة. كما يضع على الجانب نظارة واقية من الزجاج الداكن، منحت القناع المعدني الذي يغطي وجهه صفة الطيور. لم تتدلَّ ذراعاه خلف هيئة جسده، وحمل نفسَه على ساقين قصيرتين ملفوفتين داخل أغطية دافئة، بدت لأعيننا الأرضية رقيقة بشكلٍ مفرطٍ. كانت فخذاه قصيرتين جدًّا، وساقاه طويلتين جدًّا، وقدماه صغيرتين.

على الرغم من ملابسِه ثقيلة المظهر، كان يتقدَّم بخطواتٍ تبدو من وجهة نظر كوكب الأرض كبيرة جدًّا، وكانت ذراعه تصدر صوتَ رنينٍ. وأظهرت نوعية حركته خلال لحظة مروره تسرُّعه وغضبه. اختفى من مجال بصرنا بعد فترة وجيزة، ثم سمعنا خوار عجول القمر وقد تغيَّر فجأة إلى صريرٍ قصيرٍ حادٍّ، تلاه صوت مشاجرة ناتجة عن تسارعه. انحسر ذلك الخوار تدريجيًّا ثم انتهى، كأنَّما وَصلت العجول إلى المراعي التي كانت تتشدها.

حاولنا الإنصات. ظلَّ عالَم القمر ساكنًا لفترة، مرَّ بعضُ الوقت قبل أن نستأنف بحثنا الزاحف عن الكرة المختفية.

عندما رأينا عجولِ القمر بعد ذلك، كانوا على بُعد مسافة قريبة منَّا، في مكانٍ لصخورٍ متداعية. كان نبات أخضر مرقَّط يملأ الأسطح الأقل عمودية من الصخور، وينمو في كتلٍ طحلبيَّة كثيفة ترعى عليها هذه المخلوقات. توقفنا عند حافة نباتات المنطقة الرطبة التي نزحف وسطها عندما رأيناهم، نظرنا إليهم، وبحثنا بلمحة ثانية عن السيلينايت، كانوا يأكلون كرخوياتٍ هائلة، كهياكل ضخمة دهنية؛ يأكلون بنهم مع إحداث ضوضاء -نوع من العواء الشَره- بدوا كمجرد وحوشٍ سمينة، خرقاء وثقيلة إلى درجة تَجعل الثور البري يبدو نموذجًا للرشاقة. كانت أفواههم الملآنة تتلوى وتمضغ، وأعينهم مغلقة، ويصدر منهم صوتٌ ينمُّ عن الالتهام بشهية؛ أوحى ذلك كله بتأثير المتعة الحيوانية التي حفزت بشكلٍ فريدٍ بطوننا الخالية.

«الخنازير!»، قال كافور بشغفٍ غير عادي، «خنازير مثيرة للاشمئزاز!». وبعد نظرة ساخطة من الحسد الغاضب، زحف خلال الشجيرات التي تقع على يميننا. بقيتُ لفترة كافية كي أعرف أنَّ هذا النبات المرقَّط لا يصلح على الإطلاق كغذاءٍ للبشر، ثم زحفتُ خلفه بعد أن قضمتُ شوكة صغيرة من النبات بين أسناني.

أثار انتباهنا مرة أخرى الآن مدى قُرب السيلينايت، واستطعنا هذه المرة تفحصه بدقة أكبر. يمكننا الآن رؤية غطاء السيلينايت، وأنه في الواقع ملابس، وليس نوعًا من جلود القشريات. كان زيه مشابهًا تمامًا لزي السيلينايت الذي لمحناه من قبل، إلَّا أنَّ نهايات شيء مثل الحشو كانت بارزة من رقبته. كان يقف على نتوءٍ صخري، ويحرك رأسَه في هذا الاتجاه وذاك كأنَّما يتفقَّد الفُوهة. استلقينا بهدوءٍ خشية جذب انتباهه إذا تحركنا، استدار بعد فترة واختفى.

وصلنا إلى قطيعٍ آخر من عجول القمر يخور في أحد الوديان، ثم مررنا على مكانٍ تنطلق منه أصواتٌ عديدة؛ أصواتُ آلاتٍ، كأنَّ قاعة ضخمة للصناعة توجد بالقرب من السطح. وبينما لا تزال هذه الأصوات حولنا، وصلنا إلى حافة مساحة مفتوحة كبيرة، ربما يصل قطرُها إلى مائتي ياردة، ومستوية تمامًا. وباستثناء بعض الأشنات القريبة من طرفها، كانت هذه المساحة خالية وسطحها عبارة عن مسحوقٍ أصفر مغبَّر. كنَّا نخشى من عبور هذه المساحة، لكنَّها كانت لتريحنا من الزحف خلال النباتات الشوكية التي تعوقنا، ولذا هبطنا عليها وبدأنا نلتف بحذرٍ شديدٍ حول حافتها.

توقفتْ لفترة وجيزة الضوضاء القادمة من أسفل، وأصبح كلُّ شيء ساكنًا، باستثناء الضجة الخافتة للنباتات المتنامية. ثم انطلقتْ فجأة ضجةٌ، أعلى صوتًا، وأكثر شدة، وأقرب من أي شيء سمعناه حتى الآن، من المؤكد أنها جاءت من الأسفل. جثمنا بشكلٍ غريزيٍّ، وعلى نحوٍ مُسطَّح قدر ما استطعنا، وعلى استعدادٍ للاندفاع السريع نحو الغابة الموجودة بجانبنا. بدت كلُّ طَرقة أو خفقة تهتز خلال أجسادنا. زاد ارتفاع الطرق والخفقان، كما زاد الاهتزاز غير المنتظم إلى أن بدا عالَم القمر كلُّه يرتجف وينبض.

همس كافور: «اختبئ»، فاستدرتُ نحو الشجيرات. صدر في تلك اللحظة صوتٌ مجلجلٌ يشبه صوت بندقية، ثم حدث شيءٌ -شيء لا يزال يطاردني في أحلامي- كنت قد أدرت رأسي لأنظر في وجه كافور، ومددتُ يدي أمامي، لكنَّ يدي لم تقابل شيئًا! ووقعتُ فجأة في حفرة بلا قاعٍ!

اصطدم صدري بشيءٍ، ووجدتُ ذقني على حافة غير مفهومة؛ فُتِحت فجأة تحتي، وامتدتْ يدي بقوة في الفراغ. لم تكن المنطقة الدائرية المسطحة بأكملها أكثر من غطاءٍ عملاقٍ، ينزلق الآن إلى الجانبين -من خارج الحفرة التي غطاها- في فتحة مُعدَّة له.

ولولا كافور لبقيتُ هناك جامدًا، مُعلَّقًا فوق هذا الطرف ومُحدِّقًا بالخليج الهائل أدناه إلى أن تكشطني في النهاية حواف الفتحة وتلقيني في أعماقِها. لكنَّ كافور لم يتلقَّ الصدمة التي شلَّتني، كان على مسافة صغيرة من الحافة عندما فُتِح الغطاء بداية، وأدرك الخطر الذي أعجزني، أمسك كافور بساقي وسحبني إلى الوراء. جلستُ، ثم زحفتُ على أطرافي الأربعة بعيدًا عن الحافة بمسافة، وبعدها ترنحتُ وركضتُ وراءه عبر لوحٍ معدني مدوٍ ومرتعشٍ، بدا أنَّه يتمايل مفتوحًا بسرعة شديدة مطردة، والشجيرات التي أمامي تتحرك بشكلٍ جانبي خلال ركضي. بالكاد ما لحقت بكافور، لكنَّه اختفى وسط غابة الشجيرات الشائكة. وفي أثناء اندفاعي وراءه، قعقع الصمام الوحشي عند عودتِه إلى مكانِه، رقدنا نلهث لفترة طويلة، ولا نجرؤ على الاقتراب من الحفرة.

وأخيرًا، وبحذرٍ شديدٍ، تسلَّلنا شيئًا فشيئًا إلى موقعٍ يمكننا من خلاله أن ننظر إلى أسفل، داخل الحفرة. أصدرت الشجيرات حولنا صريرًا ومالت مع قوة النسيم التي تهبُّ هابطة داخل الحفرة. لم نتمكَّن من رؤية أي شيء في البداية سوى الجدران الرأسية الناعمة التي تنحدر في النهاية إلى سوادٍ لا يمكن اختراقه. ثم بدأنا تدريجيًّا نلاحظ عددًا من الأضواء الخافتة القليلة، تتحرك ذهابًا وإيابًا.

شغلتنا لفترة هذه الهاوية الهائلة الغامضة، حتى إنَّنا نسينا كرتنا. اعتدنا بمرور الوقت الظلامَ، واستطعنا تمييزَ أشكالٍ قاتمة صغيرة جدًّا، تتحرك بين تلك النقاط الضوئية. حملقنا في ذهولٍ وتشكُّكٍ،

ولم نفهم سوى القليل لدرجة أنّنا لم نجد كلماتٍ نقولها. لم نتمكن من التمييز بين أي شيء قد يعطينا فكرة عن معنى الأشكال الباهتة التي رأيناها.

«ماذا يمكن أن تكون؟»، سألتُ كافور، «ماذا يمكن أن تكون؟».

«الهندسة!... لا بُدَّ أنَّهم يعيشون في هذه الكهوف خلال الليل، ويخرجون أثناء النهار».

سألته: «كافور، هل يمكن أن يكونوا... شيئًا مثل.. البشر؟».

«لم يكن هذا بشريًّا».

«نحن لا نجرؤ على المخاطرة بأي شيء!».

«نحن لا نجرؤ على القيام بأي شيء، حتى نجد الكرة!».

«لا يمكننا القيام بأي شيء، حتى نجد الكرة».

وافق متذمِّرًا، وبدأ يتحرك. نظر حوله لفترة، ثم أشار متنهدًا إلى اتجاه. اتخذنا طريقنا خلال الغابة. زحفنا بعزم لفترة من الوقت، ثم تضاءلت قوانا. والآن، بين الأشكال الكبيرة الأرجوانية الباهتة، سمعنا ضجيجًا من السحق والصراخ حولنا. اقتربنا من بعضنا، وظلَّت الأصوات تعلو ثم تتلاشى لفترة طويلة بالقرب منَّا. لكنَّنا لم نرَ شيئًا هذه المرة. حاولتُ أن أهمس لكافور أنَّني لا أستطيع الاستمرار أكثر من ذلك من دون طعامٍ، لكن جفاف فمي حال دون همسي.

«كافور»، قلتُ، «يجب أن آكل».

أدار وجهًا مليئًا بالفزع نحوي، وقال: «هذا وقت الصمود».

قلتُ: «لكني يجب...، انظر إلى شفتي!».

«أشعر بالعطش أيضًا منذ فترة».

«لو بقيتْ فقط بعض تلك الثلوج!».

«لقد ذابت تمامًا! نحن ننتقل من القطب الشمالي إلى المنطقة الاستوائية بمعدل درجة في الدقيقة...».

عضضتُ يدي.

قال كافور: «الكرة! ليس أمامنا سوى العثور على الكرة».

دفعنا أنفسَنا إلى جولة أخرى من الزحف. انشغل عقلي كلية بالتفكير في الأشياء الصالحة للأكل وأنواع المشروبات الصيفية، واشتهيتُ البيرة على وجه الخصوص، تملكتني ذكرى برميل يسع ستة عشر جالونًا، يقف متباهيًا في قبو خموري في ليم. وفكرتُ في مخزن حفظ اللحوم، وخاصة شرائح اللحم الطرية وفطائر اللحم بالمرق. تكررت معاناتي بنوباتِ الجوع. وصلنا إلى أماكن مُسطَّحة مليئة بأشياء حمراء لحمية، نمو مرجاني وحشي؛ وعندما دفعناها لنمرَّ، قُطِعتْ وانكسرتْ، لاحظتُ نوعية الأسطح المكسورة، يبدو نسيج تلك الأشياء الغريبة قابلًا للأكل، كما بدا لي أنَّ رائحتها جيدة نوعًا ما.

التقطتَ قطعة صغيرة وتشممتها.

«كافور»، قلتُ بصوتٍ خفيضٍ أجش.

نظر إليَّ ووجهه مشدودٌ. قال: «لا تفعل». تركتُ تلك القطعة الصغيرة، ثم واصلنا زحفَنا لمسافة خلال هذا النبات اللحمي المُغري.

سألته: «كافور، لماذا لا؟».

سمعته يقول: «خشية أن يكون سامًّا»، لكنَّه لم يلتفت نحوي.

زحفنا لمسافة أخرى قبل أن اتخذ قراري.

قلت: «سوف أغامر».

التفتَ لمنعي، ولكن بعد فوات الأوان؛ فقد حشوتُ فمي بالكامل. جثم يراقب وجهي، بينما يتلوَّى وجهه في أغرب تعبير. قلتُ: «إنَّه جيدٌ».

صاح: يا إلهي!

شاهدني آكل، تجعَّد وجهه بين الرغبة والرفض، لكنَّه استسلم فجأة للشهية، وبدأ يقضم بملء فمه، بقينا لبعض الوقت لا نفعل شيئًا إلا أن نأكل.

لم يكن مذاق ما نأكله يختلف عن الفِطر على كوكب الأرض، إلَّا أنَّ ملمسه كان أكثر مرونة، وابتلاعه يُدفئ الحلق. شعرنا بداية بمجرد رضا تلقائي بالأكل، ثم بدأ دمنا يزداد سخونة، كما شعرنا بوخزٍ في الشفاه والأصابع، ثم احتدمت في أذهاننا أفكارٌ جديدة وغريبة إلى حدٍّ ما.

قلتُ: «مذاقه طيبٌ. شيءٌ مدهشٌ! يا لَهذا الموقع من موطنٍ يحلُّ مشكلة زيادة السكان على كوكب الأرض! الفائض السكاني على كوكبنا الأرضي»، ثم قضمتُ قطعة كبيرة أخرى، شعرتُ بارتياحٍ غريبٍ لوجود مثل هذا الطعام الجيد في القمر. أفسح اكتئابُ الجوعِ الطريقَ لبهجة غير عادية، وتلاشى تمامًا الخوفُ والضيقُ اللذان كنتُ أشعر بهما. لم أعُد أرى القمرَ كوكبًا أرغب حقًّا في إيجاد وسيلة للهرب منه، بل كملجأ محتملٍ من الفقر الذي يعاني منه البشر. أعتقد أنَّني نسيتُ تمامًا السيلينايت، وعجولَ القمر، والغطاءَ، والضوضاءَ، بمجرد أن أكلت هذا الفطر.

ردَّ كافور على تكراري الثالث لملاحظتي عن «الفائض السكاني» بكلماتٍ مماثلة للموافقة. شعرتُ أنَّ رأسي يسبح، لكنَّني اعتبرتُ ذلك نتيجة تأثير الطعام بعد صيامٍ طويلٍ. قلتُ: «اكتشافُكَ رائعٌ يا كافور، لا يضاهيه سوى البطاطس».

سأل كافور: «ماذا تعني؟ اكتشاف القمر لا يضاهيه سوى البطاطس؟

نظرتُ إليه، مصدومًا بصوتِه الأجش المفاجئ، وبسوء تعبيره، خطر لي للحظة أنَّه مخمورٌ، ربما بسبب الفِطر. كما خطر لي أنه أخطأ في تخيُّله أنَّه اكتشف القمر؛ فهو لم يكتشفه، بل فقط وصل إليه. حاولتُ أن أضع يدي على ذراعِه وأشرح له هذا، لكنَّ القضية كانت صعبة بالنسبة إلى قدرتِه على

الفهم، كما كانت صعبة بشكلٍ غير متوقع بالنسبة إلى قدرتي على التعبير عنها. بعد محاولة لحظية كي يفهمني -أتذكر أنَّني تساءلتُ عمَّا إذا كان الفطريات قد جعلت عيناي مريبتين مثل عينيه- انطلق طارحًا بعض الملاحظات.

أعلن: «نحن مخلوقات ما نأكله ونشربه».

كرر كلامه. وبما أنني كنتُ في حالة مزاجية غريبة، فقد قررتُ معارضته، ربما دُرتُ قليلًا حول هذه النقطة، بيْدَ أنَّ كافور بالتأكيد لم يكن مُصغيًا بشكلٍ جيدٍ. وقف بقدر ما يستطيع، واضعًا يده على رأسي ليتمكَّن من الثبات -وهذا سلوكٌ غير محترمٍ- ثم أخذ ينظر حوله، دون أي خوفٍ على الإطلاق من الكائنات القمرية.

حاولتُ أن أشير إلى خطورة هذا لسببٍ ما لم يكن واضحًا تمامًا بالنسبة إليَّ، لكن كلمة «خطير» اختلطت بطريقة أو بأخرى مع كلمة «متهور»، وخرج شيءٌ منهما أشبه بكلمة «ضار». وبعد محاولة فصلهم، استأنفتُ حجتي، مؤكِّدًا بشكلٍ رئيسٍ على النمو المرجاني غير المألوف لكنه واضحٌ على الجانبين. شعرتُ بضروري إزالة هذا الخلط بين القمر والبطاطس على الفور؛ فالتففتُ في حديثي طويلًا حول أهمية دقة التعريف في أي أطروحة، لقد فعلتُ ما بوسعي لتجاهُل حقيقة أنَّ أحاسيسي الجسدية لم تعُد مريحة.

على أنَّني نسيتُها الآن بطريقة ما، وانشغل ذهني ثانية بمشاريع الاستعمار. قلتُ: «يجب إلحاق هذا القمر، ويجب ألا نتردَّد في ضمِّه إلينا. إنَّه جزءٌ من «عبء الرجل الأبيض»([7]). يا كافور، نحن... هأ.. سنكون... حُكامًا... هأ.. مثل الإمبراطورية الفارسية القديمة! إمبراطورية لم يحلم بها قيصرٌ أبدًا. ستذكرنا جميع الصحف. إمبراطورية كافوريشيا. بدفورديشيا...هأ.. شركة بدفورديشيا المحدودة. أعني.. غير المحدودة، عمليًّا!

كنتُ مخمورًا بالتأكيد.

شرعتُ في حججٍ لإظهار الفوائد اللا نهائية التي يمنحها لنا وصولنا إلى القمر. وتورطتُ في تقديم دليلٍ صعبٍ إلى حدٍّ ما، على أنَّ وصول كولومبوس كان، بشكلٍ عامٍّ، مفيدًا لأمريكا، ثم وجدتُ أنَّني نسيتُ خط الحجة التي كنت أنوي متابعتها، فواصلتُ تكرار عبارة «مثل كولومبوس» لملء الوقت.

ومنذ تلك الواقعة، أصبحتْ ذاكرتي عن تأثير هذا الفِطر اللعين مشوَّشة. أتذكر بشكلٍ مُبهم أنَّنا أعلنا نيَّتنا بعدم الخوف من أي حشراتٍ بغيضة، وأنَّنا قررنا أنَّه ليس من شيم الرجال الاختباء بشكلٍ مخزٍ على مجرد قمرٍ تابعٍ، وأننا تسلَّحنا بكمية هائلة من ذلك الفِطر -لا أعرف لأي غرضٍ- وبدأنا نتحرك تحت ضوء الشمس، من دون اهتمام بطعنات النباتات الشائكة.

وسرعان ما شاهدنا السيلينايت. كانوا ستة، يسيرون في صفٍّ واحدٍ فوق موضعٍ صخري، ما جعل الأصوات والصيحات عالية النبرة الصادرة عنهم أكثر تميُّزًا. بدا أنَّهم جميعًا أدركوا، في وقتٍ واحدٍ، وجودنا؛ صمتوا جميعًا على الفور وكفُّوا عن الحركة، مثل الحيوانات، وتحوَّلت وجوهُهم نحونا.

بقيتُ متزنًا للحظة.

«حشرات»، غمغم كافور، «حشرات! ويعتقدون أنني سأزحف على معدتي، على معدتي الفقارية!».

«معدتي»، كرَّر ببطءٍ كأنَّما يمضغ الإهانة.

ثم فجأة، قطع غاضبًا ثلاث خطوات واسعة وقفز نحوهم، كانت قفزة سيئة؛ تشقلب عدة مراتٍ في الهواء، وطار دائريًّا فوقهم مباشرة، ثم اختفى بسقوطِه وسط نباتات الصبار. ليس لديَّ أيُّ وسيلة لتخمين ما فعله السيليناية تجاه هذه القفزة المذهلة، التي أراها إزعاجًا غيرَ كريم من كوكبٍ آخر. أتصوَّر أنَّني أتذكَّر مشهد ظهورهم وهم يركضون في جميع الاتجاهات، لكنَّني لستُ متأكدًا. جرتْ كلُّ هذه الأحداث الأخيرة قبل أن يبدأ ذهني في النسيان، ولذا فهي مشوَّشة وغير واضحة. أعرف أنَّني تقدَّمتُ خطوة لألحق بكافور، وتعثَّرتُ وسقطتُ على رأسي بين الصخور، وأنا على يقينٍ أنَّني أصبحتُ مريضًا فجأة وبشدة، وأعتقد أنني أتذكر صراعًا عنيفًا، ومشابكَ معدنية تمسك بي.

ما أذكره بوضوحٍ بعد ذلك هو أنَّنا سجناء في أعماقٍ لا نعرفُ مداها تحت سطح القمر، كان الظلام يحيط بنا وسط أصواتٍ غريبة تشتِّت الانتباه، وأجسامنا مغطَّاة بخدوشٍ وكدماتٍ، ورؤوسنا مثقلة بالألم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(12)
وجه السيلينايت

وجدتني جالسًا القرفصاء في ظلام صاخبٍ، لم أستطع أن أفهم، ولفترة طويلة، أين أنا أو كيف وصلتُ إلى هذه الحالة من الارتباك والحيرة. فكرتُ في خزانة الملابس التي كُنتُ أُدفَع فيها أحيانًا عندما كنتُ طفلًا، ثم فكرتُ في غرفة نومٍ مظلمة وصاخبة كُنتُ أنام فيها عند مرضي، لكنَّ هذه الأصوات التي أسمعها حولي لم تكن الضوضاء التي عرفتها، كما شممتُ رائحة خفيفة في الهواء تشبه رياح الإسطبل، ثم افترضتُ أنَّنا لا نزال نعمل على إنشاء الكرة، وأنَّني دخلتُ بطريقة ما إلى قبو منزل كافور، لكنَّني تذكرتُ أنَّنا انتهينا من الكرة، وتخيَّلتُ أنَّني ما زلتُ داخلها مسافرًا عبر الفضاء.

قلتُ: «كافور، ألا يمكننا الحصول على بعض الضوء؟».

لم يرد.

قلتُ بإصرارٍ: «كافور».

جاءت إجابته أنينًا: «رأسي!»، سمعته يقول: «رأسي!».

حاولتُ الضغط بكلتا يدي على جبيني الذي يؤلمني، واكتشفتُ أنَّ يدي مقيدتان معًا، أذهلني ذلك جدًّا؛ فرفعتهما إلى فمي وشعرتُ بنعومة المعدن البارد. كانت يداي مقيدتين معًا بسلسلة. حاولتُ تحريك ساقيَّ، واكتشفتُ أنَّهما مقيدتان بالمثل، فضلًا عن أنَّني كنتُ مُقيدًا بالأرضية عن طريق سلسلة أكثر سمكًا بكثيرٍ وتلتفُّ حول خصري.

شعرتُ بخوفٍ شديدٍ، أكبر من أي خوفٍ شعرتُ به خلال جميع تجاربنا الغريبة. حاولتُ لفترة من الوقت جرَّ قيودي في صمتٍ، ثم صرختُ بحدَّة: «كافور»، لماذا أنا مُقيدٌ؟ لماذا قيدتَ يديَّ وقدميَّ؟».

أجاب: «أنا لم أقيدك، إنَّهم السيلينايت».

السيلينايت! توقَّف ذهني عند هذه النقطة لفترة، ثم عادتْ ذاكرتي: العزلة الثلجية، وذوبان الهواء، ونمو النباتات، وقفزنا الغريب، وزحفنا بين صخور ونباتات الفوهة. تذكرتُ محنة بحثنا المحموم عن الكرة... وأخيرًا فُتِح الغطاء الكبير الذي يغطي الحفرة!

حاولتُ جاهدًا تتبُّع تحركاتنا الأخيرة حتى وصولنا إلى محنتِنا الحالية، لكنَّ الألم في رأسي أصبح لا يُطاق، وصل ذهني إلى حاجزٍ لم أستطع تجاوزه، فراغٍ عنيدٍ.

«كافور».

«نعم؟».

«أين نحن؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

«هل نحن موتى؟».

«ما هذا الهُراء!».

«إذن، ألقوا القبض علينا!».

لم يقدِّم أيَّ إجابة سوى إطلاق نخيرٍ، يبدو أنَّ آثار السم العالقة جعلته سريع الانفعال بشكلٍ غريبٍ.

«ماذا تنوي أن تفعل؟».

«كيف لي أن أعرف ماذا أفعل؟».

قلت: «أوه، حسنًا!»، ثم لذتُ بالصمت. أفقتُ الآن من غيبوبة. صحتُ: «يا إلهي! ليتك تتوقَّف عن هذا الطنين!».

صمتنا مرة أخرى، وسمعنا ضوضاءَ كئيبة من أصواتٍ مختلَطة تشبه تلك الأصوات المكتومة التي تأتي من شارعٍ أو مصنعٍ، وملأت آذاننا، لم أتمكَّن من تحديدِها؛ فقد تابع ذهني إيقاعًا في البداية، ثم إيقاعًا آخر، ولَم أتمكَّن من تمييزها، لكنَّني أصبحتُ، بعد فترة طويلة، على بيِّنة بعنصرٍ جديدٍ وأكثر وضوحًا؛ صوت لا يختلط ببقية الأصوات، وإنما يبرز في مواجهة تلك الخلفية الغائمة من الأصوات. كانت سلسلة من الأصوات القليلة المُحدَّدة نسبيًّا؛ أصوات نقرٍ واحتكاكٍ، مثل رذاذٍ فضفاضٍ من نبات اللبلاب على نافذة، أو طائرٍ يتحرك فوق صندوقٍ. استمعنا، ونظرنا إلى ما حولنا، لكنَّ الظلامَ كان مخمليًّا باهتًا، ثم سمعنا ضجيجًا يشبه حركة خفيَّة لقفلٍ مُحكَم الإغلاق، ثم ظهر أمامي خطٌّ رفيعٌ لامعٌ، بدا مُعلَّقًا في السواد الضخم.

«انظر!»، همس كافور بهدوءٍ شديدٍ.

«ما هذا؟».

«لا أدري».

نظرنا مُحملقين.

أصبح الخط الرفيع اللامع شريطًا، زاد اتساعًا وشحوبًا؛ ثم تحوَّل إلى نوعٍ من الضوء ضاربٍ إلى الزُرقة يسقط على جدارٍ ناصع البياض. والآن تلاشى جانباه المتوازيان، وأصبح تجويفًا عميقًا على جانبٍ واحدٍ. استدرتُ لأنقل ملاحظتي هذه إلى كافور، وأدهشتني رؤية أذنه في إضاءة متألقة، بينما كان جسمه ووجهه في الظل، أدرتُ رأسي بقدر ما تسمح قيودي، وقلتُ: «كافور، إنَّه في الخلف!».

اختفت أذنه، مُفسحة المكان لعينٍ!

وفجأة اتَّسع الشقُّ الذي كان يسمح بنفاذ الضوء، وكشف عن نفسِه كمساحة لبابٍ مفتوحٍ. ظهر وراءه مشهدٌ لياقوت أزرق، وظهرت الخطوط العريضة لصورة ظلية بشعة لكائنٍ يقف عند المدخل في مواجهة الضوء الساطع.

بذل كلانا جهدًا مضنيًا للالتفاف، لكنّنا فشلنا واكتفينا بالجلوس محملقين إليه من فوق أكتافنا. كان انطباعي الأول أنَّه كائنٌ أخرق، لديه أربعة أطراف، ورأسه منخفضٌ. ثم أدركتُ أنَّه السيليناية: جسمه نحيلٌ مضغوطٌ، وساقاه مقوستان وقصيرتان وضعيفتان للغاية، ورأسه ينخفض بين كتفيه، كان من دون الخوذة وغطاء الجسم الذي يرتدونه على أجسامهم.

كان شخصية سوداء خالية من التعبير بالنسبة إلينا، لكنَّ خيالنا زوَّدنا -بشكلٍ غريزيٍّ- بملامح خطوطه البشرية، فقد تصوَّرتُ على الفور -أنا على الأقل- أنَّه أحدب إلى حدٍّ ما، وجبهته عالية، وملامحه طويلة.

تقدَّم ثلاث خطوات ثم توقَّف لهنيهة. بدتْ حركاتُه بلا ضوضاء على الإطلاق. تقدَّم مرة أخرى، كان يسير مثل طائر، حيث تتحرَّك قدماه واحدة أمام الأخرى. خرج من شعاع الضوء الذي يأتي خلال المدخل، ثم بدا كأنَّه اختفى تمامًا في الظل.

بحثتْ عنه عيناي للحظة في المكان الخطأ، ثم رأيته يقف أمامنا في الضوء الكامل، لم تكن السمات البشرية التي نسبتها إليه موجودة على الإطلاق!

كان يجب أن أتوقَّع ذلك بالطبع، لكنَّني لم أتوقعه، فاجأني كصدمة مُطلقة، وللحظة كصدمة ساحقة. بدا كأنَّه ليس وجهًا، بل يجب أن يكون قناعًا، رعبًا، تشوهًا، سيجري التنصُّل منه أو تفسيره حاليًّا. لا توجد أنفٌ لدى هذا الكائن، وكانت عيناه منتفختين وبليدتين في الجانب بحيث تصورتهما، في صورة ظلية، أذنين. لم تكن لديه آذان، وقد حاولتُ رسمَ أحد هذه الرؤوس، لكنَّني لم أستطع. رأيتُ فمًا، كان منحنيًا إلى أسفل، مثل فم إنسان في وجه يحملق بشراسة.

أما الرقبة التي كان الرأس فوقها، فقد كانت مقسَّمة بمفاصل في ثلاثة أماكن؛ تشبه تقريبًا المفاصل القصيرة في ساق الكابوريا. لم أتمكَّن من رؤية مفاصل الأطراف، بسبب الأشرطة الشبيهة بالأربطة التي تلتفُّ حول السيقان من الكاحل إلى الركبة، والتي تُشكِّل الملابس الوحيدة التي يرتديها هذا الكائن.

وقف هذا الكائن ينظر إلينا!

كان ذهني، في ذلك الوقت، في حالة ذهولٍ إزاء جنون استحالة هذا المخلوق. وأعتقد أنَّه كان مذهولًا أيضًا، وربما لديه سببٌ للذهول أكثر منَّا، لكنَّه لم يُظهِر ارتباكه أو دهشته! عرفنا، على الأقل، سبب هذا اللقاء بين مخلوقات غير متوافقة. لك أن تتصور كيف يبدو الأمر، على سبيل المثال، لسكان لندن المحترمين عندما يلتقون باثنين من الكائنات الحية كبيرة الحجم مثل البشر، ويختلفان تمامًا عن أي كائنات أخرى على كوكب الأرض، وينطلقان بين الأغنام في حديقة هايد بارك! لا بُدَّ من أن هذه كانت نظرته للأمر.

لك أن تتخيل وضعنا! كنَّا مقيديْن من اليدين والقدمين، مُتعبيْن وقذريْن. وصل طول لِحيتينا إلى بوصتين، ووجهانا تغطيهما الخدوش والدماء. ولك أن تتخيل كافور في ملابسِه (الممزَّقة في عدة أماكن من جرَّاء النباتات الشائكة)، وقميصه ماركة جايجر، وقبعته القديمة الخاصة بلعبة الكريكيت، وشعره المشعث المبعثر، الذي تتجه خصلاته إلى كل رُبع في السماء. وفي ذلك الضوء الأزرق، لم

يكن وجهه أحمر بل داكنًا جدًا، كما بدت شفتاه والدم الجاف على يديه أسود. وربما كانت حالتي أسوأ منه، بسبب الفِطر الأصفر الذي قفزت داخله. كانت سترتانا مفككة الأزرار، وأحذيتنا خُلِعت ووضعت عند أقدامنا. كنَّا نجلس وظهرانا أمام هذا الضوء المزرق الغريب، ننظر إلى وحشٍ يشبه ما قد يخترعه دورر([8]).

كسر كافور الصمتَ، وبدأ بالكلام. كان صوته أجشَّ، تنحنح لإزالة انسداد حلقه، أما في الخارج، فقد بدأ صوت خوارٍ مرعب، كأنَّما أحد عجول القمر يعاني، انتهى الأمر بصرخة، ثم عاد السكون مرة أخرى.

استدار السيلينايت، ومضى في الظل، وقف للحظة عند الباب متطلعًا إلى الخلف، ثم أغلق الباب علينا. خيَّمت علينا مرة أخرى همهمة غموض الظلام الذي استيقظنا عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(13)
السيد كافور يقدِّم بعضَ الاقتراحات

بقينا لفترة صامتين. كان تفكيرنا معًا في كل الأشياء التي جلبناها على أنفسنا يتجاوز قدراتي العقلية.

وأخيرًا قلتُ: «لقد تمكَّنوا منَّا».

«إنَّ ذلك الفِطر، هو السبب».

«حسنًا... لو لم نأكله، كنَّا سنُصاب بالإغماء ونموت جوعًا».

«وربما وجدنا الكرة».

فقدتُ أعصابي بسبب إصراره، ولعنتُ نفسي. شعر كلٌّ منَّا بكراهية تجاه الآخر في صمتٍ لفترة. دققتُ بأصابعي على الأرض بين ركبتيّ، وشددتُ روابط قيودي فأطلقتْ صريرًا. والآن أنا مضطرٌّ إلى التحدُّث مرة أخرى.

سألته بشكلٍ لائقٍ: «ماذا نفعل الآن، على أي حالٍ؟».

«إنَّهم مخلوقاتٌ عاقلة. يمكنهم صنع أشياء والقيام بأشياء. تلك الأضواء التي رأيناها...».

توقف عن الحديث؛ كان من الواضح أنه لا يستطيع عملَ أي شيء.

وعندما تحدَّث مرة أخرى كان حديثه بمثابة اعتراف: «إنَّهم، قبل أي شيء، أكثر إنسانية مما يحق لنا توقعه. أفترض...».

توقَّف بشكلٍ مزعجٍ عن الحديث.

«نعم؟».

«على أي حالٍ، فإنني أفترض أنَّ أي حيوانٍ ذكي على أي كوكبٍ يجب أن توجد رأسه في أعلى، ولديه أيدٍ، ويسير منتصبًا».

ثم تحوَّل حديثه إلى اتجاهٍ آخر.

قال: «إنَّنا في مكانٍ ما في الأسفل. أعني ربما على مسافة بضعة آلاف من الأقدام أو أكثر تحت سطح القمر».

«لماذا؟».

«لأنَّ المكان أكثر برودة. كما أنَّ أصواتنا أعلى بكثيرٍ. ذلك الذوبان، لقد اختفى تمامًا. وهناك ذلك الشعور في أذني المرء وحنجرته».

لم أكن قد لاحظتُ ذلك، لكنَّني تنبَّهتُ الآن.

«الهواء أكثر كثافة. لا بُدّ وأنّنا في الأعماق، ربما لمسافة ميلٍ حتى، داخل القمر».

«لم نفكر أبدًا في عالمٍ داخل باطن القمر».

«لا».

«كيف كان يمكننا التفكير في ذلك؟».

«ربما كان يمكننا التفكير في ذلك؛ لكنَّ المرء يمضي وفقًا لعادات عقله».

صمت لحظات يفكر.

وقال: «يبدو الأمر واضحًا الآن».

«بالطبع! يجب أن يكون القمر كهفيًّا بشكلٍ كبيرٍ، مع وجود جو داخله، وفي وسط كهوفه يوجد بحرٌ».

«يعرف المرء أنَّ جاذبية القمر أقل من جاذبية كوكب الأرض، ويعرف المرء أنَّ الهواء أو الماء في الخارج قليلٌ، ويعرف المرء أيضًا أنَّه كوكبٌ شقيقٌ لكوكب الأرض، ويصعب تفسير لماذا يختلف في تكوينه عن كوكب الأرض، كان الاستنتاج بأنَّه مجوَّفٌ وواضحٌ كالنهار، ومع ذلك لم يأخذ أحدٌ ذلك كحقيقة. كبلر([9])، بالطبع...».

اكتسب صوتُه الآن مسحة اهتمام رجلٍ أدرك تسلسلًا منطقيًّا جيدًا.

قال: «نعم، كان كبلر ونظريته على حقٍّ في النهاية».

قلتُ: «كنتُ أتمنَّى لو أنَّك حملتَ عناء معرفة ذلك، قبل أن نأتي إلى هنا».

لم يرد على أي شيء، واستمرَّ في الطنين بهدوءٍ، بينما يفكر. كنتُ متوترًا.

سألته: «على أي حالٍ، ماذا حدث للكرة في رأيك؟».

«فُقِدت»، قال كرجلٍ يجيب على سؤالٍ غير مثيرٍ للاهتمام.

«بين تلك النباتات؟».

«إلَّا إذا كانوا وجدوها».

«وماذا بعد؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

«كافور»، قلتُ بنوعٍ من المرارة الهستيرية، «تبدو الأمور مشرقة لشركتي...».

لم يجب.

صرختُ: «يا إلهي! يجب أن تفكر في كل المتاعب التي تكبدناها وفي النهاية وصلنا إلى هذا المأزق! لماذا أتينا؟ ما الذي نسعى إليه؟ ماذا كان القمر بالنسبة إلينا، أو نحن بالنسبة إلى القمر؟ لقد أردنا

الكثيرَ، وحاولنا أكثر من اللازم، كان يجب أن نبدأ بالأمور الصغيرة أولًا. أنت الذي اقترحتَ القمر. تلك الستائر القافزة المصنوعة من الكافوريت! أنا متأكدٌ من أننا كنَّا نستطيع استخدامها في أغراضٍ عديدة على كوكب الأرض، بالتأكيد! هل فهمت حقًّا ما اقترحته؟ أسطوانة فولاذية...».

قال كافور: هذا هُراء!

توقفنا عن الحديث.

استمرَّ كافور لبعض الوقت يكلِّم نفسَه في حديثٍ متقطعٍ، دون أن أتدخل.

قال: «إذا وجدوها، إذا وجدوها... ماذا سيفعلون بها؟ حسنًا، هذا سؤالٌ. ربما هذا هو السؤال. لن يفهموها، على أي حالٍ. لو كانوا يفهمون هذا النوع من الأشياء لجاءوا إلى كوكب الأرض منذ فترة طويلة. هل يمكنهم ذلك؟ لماذا لا يمكنهم؟ لأنَّهم كانوا سيرسلون شيئًا ما، فلا يمكنهم تجاهل مثل هذا الاحتمال. لا! لكنهم سوف يفحصونها، من الواضح أنهم أذكياء وفضوليون. سوف يفحصونها، ويدخلونها، ويعبثون في أزرارها، يطفئونها! هذا يعني أنَّنا سنبقى في القمر لبقية حياتنا. مخلوقات غريبة، معرفة غريبة...».

قلتُ: «أما بالنسبة إلى المعرفة غريبة...»، لم أستكمل العبارة، لم تسعفني اللغة.

قال كافور: «اسمع يا بدفورد، لقد أتيتَ إلى هذه الرحلة بمحض إرادتك».

«قلتَ لي، سمِّها رحلة استكشافية».

«توجد مخاطر دائمًا في الرحلات الاستكشافية».

«وخاصة عندما تقوم بها وأنت غير مسلَّحٍ، ومن دون التفكير في جميع الاحتمالات».

«استحوذتْ فكرة الكرة على تفكيري، اندفعنا بالكرة، وحملتنا بعيدًا».

«تقصد أنني اندفعتُ».

«اندفعتُ أنا أيضًا بالقدر نفسه، كيف كنتُ لأعرف أنَّ عملي في مجال الفيزياء الجزيئية سيجلبني إلى هنا، من بين كل الأماكن؟».

صحتُ: «يا لَه من عِلم ملعون، إنَّه الشيطان ذاته. لقد كان الكهنة والمضطهَدون في العصور الوسطى على حقٍّ، والحديثونَ مخطئون جميعًا، تتلاعب به، وهو يقدم لك الهدايا، وعندما تأخذها، تنفجر وتمزقك مباشرة إلى أشلاء بطريقة غير متوَقَّعة، مشاعر قديمة وأسلحة جديدة، الآن تزعج ديانتك، والآن تزعج أفكارك الاجتماعية، والآن تحيلك إلى خرابٍ وبؤسٍ!».

«على كلٍّ، لا فائدة من شجارك معي الآن، فهذه المخلوقات، هؤلاء السيليناية، أو أي اسم نختاره لها، قد قيَّدت أيدينا وأقدامنا، وأيًّا ما كان المِزاج الذي تختاره للتعامل معهم، عليك أن تتعامل معهم، لدينا خبراتنا، التي تحتاج إلى كل هدوئنا».

توقَّف كما لو أنه ينتظر موافقتي، لكنَّني جلستُ عابسًا، قلتُ: «اللعنة على علومِكَ!».

«تكمن المشكلة في التواصُل، أخشى أن تختلف الإيماءات، وعلى سبيل المثال، الإشارة، فلا توجد مخلوقات تشير إلَّا البشر والقرود».

كان رأيه خاطئًا بديهيًّا من وجهة نظري؛ فقلتُ: «كلُّ حيوانٍ تقريبًا يشير، إما بعينيه أو بأنفه».

صمت كافور متأمِّلًا، وأخيرًا قال: «نعم، ونحن لا نفعل ذلك، هناك اختلافاتٌ، توجد مثل هذه الاختلافات!».

«يمكن للمرء... ولكن كيف يمكنني القول؟ هناك حديثٌ، الأصوات التي يصدرونها، هي نوعٌ من النفخ والزمر، لا أتصور أن بإمكاننا تقليد ذلك، هل حديثهم هو هذا النوع من الأشياء؟ قد يمتلكون حواسًا مختلفة، وسائل مختلفة للتواصل، لديهم عقولٌ بالطبع، ولدينا عقولٌ، لا بُدَّ أنَّ هناك شيئًا مشتركًا، من يدري إلى أي مدى يمكننا التوصُّل إلى تفاهمٍ معهم؟».

قلتُ: «تخرج هذه الأمور عن نطاقنا، إنَّهم مختلفون عنَّا أكثر من أغرب الحيوانات على كوكب الأرض، إنَّهم من طينٍ مختلفٍ، ما فائدة التحدث هكذا؟».

فكَّر كافور. «لا أرى ذلك، ما دام لديهم عقولٌ، سيوجد تشابهٌ ما؛ على الرغم من نشأتهم على كوكبٍ مختلفٍ، بالطبع إذا كانت مسألة غرائز، إذا كنَّا نحن أو هم لسنا أكثر من حيوانات...».

«حسنًا، هل هم كذلك؟ إنَّهم أكثر شبهًا بالنمل بأرجلِهم الخلفية عن البشر، ومن ذا الذي يستطيع التفاهُم بأي شكلٍ مع النمل؟».

«وماذا عن هذه الآلات والملابس! لا، أنا لا أتفق معك يا بدفورد. الفارق كبير...».

«هذه مسألة لا يمكن التغلُّب عليها».

«لا بُدَّ من أنَّ التشابه يحلُّ هذه المسألة. أتذكر أنني قرأتُ ورقة بحثية للبروفيسور الراحل جالتون([10]) حول إمكانية التواصُل بين الكواكب، وللأسف، لم يكن من المحتمل في ذلك الوقت أن تتسم هذه الفكرة بأي فائدة مادية بالنسبة إليَّ، وأخشى أنني لم أعطِها الاهتمام الواجب، في ضوء هذا الوضع، ومع ذلك... الآن، دعني أرى!

«كانت فكرتُه تكمن في البدء بتلك الحقائق الواسعة التي تشكِّل أساسَ كلِّ الوجود العقلي الذي يمكن تصوره، وإرساء مبدأ أساسي بناء على ذلك. ولتكن البداية هي المبادئ العظيمة للهندسة، وقد اقترح تناول بعض افتراضات إقليدس([11]) الرائدة، وإظهار من خلال البناء أنَّ حقيقتها كانت معروفة لنا؛ وذلك ليثبت، على سبيل المثال، تساوي زاويتي قاعدة المثلث متساوي الساقين؛ وأنَّه عند إنتاج ضلعين متساويين، فإنَّ زاويتي الجانب الآخر من القاعدة متساويتان أيضًا؛ أو أنَّ مربع وتر المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين، ومن خلال إظهار معرفتنا بهذه الأشياء، لا بُدَّ أن نُظهِر امتلاكنا لذكاء معقول. والآن، لنفترض أنني ... قد أرسم الشكل الهندسي بإصبعٍ مبللة، أو حتى أتتبعه في الهواء...».

صمتَ فجأة. جلستَ أتأمَّل كلماتِه. انشغل ذهني لبعض الوقت بأملِه الجامح في التواصُل والترجمة مع هذه الكائنات الغريبة، ثم عادت سيطرة ذلك اليأس الغاضب، الذي كان جزءًا من إرهاقي وبؤسي الجسدي. أدركتُ بنشاطٍ جديدٍ مفاجئ حماقتي الشديدة لكلِّ ما فعلته في حياتي. قلتُ: «أنا حمار! أووه، حمار، حمار لا يُوصف... يبدو أنني موجودٌ فقط للقيامِ بأشياء خرقاء، لماذا تركنا الكرة؟ نقفز حولنا لنحقق براءات وامتيازات في فوهات القمر! لو كان خَطَرَ ببالنا فكرة ربط منديل بعصا لتحديد الموقع الذي تركنا فيه الكرة!».

هدأتُ، رغم غضبي.

قال كافور وهو في حالة تأمُّلٍ: «من الواضح أنَّهم أذكياء، يمكن للمرء أن يفترض أشياء معينة. نظرًا لأنَّهم لم يقتلونا على الفور، لا بُدَّ أنَّ لديهم أفكارًا عن الرحمة. الرحمة! بأي حالٍ من الأحوال، ضبط النفس، ربما التواصُل والعلاقات. قد يقابلوننا. وهذه الشقة واللمحات التي شاهدناها عن حارسها. وهذه الأغلال! إنَّها درجة عالية من الذكاء...».

صرختُ: «يا إلهي، فكرتُ مرتين! اندفعتُ تمامًا. كانت المرة الأولى مشوشة ثم تلتها أخرى، إنَّها تُقتي بك، لماذا لم ألتزم بمسرحيتي؟ فهي ما يناسبني، كان هذا عالمي والحياة التي خُلِقتُ من أجلها. كان بإمكاني إنهاء تلك المسرحية، أنا متأكدٌ... إنَّها مسرحية جيدة. كان السيناريو جيدًا. ثم... تصوَّر ذلك! القفز إلى القمر! عمليًّا، لقد ضيعتُ حياتي! تلك المرأة العجوز في النُزُل، بالقرب من كانتربري، كان إحساسُها أفضل».

نظرتُ إلى أعلى، وتوقفتُ في منتصف الجملة، أفسح الظلام مكانًا لذلك الضوء المزرق مرة أخرى، كان الباب يُفتَح، ودخل العديدُ من السيلينايت الصامتين إلى الغرفة، هدأتُ تمامًا، وأنا أحدَّق بوجوههم البشعة.

ثم فجأة تغيَّر شعوري بالغرابة البغيضة إلى الاهتمام. أدركتُ أنَّ السيلينايت الأول والثاني يحملان أوعية؛ وهي عنصرٌ واحدٌ على الأقل مشتركٌ بيننا، يمكن أن تفهمه عقولنا. كانت الأوعية مصنوعة من معدنٍ يبدو مُعتمًا، مثل قيودنا، في هذا الضوء المزرق، وكان كلٌّ منها يحتوي على عددٍ من القطع البيضاء. وهنا اتَّخذ كل الألم والبؤس الغامض، الذي قهرني، شكلَ الجوع، نظرتُ إلى هذه الأوعية بشراهة، وعلى الرغم من تصوري أنَّني في حلم، فقد بدا الأمر بسيطًا عندئذٍ، حيث في نهاية الذراعين التي انخفضت إحداهما نحوي لم أرَ يدين، وإنَّما نوعًا يشبه زعنفة وإبهامًا، مثل نهاية جذع الفيل. كانت الأشياء الموجودة في الوعاء رخوة من حيث ملمسها، ولونها بني مائلٌ إلى البياض، تشبه إلى حدٍّ ما كُتلًا من السوفليه البارد، ورائحتها تماثل قليلًا رائحة الفِطر، وأنا أميل إلى الاعتقاد أنها لحم عجل قمري، فقد سبق أن رأينا عجلًا قمريًّا مقسَّمًا إلى أجزاءٍ.

كانت يداي مقيدتين بالسلاسل بإحكام، لدرجة أنني بالكاد استطعت الوصول إلى الوعاء. وعندما رأوا الجهد الذي بذلته، فكَّ اثنان منهم ببَراعة أحدَ أقفال السلسلة الملتفَّة حول معصمي. شعرتُ بملمس أيديهم ناعمًا وباردًا على بشرتي، ملأتُ فمي بالطعام على الفور. كان ملمس الطعام رخوًا، ربما مثله مثل جميع الهياكل العضوية على سطح القمر. كان مذاقُه يشبه شرائحَ الخبز المحمص، أو حلوى

المارنج، لكنه لم يكن كريهًا بأي حالٍ، ملأت فمي مرتين أخريين. قلتَ: «أريد... الطعام!»، وأنا أقضم قطعة أكبر.

أكلنا مع غيابٍ تامٍّ للوعي الذاتي. تناولنا طعامَنا والآن شربنا، مثل صعاليك في مطعم للفقراء. لم يسبق لي، ولا منذ ذلك الحين، أن كنتُ جائعًا وأكلتُ بهذا النهم. ولولا أنني مررتُ بهذه التجربة، لم أكن لأصدق أبدًا أنني على مسافة ربع مليون ميل من عالَمِنا الذي ننتمي إليه -وفي حيرة مطلقة، وتحيط بي وتراقبني وتلمسني كائناتٌ أكثر بشاعة ولا إنسانية من أسوأ إبداعات الكوابيس- سأكون قادرًا على تناول طعامٍ في ظل نسيان تامٍّ لكل هذه الأشياء.

وقفوا حولنا يراقبوننا، ويُصدِرون بين الفينة والأخرى تغريداتٍ طفيفة؛ أعتقد أنها بدلًا من الكلام. لم أرتجف حتى من لمستهم، وعندما انتهتْ الحماسة الأولى للطعام، لاحظتُ أنَّ كافور، أيضًا، كان يأكل بنفس النهم بلا خجلٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(14)
تجارِب في التواصُل

عندما انتهينا أخيرًا من طعامِنا، أعاد السيلينايت تقييدَ أيدينا بإحكام، وأرخوا السلاسل حول أقدامنا قليلًا لمنحنا حرية محدودة في الحركة. ثم فكُّوا السلاسلَ المحيطة بخَصرينا. كانوا خلال قيامهم بذلك يتعاملون معنا بحرية؛ تكرَّر نزول رأس أحدِهم الغريبة بالقرب من وجهي، أو لمست يده الناعمة رأسي أو رقبتي، لا أتذكر أنني شعرتُ بالخوف آنذاك، أو بنفورٍ من قربهم. أعتقد أنَّ طبيعتَنا الشخصية جعلتنا نتخيَّل وجود رؤوس بشرية تحت أقنعتِهم. بدت بشرته ضاربة إلى الزُرقة، مثل كل شيء آخر، ربما بسبب الضوء، وكان قويًّا ولامعًا مثل جناح الخنفساء، وليس ناعمًا أو رطبًا أو مُشعِرًا مثل الحيوانات الفقارية. توجد على طول قمة رأسه سلسلة منخفضة من الأشواك المائلة إلى البياض، تمتدُّ من الخلف إلى الأمام، فضلًا عن سلسلة أكبر بكثيرٍ تنحني على الجانبين فوق العينين. استخدم السيلينايت الذي فكَّ قيدي فمَه لمساعدة يديه.

قال كافور: «يبدو أنَّهم سيطلقون سراحنا. تذكر أنَّنا على القمر! لا تقم بحركاتٍ مفاجئة!».

«هل ستحاول تجربة تلك الهندسة التي حدثتني عنها؟».

«إذا سنحت لي الفرصة. لكنهم، بالطبع، سيبادرون أولًا».

بقينا سلبيين؛ وبعد أن أنهى السيلينايت ترتيباتهم، تراجعوا مبتعدين عنَّا، ويبدو أنهم كانوا ينظرون إلينا. أقول يبدو، لأنَّ أعينهم كانت في الجانب وليس في الأمام؛ وبالتالي يجد المرء الصعوبة نفسَها في تحديد اتجاه بصرهم، كما في حالة الدجاجة أو السمكة. تحدَّثوا معًا بنبراتِهم الطويلة الرفيعة، التي بدا لي استحالة تقليدها أو تحديدها. فُتِح الباب خلفنا على مصراعيه، ورأيتُ بنظرة خاطفة من فوق كتفي مساحة كبيرة غامضة يقف فيها حشدٌ صغيرٌ من السيلينايت: حشدٌ متنوعٌ غريبٌ.

سألت كافور: «هل يريدوننا أن نقلد تلك الأصوات؟».

أجاب: «لا أعتقد».

«يبدو لي أنهم يحاولون إفهامنا شيئًا ما».

«لا يمكنني فهم إيماءاتهم. هل تلاحظ هذا الشخص المنشغل برأسِه، كرجلٍ يرتدي ياقة غير مريحة؟».

«دعنا نهزُّ رأسينا في اتجاهه».

فعلنا ذلك، ولكن من دون جدوى، فحاولنا تقليد حركاتهم. يبدو أنَّ ذلك أثار اهتمامهم، فقاموا بالحركات نفسها ثانية. وبما أن ذلك لم يؤدِّ إلى شيء، فقد توقفنا عن ذلك، وتوقفوا هم أيضًا وبدؤوا حديثًا فيما بينهم، ثم اقترب أحدُهم، وكان أقصر من الآخرين وأكثر سمنة وفمه واسعٌ، وجلس

القرفصاء فجأة بجانب كافور، ووضع يديه وقدميه في نفس وضعية كافور، ثم قام واقفًا بحركة بارعة.

«كافور»، صرختُ: «إنهم يريدوننا أن نقف!».

قال كافور، وهو يحملق فاغرًا فاهه باندهاشٍ: «هذا صحيحٌ!».

ومع كثيرٍ من الجلبة، لأنَّ أيدينا مربوطة معًا، كافحنا لنقف على أقدامنا. أفسح السيليناية الطريقَ أمامنا، لكِبَر أحجامنا، وبدؤوا يغردون بأصواتٍ أعلى. بمجرد أن وقفنا على أقدامِنا، جاء السيليناية السمين وربت على وجهينا بيديه الشبيهة بالمجسَّات، وسار نحو المدخل المفتوح. كان تصرفه واضحًا تمامًا، فتبعناه. لاحظنا أنَّ أربعة من السيليناية الواقفين عند المدخل أطول كثيرًا من الآخرين، ويرتدون ملابس مماثلة للسيليناية الذين رأيناهم في الفوهة: خوذات مستديرة شائكة، وأغطية أسطوانية لأجسامهم. يحمل كلُّ واحدٍ من الأربعة مهمازًا بمسمارٍ ودرعًا مصنوعًا من نفس المعدن معتم المظهر مثل أوعية الطعام. اقترب منَّا هؤلاء الأربعة، واحدٌ على جانبي كلٍّ منَّا، وخرجنا من غرفتِنا إلى الكهف الذي جاء منه الضوء.

لم نحدد انطباعنا عن ذلك الكهف على الفور؛ فقد انصبَّ اهتمامُنا على حركات السيليناية ومواقفهم حولنا مباشرة، وضرورة السيطرة على حركتنا، خشية أن نصيبهم ونصيب أنفسنا بالذهول والفزع نتيجة أي خطوة زائدة. كان أمامنا الكائن القصير السمين، الذي حلَّ مشكلة طلبهم منَّا أن نقف. كان يتحرك بإيماءاتٍ بدتْ -كلِّها تقريبًا- مفهومة لنا، تدعونا إلى اتباعه. تحوَّل وجهُه الشبيه بالخرطوم نحونا، الواحد تلو الآخر، بسرعة تتم بوضوح عن الاستفهام. أقول إنَّنا انشغلنا لبعض الوقت بهذه الأشياء.

ظهر أخيرًا المكان الهائل الذي شكَّل خلفية حركتنا، أصبح واضحًا أن مصدر الكثير -على الأقل- من ضجة الأصوات التي ملأت آذاننا منذ أن تعافينا من الذهول الناجم عن الفِطر، هو كتلة واسعة من الآلات في حركة نشطة، ولم تكن الأجزاء المتطايرة والدورانية منها مرئية بشكلٍ واضح فوق رؤوس، وبين أجسام، السيليناية الذين يسيرون حولنا. لم تكن شبكة الأصوات التي ملأت الهواء هي الشيء الوحيد الذي يصدر عن تلك التقنية، بل هناك أيضًا ذلك الضوء الأزرق الغريب الذي يشعُّ في المكان بأكملِه. اعتبرنا من الطبيعي أن يُضاء كهفٌ تحت الأرض بإضاءة صناعية، على أنَّني لم أدرك أهميتها -على الرغم من وضوح الحقيقة أمام عيني- إلى أن حلَّ الظلام. ليس بإمكاني تفسير معنى وبنية هذا الجهاز الضخم الذي رأيناه، حيث لا يعرف كلانا ما هو أو كيف يعمل. كانت أعمدة كبيرة من المعدن تندفع، واحدة تِلْوَ الأخرى، إلى أعلى من مركز الجهاز، وتتحرك رؤوسها في ما بدا لي مسارًا على شكل قطعٍ مكافئ، ويتدلَّى من كلٍّ منها ذراعٌ، عندما ترتفع وتصل إلى قمة رحلتها، ويسقط في أسطوانة عموديَّة، مما يُجبرها على الانخفاض إلى أسفل. وتتحرك حولها أشكالٌ صغيرة، بدت مختلفة إلى حدٍّ ما عن الكائنات المحيطة بنا. وعندما يهبط كلُّ ذراعٍ من الأذرع الثلاث المتدلية من الجهاز إلى أسفل، يصدر صوت قعقعة وهديرٌ، وينسكب من قمة الأسطوانة العمودية تلك المادة المتوهجة التي تضيء المكان، ويسيل -مثل الحليب الذي يمتد خارج الوعاء عندما يغلي- ويهبط

كقطراتٍ مضيئة في خزان من الضوء أدناه. كان ضوءًا أزرقَ باردًا، نوعًا من التوهّج الفوسفوري وإن كان أكثر سطوعًا بلا حدودٍ، ثم يتحرك من الخزانات التي سقط فيها إلى قنواتٍ عبر الكهف.

روووو، روووو، روووو، رووو.. صدر صوت الأذرع الكاسحة لهذا الجهاز الغامض، والمادة الخفيفة تهسهس وتنسكب. بدا الجهاز في البداية كبيرًا إلى حدٍّ معقولٍ وقريبًا منَّا، لكنني بعد أن رأيت كيف يبدو حجم السيليناية ضئيلًا جدًّا بالنسبة إليه، أدركتُ مدى ضخامة الكهف والآلة؛ ومن هذا الوضع الهائل، نظرتُ إلى وجوه السيليناية باحترامٍ جديدٍ. توقفتُ، وتوقف كافور، أخذنا نحملق إلى هذا المُحرِّك الهائل.

قلتُ: «هذا شيءٌ مذهلٌ! ماذا يمكن أن يكون؟».

كان وجه كافور، المُغطَّى بالإضاءة الزرقاء، مليئًا بالاحترام تجاه ما رآه من ذكاءٍ. «أنا لا أحلم! بالتأكيد هذه الكائنات... ليس بمقدور البشر صُنع مثل هذه الأشياء! انظر إلى تلك الأذرع، هل تتحرك على قضبان تربط بينها؟».

اتَّخذ السيليناية السمين بضع خطواتٍ بلا مبالاة، ثم عاد ووقف بيننا وبين الآلة الهائلة. تجنبتُ رؤيته لأنَّني خمنتُ بطريقة ما أنَّ فكرته كانت كيفية الإشارة لنا بالمضي قدمًا. سار في الاتجاه الذي يريد منَّا المضي فيه، ثم استدار وعاد، وربت على وجوهِنا لجذب انتباهنا.

نظرنا إلى بعضِنا، أنا وكافور.

قلتُ: «ألا يمكننا أن نُظهر له أنَّنا مهتمون بالجهاز؟».

أجاب كافور: «نعم، سنحاول ذلك». التفتَ إلى دليلِنا وابتسم، وأشار إلى الآلة، ثم أشار إليها مرة أخرى، ثم إلى رأسِه، ثم إلى الآلة. تصور كافور، نتيجة خللٍ ما في تفكيره، أنَّ التحدُّث بلغة مكسورة قد يساعد في فهم إشاراته؛ فقال: «نحوي، انظر... أفكر، أنا، كثيرًا. نعم».

يبدو أنَّ سلوكَه أوقف مجموعة السيليناية للحظة، بشأن رغبتهم في مواصلة تقدمنا. نظروا لبعضهم، وتحركت رؤوسهم الغريبة، وسمعنا أصوات زقزقاتهم سريعة ومتدفقة. ثم قام أحدهم -وهو مخلوقٌ نحيلٌ طويل القامة، يرتدي نوعًا من عباءة مُضافة إلى لفافة الساق التي يرتديها الآخرون- ولفَّ جذعَه الذي يشبه جذع الفيل ليمدَّ يده حول خصر كافور، وسحبه بلطفٍ ليتبع دليلَنا، الذي تحرك مرة أخرى قُدُمًا، قاوم كافور: «قد نبدأ في شرح أنفسنا الآن. ربما يعتقدون أنَّنا حيواناتٌ جديدة، نوعٌ جديدٌ من عجول القمر، ربما! ومن المهم للغاية أن نُظهِر اهتمامًا ذكيًّا منذ البداية».

بدأ كافور يهزُّ رأسَه بعنفٍ، قائلًا: «لا، لا، أنا.. لن أذهب.. دقيقة واحدة. انظر، أنا، إلى الآلة».

أخذ السيليناية يتناقشون ثانية، فسألتُ كافور: «ألا توجد بعض النقاط الهندسية التي يمكنك طرحها تتعلق بهذا الموضوع؟».

بدأ يقول: «ربما القطع المكافئ...».

صرخ بصوتٍ عالٍ، وقفز لستة أقدامٍ أو أكثر!

وخزه أحد السيلينايت الأربعة المسلحين بمهمازٍ!

استدرتُ إلى حاملِ المهماز خلفي بلفتة تهديد سريعة؛ فبدأ في التراجع. من الواضح أنَّ هذا الموقف، فضلًا عن مفاجأة صراخ كافور وقفزته، أذهل جميع السيلينايت؛ تراجعوا بسرعة، وهم يواجهوننا. وفي إحدى تلك اللحظات التي يبدو أنَّها تستمرُّ إلى الأبد، وقفنا في احتجاجٍ غاضبٍ في ظل نصف دائرة متناثرة حولنا من هذه الكائنات غير البشرية.

قال كافور بصوتٍ عالٍ: «لقد وخزني!».

أجبته: «نعم، رأيته».

قلتُ للسيلينايت: «اللعنة! لن نتحمَّل ذلك! بحق السماء، لماذا تأخذوننا؟».

نظرتُ بسرعة يمينًا ويسارًا، رأيتُ على بُعدٍ -عبر المساحة الزرقاء الهائلة للكهف- عددًا آخر من السيلينايت يركضون نحونا، كانت أجسامهم عريضة ونحيلة، ورأس أحدهم أكبر من رؤوس الآخرين. اتَّسع الكهف وانخفض، وانحسر في كلِّ اتجاه نحو الظلام، أتذكر أنَّ سقفَه بدا منتفخًا لأسفل، كأنَّ ثِقل الصخور الهائل يسجننا. لا سبيل للخروج منه، ما من مخرجٍ، في الأعلى والأسفل، في كل اتجاه، كان المجهول، وتواجِهنا تلك المخلوقات غير البشرية بالمهاميز والإيماءات، ونحن رجُلان بلا دعمٍ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(15)

الجسر الدائري

استمرَّت هذه الوقفة العدائية لمجرد لحظة. أعتقد أنَّنا، وكذا السيلينايت، أخذنا نفكر بسرعة شديدة. كان انطباعي الواضح أنَّنا بلا دعم يسندنا، وسوف يحاصروننا ويقتلوننا. كانت حماقتنا الشديدة، التي أدَّت إلى وجودنا هنا، تلوح في وجهي على شكل توبيخٍ أسود هائلٍ: لماذا انطلقتُ في هذه الرحلة المجنونة غير البشرية؟

جاء كافور إلى جانبي، ووضع يدَه على ذراعي. كان وجهُه الشاحب المرعوب مروعًا في الضوء الأزرق.

قال: «لا يمكننا أن نفعل شيئًا، إنَّها غلطة، وهم لا يفهمون. يجب أن نذهب في الاتجاه الذي يريدونه».

نظرتُ إليه، ثم إلى السيلينايت الجُدد الذين يأتون لمساعدة زملائهم. «إذا كانت يديّ حرة...».

قال لاهثًا: «ما من فائدة».

«لا».

«سنذهب».

استدار وقاد الطريق في الاتجاه الذي أشاروا لنا نحوه.

تبعته، محاولًا أن أبدو هادئًا، وأنا أشعر بثِقل السلاسل حول معصمي. دمي كان يغلي. لم ألحظ أيَّ شيء آخر في ذلك الكهف، على الرغم من أنَّ الوقت الذي استغرقناه لعبوره بدا طويلًا، أو ربما نسيتُ أيَّ شيء رأيته. أعتقد أنَّ أفكاري تركَّزت على سلاسل قيودي وعلى السيلَينايت، وبخاصة على أولئك الذين يرتدون الخوذات ويمسكون بالمهاميز. ساروا بداية في محاذاتِنا وعلى مسافة معقولة، ثم لحق بهم ثلاثة آخرون، واقتربوا إلى أن أصبحوا على مسافة أذرع مرة أخرى. جفلتُ مثل حصانٍ مهزوم عندما اقتربوا منَّا. سار أقصر سيلينايت وأكثرهم سِمنة على يميننا في البداية، ثم جاء أمامنا مرةً أخرى.

لقد التصقتْ صورة هذا التجمُّع في ذهني: أرى أمامي مباشرة الجزءَ الخلفي من رأس كافور المنخفضة وكتفيه المتدليتين في حزنٍ؛ ومظهر مرشدنا المحملق وهو يهتز على الدوام، وحاملي المهاميز على الجانبين، يقظين، وبفمٍ مفتوحٍ- صورة زرقاء أحادية اللون. على أنني أتذكر شيئًا آخر، إضافة إلى الجانب الشخصي البحتَ، وهو ظهور قناة ما تمتدُّ عبر أرضية الكهف، وتمضي على طول مسار الصخور التي اتبعناها. امتلأت القناة بالأشياء الزرقاء الزاهية المضيئة نفسها، التي تتدفق من الآلة الهائلة. مشيتُ بالقرب منه، وأستطيع أن أشهد أنَّه لا يشعُّ أيَّ حرارة، كان مشرقًا بسطوعٍ، ومع ذلك لم يكن أكثر دفئًا ولا برودة من أي شيءٍ آخر في الكهف.

كلانج، كلانج، كلانج - مررنا مباشرة أسفل روافع هائلة لآلة ضخمة أخرى، وصلنا أخيرًا إلى نفقٍ واسعٍ، وكنَّا نسمع حتى أصوات أقدامِنا الحافية. لم يكن النفق مضاءً إلَّا بالخيط الأزرق المتقطر على يميننا. صنعتْ الظلال صورًا عملاقة ساخرة من أشكالِنا وأشكال السيليناية على جدار النفق وسقفِه غير المنتظمين. تألَّقت بين الفينة والأخرى بلوراتٌ كالجواهر في جدران النفق، كما أخذ النفق يتسع من حينٍ لآخر ليصبح كهفًا للهوابط، أو يتشعب إلى فروعٍ تختفي في الظلام.

يبدو أنَّنا مشينا في ذلك النفق لفترة طويلة. تدفَّق الضوء بصوتِ قطراتٍ هادئة، وتسبب وقعُ أقدامنا وأصداؤها في صوتٍ غيرِ منتظمٍ. تركز ذهني على سلاسل قيودي: «إذا نجحتُ في التملُّص من إحداها، ثم لففتها هكذا...».

إذا حاولتُ القيام بذلك تدريجيًّا، هل سيلاحظون أنني أحاول إخراج معصمي من لفَّة القيد الأكثر مرونة؟ إذا لاحظوا، ماذا سيفعلون؟

قال كافور: «بدفورد، الطريق يهبط، ويستمر في الهبوط».

أخرجتني ملاحظته من الهموم التي تشغلني.

تراجع ليقترب مني، وقال: «إذا أرادوا قتلَنا، فما من سببٍ يمنعهم من ذلك».

وافقته: «لا، ما من سببٍ يمنعهم. هذا صحيحٌ».

قال: «إنَّهم لا يفهموننا، يعتقدون أنَّنا مجرد حيواناتٍ غريبة، ربما نوعٌ من عجول القمر، ولن يبدؤوا في التفكير بأنَّنا نمتلك عقولًا، إلَّا عندما يراقبوننا بشكلٍ أفضل...».

قلتُ: «عندما تتبع تلك المسائل الهندسية».

«ربما يكون الأمر كذلك».

مشينا لفترة.

قال كافور: «قد تنتمي هذه المجموعة من السيليناية إلى طبقة أدنى».

«الحمقى الشياطين!»، قلتُ بشراسة، وأنا ألقي نظرة خاطفة على وجوههم المثيرة للغضب.

«وإذا تحملنا ما يفعلونه بنا...».

قلتُ: «علينا أن نتحمَّل».

«قد يوجد آخرون أقل غباءً، وهذه مجرد الحدود الخارجية لعالَمهم، لا بُدَّ أنَّه يهبط ويهبط، كهف، ثم ممرٌّ، ثم نفقٌ، وأخيرًا إلى البحر - مئات الأميال إلى أسفل».

جعلتني كلماتُه أفكر في مسافة ميلٍ أو نحو ذلك من الصخور والأنفاق، التي قد توجد فوق رؤوسِنا بالفعل. كان مثل ثِقلٍ يهبط على كتفي. قلتُ: «بعيدًا عن الشمس والهواء، حتى المنجم الذي يبلغ عمقه نصف ميلٍ يكون خانقًا».

«إنّه ليس كذلك على أي حالٍ، من المحتمل – توجد تهوية! سوف يهبُّ الهواء من الجانب المظلِم للقمر إلى الجانب المُضاء بنور الشمس، وسوف يُغذي حمض الكربونيك تلك النباتات. حتى هذا النفق، على سبيل المثال، يضمُّ قدرًا من النسيم، يا لَه من عالَم! الشيء المثير للاهتمام عن جدٍّ هو ذلك الشعاع وتلك الآلات....».

قلتُ: «والمهاميز، لا تنسَ المهاميز!».

سار أمامي قليلًا لفترة.

قال: «حتى هذا المهماز».

«ماذا عنه؟».

«كنتُ غاضبًا في ذلك الوقت. ولكن... ربما كان من الضروري أن نواصل السير، لديهم بشرة مختلفة، وربما أعصابٌ مختلفة؛ قد لا يفهمون اعتراضَنا؛ مثل كائنٍ من المريخ قد لا يحب عادتنا في الدفع بالكوع على كوكب الأرض».

«من الأفضل أن يكونوا حذرين في طريقة دفعي».

«وكل تلك الهندسة، إنَّ طريقتهم هي وسيلة للفهم أيضًا. إنَّهم يبدؤون بعناصر الحياة وليس بالفكر، الطعام، الإجبار، الألم. يبدؤون بالأساسيات».

قلتُ: «ما من شكٍّ في ذلك».

ومضى يتحدَّث عن العالم الهائل والرائع الذي نؤخذ إليه. أدركتُ ببطءٍ من نبرتِه أنَّه حتى الآن ليس في حالة يأسٍ مطلقٍ من احتمال الخوض أكثر في هذا الجُحر الكوكبي غير البشري. تركَّز عقلُه على الآلات والاختراع، إلى حدِّ استبعاد ألف من الأشياء المظلمة التي تحيط بي، لم يكن يريد الاستفادة من هذه الأشياء، بل أراد ببساطة معرفتَها.

وقال: «على أي حالٍ، هذه مناسبة هائلة، إنَّه لقاءٌ بين عالَمين! ماذا سنرى؟ فكر فيما يوجد أسفلنا هنا».

قلتُ: «لن نرى الكثيرَ إذا لم يكن الضوء أفضل».

«هذه مجرد القشرة الخارجية. في أسفل، على هذا المقياس، سيوجد كلُّ شيء. هل لاحظتَ اختلاف كلٍّ منهم عن الآخر؟ إنَّها القصة التي سنأخذها معنا!».

قلتُ: «إنَّ أيَّ نوعٍ نادرٍ من الحيوانات قد يُريح نفسه بهذه الطريقة، وهم يجلبونه إلى حديقة الحيوان... ولا يلي ذلك أن يعرضوا علينا كلَّ هذه الأشياء».

قال كافور: «عندما يجدون عقولنا منطقية، سيرغبون في التعرُّف على كوكب الأرض، حتى لو لم تكن مشاعرهم سخية، سوف يرغبون في المعرفة من أجل التعلُّم، والتعرُّف على الأشياء التي يجب عليهم أن يعرفوها! الأشياء غير المتوقعة!».

ومضى في تكهُّنه حول إمكانية معرفتهم أشياءَ لم يكن يأمل في تعلمها على كوكب الأرض، وواصل تكهناته على هذا النحو، وهو لا يزال يعاني من جرحٍ ناتجٍ عن ذلك المهماز! نسيتُ الكثيرَ مما قاله؛ فقد تركز انتباهي على النفق الذي كنَّا نسير فيه، وأنَّه يأخذ في الاتساع. بدا لنا، من شعورِنا بالهواء، أنَّنا سنخرج إلى مساحة شاسعة، لكنَّنا لم نستطع تحديدَ مدى اتساعها لأنَّها لم تكن مُضاءة. تحرَّك تيارُ الضوء الصغير في خيطٍ متضائلٍ، واختفى على بُعد، كما اختفت تمامًا الآن الجدران الصخرية على الجانبين. لم يكن هناك شيءٌ يمكن رؤيته سوى الطريق أمامنا، وقطرات النهر المتسارع من الوميض الفوسفوري الأزرق. سار كافور والسيلينايت مرشدنا أمامي، كانت جوانب أرجلهم ورؤوسهم التي في اتجاه ذلك النهر واضحة وزرقاء زاهية، أمَّا الجوانب المظلمة -بعد أن كفَّ الآن انعكاس جدار النفق عن إضاءتها- فقد اندمجت بشكلٍ لا يمكن تمييزه في الظلام.

وسرعان ما أدركتُ أنَّنا نقترب من نوعٍ ما من الانحدار؛ ذلك أنَّ التيار الأزرق الصغير انخفض فجأة بعيدًا عن الأنظار.

وبدا، في لحظة أخرى، أنَّنا وصلنا إلى الحافة. تردَّد التيار الساطع متعرجًا، ثم اندفع. سقط إلى عمقٍ ضاع فيه صوتُ هبوطِه تمامًا بالنسبة إلينا. وفي مسافة لا نهائية أدناه، رأينا توهجًا ضاربًا إلى الزُرقة، نوعًا من الضباب الأزرق. أصبح الظلام الذي سقط منه التيار خاليًا تمامًا ولونه أسود بالكامل، باستثناء شيء مثل لوحٍ خشبيٍّ يبرز من حافة المنحدر ويمتدُّ إلى أن يتلاشى ويختفي تمامًا، تصاعد هواءٌ دافئ من الخليج.

وقفتُ أنا وكافور للحظة بالقرب من الحافة، بقدر ما تجرأنا، نطلُّ على العُمق الأزرق. وعندئذٍ أخذ مرشدُنا يشدُّ ذراعي.

تركني بعد ذلك، وسار إلى نهاية ذلك اللوح وداس عليه وهو ينظر إلى الوراء، وعندما أدرك أننا شاهدناه، استدار وواصل السير على طول اللوح بيقينٍ، كمن يسير على أرضٍ ثابتة. كان واضحًا وهيئته مميَّزة للحظة، ثم اتخذتْ لونًا ضبابيًّا أزرقَ، وبعدها اختفى في ظلامٍ غامضٍ، تبيَّنت شكلًا غامضًا يلوح في الأفق وسط السواد.

توقفنا. قال كافور: «بالتأكيد!...».

سار سيلينايت آخر بضعَ خطواتٍ على اللوح، ثم التفتَ ونظر نحونا دون اكتراثٍ. وقف الآخرون على أهبة الاستعداد للمتابعة بعدنا. ظهرت ثانية هيئة مرشدنا؛ حيث عاد ليرى سبب عدم تقدمنا.

سألتُ: «ماذا يوجد هناك؟».

«لا أرى».

قلتُ: «لا يمكننا عبور هذا اللوح، بأي ثمنٍ».

قال كافور: «لا يمكنني اتخاذ ثلاث خطوات عليه، حتى لو كانت يداي غير مقيدتين».

نظرنا إلى وجوه بعضنا، التي يرتسم عليها شحوب الذُعر.

قال كافور: «إنهم لا يستطيعون معرفة إصابة المرء بالدوار!».

«من المستحيل أن نسير على ذلك اللوح».

«لا أعتقد أنهم يرون مثلنا، فقد راقبتهم. وأتساءل ما إذا كانوا يعرفون أن هذا ببساطة هو السواد بالنسبة لنا، كيف يمكننا أن نجعلهم يفهمون؟».

«على أي حالٍ، لا بُدَّ أن نجعلهم يفهمون».

أعتقد أنَّنا قلنا هذه الأشياء بشبه أملٍ غامضٍ أن يفهم السيليناية بطريقة ما. كنتُ أعرف بوضوحٍ تامٍّ أنَّ كلَّ المطلوب هو تفسير، على أنَّني عندما رأيتُ وجوههم أدركتُ أنَّ التفسيرَ مستحيلٌ، وهنا تحديدًا لن يسدَّ تشابُهُنا فجوة خلافاتنا. حسنًا، لن أمشي على اللوح بأي حالٍ. أخرجتُ معصمي بسرعة كبيرة من لفة السلسلة التي كانت فضفاضة، ثم بدأتُ في تحريك معصمي في اتجاهين متعاكسين. كنتُ أقف بالقرب من الجسر، وعندما حركتُ معصمي، أمسك بي اثنان من السيليناية وسحبوني بلطفٍ نحوه.

هززتُ رأسي بعنفٍ، قائلًا: «لن أذهب، لا فائدة، أنتم لا تفهمون».

أجبرني سيليناية آخر على التقدُّم للأمام.

قال كافور: «خطرتْ لي فكرة»، لكني أعرف أفكارَه.

صحتُ مخاطبًا السيليناية: «انظر هنا! توقف هنا! كلُّ شيءٍ جيد بالنسبة إليك...».

قفزتُ واقفًا على كعبي، وانفجرتُ في توجيه لعناتٍ؛ لأن أحدَ السيليناية المسلحين طعنني من الخلف بمهمازِه.

حرَّرتُ معصمي من المجسَّات الصغيرة التي تعيقها، واستدرتُ نحو حامل المهماز صائحًا: «عليكَ اللعنة! لقد سبق وحذرتُك. من أي مادة تعتقد أنَّني مصنوعٌ لتغزني بهذا المهماز؟ إذا لمستني مرة أخرى...».

وكإجابة، وخزني على الفور.

سمعتُ صوت كافور في حالة من الذعر والتوسُّل. كنتُ أعتقد، حتى ذلك الحين، أنه يريد المساومة مع هذه المخلوقات. صرخ: «أقول، يا بدفورد، إنني أعرف طريقة!». لكن وخزة الطعنة الثانية أطلقت احتياطي الطاقة المكبوت داخلي، انقطع على الفور رباط سلسلة المعصم، وانقطعت معه جميع الاعتبارات التي كانت تمنعنا من المقاومة ونحن في أيدي هذه المخلوقات القمرية. أصابني، لثانية على الأقل، جنونٌ من الخوف والغضب،؛ ولم أفكر في العواقب. لكمتُ مباشرة وجه المخلوق الذي يحمل المهماز، وكانت السلسلة ملتوية حول قبضتي.

وهنا حدثت مفاجأة أخرى من تلك المفاجآت الوحشية التي يمتلئ بها عالم القمر.

اخترقتْ يدي المُدرعة بالسلسلة وجهه مباشرة، تحطم مثل... مثل نوعٍ من الحلوى الطرية التي يوجد سائلٌ داخلها! تحطَّم على الفور! لقد اقتحم المكان مباشرة! سُحِق وتناثر. بدا الأمر كأنَّني ضربت

فِطرًا رطبًا. أخذ الجسم الهش يدور مبتعدًا نحو اثنتي عشرة ياردة، ثم سقط في وهنٍ. أصابني ذهول. لم أصدق أنَّ أيَّ كائنٍ حي يمكن أن يتسم بهذه الهشاشة، كان يمكنني للحظة تصديقُ أنَّ الأمرَ برمته مجرد حلمٍ.

ثم أصبح الأمرُ حقيقيًّا ووشيكَ الحدوث مرة أخرى. لم يفعل كافور، أو السيليناية الآخرون، أي شيء من لحظة استدارتي إلى لحظة وقوع السيليناية الميت واصطدامه بالأرض، تراجع الجميعُ بعيدًا عنَّا، حذرين. يبدو أنَّ هذا التوقُّف استمرَّ لثانية واحدة على الأقل، بعد سقوط السيليناية. لا بُدَّ من أنَّ كلَّ فردٍ كان يحاول استيعاب الأمر. أتذكر أنني وقفتُ وذراعي للخلف قليلًا، في محاولة للاستيعاب أيضًا، «ماذا بعد؟»، فكرتُ، «ماذا بعد؟». ثم في لحظة، كان كلُّ فردٍ يتحرك!

تصوَّرتُ أنَّ علينا التخلُّص من قيودِنا، وعلينا قبلها أن نهزم هؤلاء السيلينايت. واجهتُ ثلاثة من حاملي المهاميز، وعلى الفور ألقى أحدُهم مهمازه نحوي، طار فوق رأسي مُحدِثًا صوتَ حفيفٍ، وأعتقد أنه واصل طيرانه إلى الهاوية خلفنا.

وبينما كان المهماز يحلق فوقي، قفزتُ نحو السيليناية بكلِّ ما أوتيتُ من قوة، استدار السيليناية ليركض وأنا أقفز، فأسقطتُه أرضًا، وألقيتُ نفسي فوقه مباشرة، فانزلقتُ على جسدِه المحطَّم ووقعتُ، بدا يتلوَّى تحت قدمي.

جلستُ، ورأيتُ ظهورهم الزرقاء تنحسر في الظلام، استعنتُ بكلِّ قوتي لفكِّ وصلة السلسلة التي تلتفُّ حول الكاحلين، ونهضتُ واقفًا والسلسلة في يدي. طار مهمازٌ آخر كالرمح، وصوت صفيره في اتجاهي، فاندفعتُ نحو الظلام الذي جاء منه. استدرتُ مرة أخرى نحو كافور، حيث لا يزال يقف في ضوء النهر الصغير بالقرب من الخليج، مشغولًا بقيد معصميه، ويثرثر في الوقت نفسِه حول فكرته.

صحتُ: «هيَّا!».

أجاب: «يداي!».

وبعد أن أدرك أنني لا أجرؤ على الركض نحوه، خشية أن تحملني خطواتي غير المحسوبة إلى الحافة، جاء نحوي، وهو يمد يديه.

أمسكتُ بسلاسله في الحال لأفكها.

قال لاهثًا: «أين هم؟».

«هربوا، لكنهم سيعودون. إنهم يلقون بأشياء! في أي طريقٍ نذهب؟».

«مع الضوء، إلى ذلك النفق، هه؟».

قلتُ: «نعم»، وكانت يداه حرة.

انخفضتُ على ركبتيّ، وأخذتُ أفكُّ قيودَ كاحلِه. جاء شيءٌ ضرب بعنفٍ، لا أعرف ما هو، ونثر حولنا قطراتٍ من النهر الصغير المزرق. بدأ عن بُعد على يميننا صوتُ صفيرٍ عالي النبرة.

فككتَ السلسلة من قدميه ووضعتَها في يده. قلتَ: «اضرب بهذه!»؛ وانطلقتَ، دون انتظار جوابٍ، في قفزاتٍ كبيرة على طول الطريق الذي جئنا منه. تملَّكني شعورٌ سيئ أنَّ هذه الأشياء يمكن أن تقفز من الظلام على ظهري، سمعتُ أثرَ قفزاتِه خلفي.

ركضنا في خطواتٍ واسعة. لكنَّكَ يجب أن تدرك أنَّ هذا الركض يختلف تمامًا عن أي ركضٍ على كوكب الأرض، فعندما يقفز المرء على كوكب الأرض، فإنه يهبط على الفور بعد ثانية، أما على القمر، وبسبب ضعف قوة الجاذبية، ينطلق المرء في الهواء لعدة ثوانٍ قبل أن يهبط. وعلى الرغم من تسرعنا الشديد، فقد احتجنا إلى التوقُّف لفتراتٍ طويلة؛ توقفنا نحو سبع أو ثماني مرات. «خطوة»، وأجدني ارتفعتُ لأعلى! مرَّت في ذهني جميعُ أنواع الأسئلة: «أين السيلينايت؟ ماذا سيفعلون؟ هل سنصل إلى ذلك النفق؟ هل كافور خلفي بمسافة كبيرة؟ هل من المحتمل أن يمسكوا به؟». ثم أقفز، أخطو، ثم أتوقف ثانية استعدادًا لخطوة أخرى.

رأيتُ سيلينايت يركض أمامي، وتتحرك ساقاه تمامًا مثل رجلٍ يسير على كوكب الأرض. رأيته يلقي نظرة من فوق كتفه، وسمعته يصيح وهو يركض مبتعدًا عن طريقي ومتجهًا نحو الظلام. أعتقد أنه كان مرشدنا، لكنني لستُ على يقينٍ. وبعد خطوة أخرى واسعة، ظهرت الجدران الصخرية على الجانبين. وبعد خطوتين، أصبحتُ في النفق، وخففتُ من وتيرتي بما يتناسب وسقفه المنخفض. توجَّهتُ إلى منعطفٍ، ثم توقفتُ ونظرتُ خلفي، سمعتُ وقع خطوات كافور -بلنج، بلنج، بلنج- ثم ظهر أخيرًا كافور وهو ينثر قطرات تيار الضوء الأزرق في كل خطوة. وصل أخيرًا وأمسك بي. وقفنا ممسكين ببعضنا. لقد تخلَّصنا، للحظة على الأقل، من خاطفينا، وأصبحنا بمفردنا.

كان كلانا مقطوعَ النفس تمامًا. تحدثنا ونحن نلهث، وجملنا متقطعة.

قال كافور لاهثًا: «لقد أفسدتَ كلَّ شيء!». صحتُ: «هُراء. كان هذا أو الموت!».

«ماذا يجب أن نفعل؟».

«نختبئ».

«كيف يمكننا الاختباء؟».

«المكان مظلمٌ بما يكفي».

«ولكن أين؟».

«فوق أحد هذه الكهوف الجانبية».

«وبعد ذلك؟».

«نفكر».

«معك حق، هيا».

مشينا إلى أن وصلنا إلى كهفٍ مُظلم مُشع، كان كافور في المقدمة، تردّد، ثم اختار فتحة سوداء بدت واعدة بمخبأ جيدٍ، ذهب نحوها واستدَار.

قال: «إنها مظلمة».

«سيقانك وأقدامك سوف تضيء لنا؛ أنتَ مبتلٌّ بتلك المادة المضيئة».

«ولكن...».

سمعنا جلبة من الأصوات، لا سيما صوت مثل رنين الجرس، تتقدم عبر النفق الرئيس، كانت توحي بشكلٍ فظيع بمطاردة عنيفة. صنعنا على الفور مزلاجًا للجانب غير المُضاء من الكهف. وبينما كنَّا نركض، كأن الطريق مضاءً بالإشعاع الصادر من ساقي كافور. قلتُ لاهثًا: «من حسن الحظ أنهم خلعوا أحذيتنا، وإلا لامتلأ هذا المكان بالقعقعة». أسرعنا، مع اتخاذ خطواتٍ صغيرة قدر الإمكان لتجنُّب الاصطدام بسقف الكهف. بدا بعد فترة أننا ابتعدنا عن الضجة؛ حيث أصبحت مكتومة، وتضاءلت، ثم ابتعدتْ تمامًا ولم تعُد مسموعة.

توقفتُ ونظرتُ إلى الوراء. سمعتُ صوت أقدام كافور ينحسر، ثم توقف أيضًا. هَمَس: «بدفورد، يوجد نوعٌ من الضوء أمامنا».

نظرتُ، ولم أتمكَّن في البداية من رؤية أي شيء، ثم رأيت رأسَه وكتفيه بشكلٍ باهتٍ في مواجهة ظلام خافتٍ. رأيتُ أيضًا أنَّ هذا الظلام الخفيف لم يكن أزرق اللون، كما كان كل الضوء الآخر داخل القمرً، لكنه رماديٌّ باهتٌ أو أبيض شاحبٌ، لونٌ مبهمٌ، لون ضوء النهار. سرعان ما لاحظ كافور هذا الفارق، أو ربما قبل أن ألاحظه. وأعتقد أيضًا أنه ملأه بالأمل الجامح نفسه.

«بدفورد»، هَمَسَ، وارتجفَ صوتُه، «هذا الضوء... هل من الممكن...».

لم يجرؤ على قول الشيء الذي كان يأمله، وقف لهنيهة، وفجأة، عرفتُ من صوت قدميه أنه يخطو نحو ذلك الضوء الشاحب، تبعته وقلبي يخفق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(16)

اختلاف وجهات النظر

كان الضوء يزداد قوة مع تقدُّمنا، وأصبح في وقتٍ قصيرٍ بمثل قوة الوميض الفوسفوري على ساقي كافور. كان النفق يتوسع إلى كهفٍ، ويقع هذا الضوء الجديد في أقصى نهايته، رأيتُ شيئًا جعل أمالي تقفز.

قلتُ: «كافور، إنه يأتي من فوق! أنا على يقين بأنه يأتي من فوق!».

لم يُجِب، لكنه أسرع.

كان، بلا جدالٍ، ضوءًا رماديًّا، ضوءًا فضيًّا.

كنَّا تحته في اللحظة التالية، كان يخرج من شقٍّ في جدران الكهف. وبينما كنت أحملق، سقطتْ قطرة ماء على وجهي. وقفتُ جانبًا، ثم سقطتْ قطرة أخرى مسموعة على الأرض الصخرية.

قلتُ: «كافور، إذا رفع أحدُنا الآخر، يمكنه الوصول إلى هذا الشق!».

قال: «سأرفعك»، ورفعني في الحال كما لو كنتُ طفلًا.

أدخلتُ ذراعي في الشق، لمستْ أطراف أصابعي حافة صغيرة يمكن الإمساك بها. رأيتُ الضوء الأبيض، وكان أكثر إشراقًا بكثيرٍ. سحبتُ نفسي إلى أعلى بإصبعين وجهدٍ لا يُذكر، على الرغم من أنَّ وزني على كوكب الأرض يزيد على سبعين كيلو جرامًا. وصلتُ إلى زاوية أعلى من الصخور، وتمكَّنتُ من وضع قدمي على الحافة الضيقة. وقفتُ وأبعدتُ الصخور بأصابعي؛ فاتَّسع الشقُّ إلى أعلى. قلتُ لكافور: «إنَّه قابلٌ للتسلُّق، هل يمكنك القفز والإمساك بيدي، إذا أنزلتها لك؟».

حشرتُ نفسي بين جانبي الشق، ووضعتُ ركبتي وقدمي على الحافة، ثم مددتُ يدي. لم أتمكَّن من رؤية كافور، لكنني سمعتُ حفيفَ حركته وهو يستعد للقفز. ثم قفز وتعلَّق بذراعي، ولم يكن وزنه يزيد على وزن قطة! سحبته إلى أعلى حتى وضع يده على الحافة وترك يدي.

قلتُ: «يا إلهي! يمكن لأي شخص أن يتسلق بسهولة جبال القمر»؛ بدأتُ استعدُّ جديًّا للتسلُّق. تسلقتُ بثباتٍ لبضع دقائق، ثم نظرتُ للأعلى مرة أخرى، كان الشق يفتح في اتجاه الخارج، والضوء يصبح أكثر سطوعًا. وإنما...

لم يكن ضوء النهار.

تمكَّنتُ في لحظة تالية من رؤية المشهد، وما رأيته كان يمكن أن يجعلني أضرب رأسي على الصخور من خيبة الأمل. رأيتُ أمامي مجردَ مساحة مفتوحة منحدرة بغير انتظامٍ، وأرضيتها المائلة مُغطاة في جميع أنحائها بغابة من الفِطر الصغير على شكل هراوات، يلمع كلٌّ منها متألقًا بضوءٍ فضي وردي. وقفتُ للحظة أحدق بتألُّقها الجميل، ثم قفزت إلى الأمام وإلى أعلى بينها. اقتلعتُ نصف دزينة وألقيتُ بها على الصخور، ثم جلستُ أضحك بمرارة. ظهر وجه كافور المتورد.

قلتَ: «إنّه الوميض الفوسفوري مرة أخرى! لا حاجة للإسراع، اجلس واسترح كأنّك في بيتك». وبينما كان يثرثر حول خيبة أملنا، بدأتُ في إلقاء المزيد من هذه النبتات النامية في الشق.

قال: «تصورتُ أنه ضوء النهار».

قلتُ صائحًا: «ضوء النهار! طلوع الفجر، غروب الشمس، السُحُب، والسماء العاصفة! هل سنرى مثل هذه الأشياء مرة أخرى؟».

وبينما كنتُ أتحدَّث، بدتْ صورة صغيرة لعالمنا الأرضي كأنَّها ترتفع أمامي؛ صورة مشرقة وصغيرة وواضحة، مثل خلفية إحدى الصور الإيطالية القديمة. «السماء التي تتغير، والبحر الذي يتغير، والتلال والأشجار الخضراء، والبلدات والمدن، تشرق في الشمس. فكّر، يا كافور، في سقفٍ رطبٍ عند غروب الشمس، فكّر في نوافذ منزل يقع في اتجاه الغرب!». لم يرد.

نحن هنا نختبئ في هذا العالَم الوحشي الذي ليس عالَمًا، في أعماقه السوداء البغيضة كالحبر، ويوجد في الخارج ذلك نهارٌ حارٌّ وموت سكون الليل، وكل تلك الأشياء التي تطاردنا الآن، مخلوقات وحشية من الجلد، مخلوقات من الحشرات، تخرج من كابوسٍ! على كلٍّ، هم على حق! فنحن هنا نحطِّمهم ونثير الاضطراب في عالَمهم! كل ما نعرفه أن الكوكب بأكمله يطاردنا بالفعل. قد نسمعهم بعد دقيقة واحدة يتصايحون وأجراسهم تدق، ماذا سنفعل؟ إلى أين سنذهب؟ نحن هنا في راحة مثل ثعابين جمراك([12]) الطليقة في فيلا في سوربيتون([13])!».

قال كافور: «إنه خطؤك».

صرختُ: «خطئي! يا إلهي!».

«كانت لديَّ فكرة!».

«اللعنة على أفكارك!».

«إذا رفضنا التحرُّك...».

«في وجود تلك المهاميز؟».

«نعم. كانوا سيحملوننا!».

«فوق ذلك الجسر؟».

«نعم. لا بُدَّ أنهم كانوا سيحملوننا».

«أفضِّل أن تحملني ذبابة عبر السقف».

«يا إلهي!».

استأنفتُ تدميري للفِطر، ثم فجأة رأيتُ شيئًا أدهشني حينذاك، قلتُ: «كافور، هذه السلاسل مصنوعة من الذهب!».

كان يفكر باهتمام، ويداه على وجنتيه. أدار رأسَه ببطءٍ ونظر نحوي. كررتَ كلماتي مشيرًا إلى السلسلة الملتفَّة حوَل يده اليمنى، قال: «نعم، إنها من الذهب». فقد وجهه اهتمامه العابر حتى وهو ينظر. تردَّد للحظة، ثم استمرَّ في تأمُّلاته التي قطعتها. جلستُ لفترة متحيرًا لأنني لم ألحظ الذهب إلا الآن فقط، إلى أن تذكرت الضوء الأزرق الذي كان يحيط بنا، الذي حجب أيَّ لون للمعدن. وانطلاقًا من هذا الاكتشاف، بدأتُ أيضًا في سلسلة من التفكير، حملتني بعيدًا. نسيتُ أنَّني كنتُ أتساءل عن سبب وجودنا داخل القمر. الذهب...

كان كافور مَن تحدث أولًا: «يبدو لي أن هناك طريقين مفتوحين أمامنا».

«حسنًا؟».

«إما أن نحاول شقَّ طريقنا إلى الخارج، إلى سطح القمر، مرة أخرى، ونقاتل إذا لزم الأمر، ثم نبحث عن الكرة حتى نجدها أو يقتلنا برد الليل؛ وإما...».

كفَّ عن الكلام فسألته: «ماذا؟»، على الرغم من أنني أعرف ما سيقوله.

«قد نحاول مرة أخرى إقامة نوعٍ من التفاهُم مع عقول هؤلاء الناس في القمر».

«بقدر ما أتصور، إنه الخيار الأول».

«أشك في ذلك».

«وأنا لا أشك».

قال كافور: «لا أعتقد أننا نستطيع الحُكم على السيلينايت بما رأيناه منهم، فعالَمهم المركزي، عالَمهم المتحضر، سوف يوجد في أسفل، في الكهوف العميقة حول بحرهم. هذه المنطقة من القشرة، التي نوجد فيها، هي منطقة نائية، منطقة رعوية. على أي حالٍ، هذا هو تفسيري. وهؤلاء السيلينايت الذين رأيناهم، ليسوا سوى المقابل لرعاة البقر وعُمال الماكينات؛ استخدامهم للمهاميز -وهي في جميع الاحتمالات مهاميز لعجول القمر- وافتقارهم إلى الخيال -الذي ظهر في توقعهم أن باستطاعتنا القيام بما يمكنهم القيام به- ووحشيتهم التي لا جدال فيها- يبدو ذلك كله يشير إلى ما قلته من تفسيرٍ. لكننا إذا تحمَّلنا...».

«لا يمكن أن يتحمَّل أيٌّ منَّا لوحًا طوله ستة بوصات لعبور حفرة بلا قاعٍ، لفترة طويلة».

قال كافور: «لا»، ولكن بعد ذلك...».

قلتُ: «لن أفعل».

اكتشف كافور خطًّا جديدًا من الاحتمالات: «حسنًا، لنفترض أننا مكثنا في زاوية ما، حيث يمكننا الدفاع عن أنفسنا ضد هؤلاء العمال، إذا استطعنا، على سبيل المثال، الصمود لمدة أسبوع أو نحو ذلك، فمن المحتمل أن تتسرب أخبار ظهورنا إلى المناطق الأكثر ذكاء وازدحامًا بالسكان...».

«إذا كانت مثل تلك المناطق موجودة».

«يجب أن تكون موجودة، وإلا من أين جاءت تلك الآلات الهائلة؟».

«هذا ممكن، لكنه أسوأ الاحتمالين».

«قد نكتب نقوشًا على الجدران...».

«وكيف نعرف أن أعينهم سوف ترى نوع العلامات التي صنعناها؟».

«إذا كتبناها بشكلٍ متقطعٍ...».

«هذا ممكنٌ بالطبع».

وهنا اتخذتُ خطًّا جديدًا من التفكير، قلتُ: «أعتقد، قبل أي شيء، أنك لا تتصور أنَّ هؤلاء السيلينايت أكثر حكمة بلا حدودٍ من البشر».

«لا بُدَّ أنَّهم يعرفون الكثير؛ أو على الأقل الكثير من الأشياء المختلفة».

«نعم، ولكن...»، قلتُ متردِّدًا.

«أعتقد أنك ستعترف تمامًا، يا كافور، أنَّك رجلٌ استثنائي بدرجة كبيرة».

«كيف؟».

«حسنًا، أنت رجلٌ وحيدٌ نوعًا ما، كنتَ وحيدًا؛ أنت لم تتزوج».

«لم أرغب في الزواج أبدًا، ولكن لماذا...».

«ولم يزد ثراؤك أبدًا عما أنت عليه؟».

«لم أرغب في ذلك أيضًا».

«لم تهتم سوى بالمعرفة؟».

«حسنًا، الفضول أمرٌ طبيعي...».

«أنت تعتقد ذلك، هذه هي المسألة، وتعتقد أنَّ كلَّ عقلٍ آخر يريد المعرفة. أتذكر أنني عندما سألتك في إحدى المرات لماذا تُجري كلَّ هذه الأبحاث، قلت إنك تريد تحقيقَ إنجاز علمي، وصُنع مادة تُسمَّى كافوريت، وأشياء من هذا القبيل. أنت تعرف تمامًا أنك لم تقم بذلك لهذا السبب؛ لكنك عندما فوجئت بسؤالي في ذلك الحين، شعرتَ بضرورة وجود شيء لديك يبدو كدافِع. أنت أجريت أبحاثًا بالفعل، لأنه كان عليك ذلك، هذا دورك».

«ربما أن...».

«لا يقوم بهذا الدور إلا رجلٌ في المليون. يرغب معظم الرجال في أشياء مختلفة، لكن قِلة قليلة جدًّا تريد المعرفة في حد ذاتها. وأنا أعرف جيدًا أنني لستُ من هؤلاء الرجال القليلين جدًّا. والآن، يبدو أن السيلينايت مخلوقاتٌ نشيطة ومشغولة نوعًا ما. ولكن كيف تعرف أن حتى أكثرهم ذكاء يهتمون بنا أو

بعالمنا؟ لا أعتقد أنهم يعرفون حتى إن لدينا عالمًا. إنهم لا يخرجون في الليل أبدًا؛ حتى لا يتجمدون، وربما لم يروا أي جرم سماوي على الإطلاق، ما عدا الشمس الحارقة، كيف يعرفون بوجود عالم آخر؟ وهل يهمهم إذا عرَّفوا؟ حسنًا، وحتى لو كانت لديهم لمحة عن بعض النجوم، أو حتى الهلال في كوكب الأرض، ماذا يعني ذلك؟ لماذا يجب أن يتكبد من يعيشون داخل باطن كوكب مشقة مراقبة هذا النوع من الأشياء؟ لم يفعل البشر ذلك إلا لمعرفة فصول السنة ومن أجل الإبحار، لماذا يجب على سكان القمر؟».

«حسنًا، لنفترض وجودَ عددٍ قليلٍ من الفلاسفة مثلك. السيلينايت فقط هم الذين لم يسمعوا أبدًا بوجودنا، لنفترض أن أحد السيلينايت سقط على كوكب الأرض عندما كنت أنت في ليم، وعندئذٍ لكنتَ أنتَ آخر رجلٍ في العالم يسمع أنه جاء. أنت لم تقرأ صحيفة أبدًا! وهكذا، ترى أن الفُرص ضدك. حسنًا، ومن أجل هذه الفرص، نحن نجلس هنا لا نفعل شيئًا بينما الوقت الثمين يطير. أقول لك إنَّنا في مأزقٍ. لقد وصلنا غير مُسلحين، وفقدنا كرتنا، وليس لدينا طعامٌ، وأظهرنا أنفسنا للسيلينايت، وجعلناهم يعتقدون أننا حيواناتٌ غريبة وقوية وخطيرة. وما لم يكن هؤلاء السيلينايت حمقى تمامًا، فسوف يطاردوننا حتى يجدونا، وعندئذٍ سيحاولون الإمساك بنا إذا استطاعوا، وقتلنا إذا لم يستطيعوا، وهكذا ينتهي الأمر. وإذا أمسكوا بنا، فمن المحتمل أن يقتلونا نتيجة سوء الفهم. وربما، من المحتمل أن يناقشونا، لكننا لن نستمتع كثيرًا بذلك».

«أكمل حديثك».

«من ناحية أخرى، يوجد هنا الذهب، يرن مثل الحديد الزهر في المنزل. إذا استطعنا أخذ بعضه معنا، إذا استطعنا أن نجد كرتنا مرة أخرى قبل أن يجدوها، ونعود إلى الديار، عندئذٍ...».

«ماذا؟».

«يمكننا إعداد الأمر بشكلٍ أفضل، ونعود مُسلحين في كرة أكبر».

«يا إلهي!»، صرخ كافور، كأنَّ ما قلتُه كان فظيعًا.

تجنبت فِطرًا مُضيئًا آخر أسفل الشق.

قلتُ: «اسمع يا كافور، لديَّ -على أي حالٍ- نصف قوة التصويت في هذا الموضوع، وهذا موقف أي رجلٍ عملي، وأنا رجلٌ عملي، وأنت لستَ رجلًا عمليًّا. لن أثق في السيلينايت، وفي أن المخططات الهندسية يمكنها مساعدتنا، هذا كل شيء. علينا أن نعود إلى كوكبِنا، ونتخلَّى عن كل هذه السرية، أو أغلبها، ثم نرجع إلى القمر مرة أخرى».

صمت يفكر، ثم قال: «عندما جئتُ إلى القمر، كان يجب أن آتي بمفردي».

قلتُ: «السؤال المطروح أمامنا الآن هو كيف نعود إلى الكرة».

جلسنا القرفصاء في صمتٍ لبعض الوقت، ثم بدا أنه يفكر فيما طرحته من أسبابٍ.

قال: «أعتقد يمكن للمرء الحصول على بياناتٍ. من الواضح أنه بينما توجد الشمس على هذا الجانب من القمر، سوف يهب الهواء عبر هذا الإسفنج الكوكبي من الجانب المظلم هنا، وعلى هذا الجانب، على أي حالٍ، سوف يتمدَّد الهواء ويتدفَّق من كهوف القمر إلى الفُوهات... حسنًا، يوجد تيارٌ هوائي هنا».

«هناك تيارٌ هوائي».

«وهذا يعني أنَّ هذا الطريق ليس مسدودًا؛ وأنَّ الشقَّ، في مكانٍ ما خلفنا، يستمر صاعدًا إلى أعلى. علينا أن نسلك الطريق الذي يهب فيه التيار الهوائي. إذا حاولنا الصعود خلال أي مدخنة أو أخدودٍ، لن يقتصر الأمر على خروجنا من هذه الممرات حيث يطاردوننا...».

«ولكن، لنفترض أنَّ الأخدودَ ضيقٌ للغاية؟».

«سننزل مرة أخرى».

قلتُ فجأة: «ششش! ما هذا؟».

استمعنا. كانت في البداية همهمة غير واضحة، ثم التقط سمعنا رنينَ الأجراس. قلتُ: «لا بُدَّ أنهم يعتقدون أننا من عجول القمر، ولذا ستخيفنا هذه الأصوات».

قال كافور: «إنهم قادمون من هذا الممر».

«بالتأكيد».

«لن يفكروا في الشق، بل سيمرُّون».

«أخذتُ أتسمَّع مرة أخرى لبعض الوقت، وهمستُ: من المرجح أن يحملوا معهم هذه المرة أسلحة من نوعٍ ما». قفزتُ فجأة واقفًا، وصحتُ: «يا إلهي! كافور، سوف يرون الفِطر الذي كنتُ ألقي به، سوف...».

لم أنهِ جملتي، استدرتُ وقفزتُ فوق قمم الفِطر، في اتجاه الطرف العلوي للتجويف، الذي تحوَّل اتجاهُه إلى أعلى وأصبح شقًّا متدفقَ الهواء مرة أخرى، صاعدًا نحو ظلامٍ يتعذَّر اختراقه. كنتُ على وشك التسلق، لكنَّ إلهامًا سعيدًا جعلني أعود أدراجي.

سألني كافور: «ماذا تفعل؟».

قلتُ: «هيَّا!»، رجعتُ لأحضر اثنتين من نبتات الفطر اللامعة. وضعتُ واحدة في جيب صدر سترتي بحيث تمسك في الجيب وتضيء طريق تسلقنا، وأعطيت الأخرى إلى كافور. أصبح ضجيج السيلينايت عاليًا، بحيث بدا أنهم لا بُدَّ تحت الشق بالفعل. ربما يجدون صعوبة في التسلُّق إليه، وربما يتردَّدون في الصعود خشية مقاومتنا المحتمَلة. على أي حالٍ، من المُريح أننا نعرف الآن تفوقنا العضلي الهائل الناتج عن انتمائنا لكوكبٍ آخر. وبعد دقيقة، كنت أتسلَّق بقوة عملاقة، خلف أقدام كافور المُضاءة بالأزرق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(17)
معركة في كهف جزاري القمر

لا أعرف إلى أي مدى تسلقنا قبل أن نصل إلى شبكة من القضبان. ربما صعدنا بضع مئات من الأقدام فقط، لكن ما بدا لي حينذاك أننا زحفنا وتكدسنا وقفزنا وحشرنا أنفسنا طوال ميلٍ أو أكثر من الصعود العمودي. وكلما تذكرتُ ذلك الوقت، يمتلئ رأسي بشدة قعقعة سلاسلنا الذهبية التي تصدر بعد كل حركة. وسرعان ما بدأتُ أشعر بالألم في مفاصلي وركبتيّ، فضلًا عن إصابتي بكدمة في إحدى وجنتي. تضاءل بعد فترة عنف جهدنا الأول، وأصبحت حركتنا أكثر ثقة وأقل إيلامًا. تلاشى تمامًا ضجيج مطاردينا السيليناية. يبدو أنهم لم يتتبعونا إلى الشق، على الرغم من وضوح كومة الفِطر المنكسر التي لا بُدَّ أنها توجد أسفله. كان الشقُّ يضيق كثيرًا، في بعض الأحيان، إلى حدٍّ صعوبة حشر أنفسنا خلاله؛ بينما يتسع في أحيانٍ أخرى تصل إلى حد تجاويف صخرية كبيرة، مرصَّعة ببلوراتٍ شائكة أو محاطة بكثافة ببثورٍ فِطرية لامعة. وفي بعض الأحيان، يلتفُّ حلزونيًّا، وفي أحيانٍ أخرى يميل إلى أسفل بما يقترب من الاتجاه الأفقي. وكان يتكرر تساقُط نقاط متقطعة من الماء أمامنا. وتصورنا، مرة أو مرتين، أننا نسمع عن بُعد حفيفَ كائناتٍ حية صغيرة، لكننا لم نرها أبدًا. ربما كانت وحوشًا سامَّة، على حدٍّ علمي، لكنها لم تلحق بنا أي ضرر. كما أصبحنا نعتاد نغمة ما، عندما يزحف شيءٌ غريبٌ بالقرب منَّا. وأخيرًا، شاهدنا مرة أخرى، أعلانا بمسافة، ذلك الضوء المألوف الضارب إلى الزرقة، ثم رأيناه يمرُّ خلال شبكة من القضبان تعوق طريقنا.

تهامسنا ونحن نشير إلى هذه الشبكة، واتَّخذنا قدرًا أكبر من الحذر خلال صعودِنا. اقتربنا من الشبكة، أصبحنا أسفلها تمامًا. ضغطتُ وجهي على قضبانِها، ولم أستطع رؤية سوى جزءٍ محدودٍ من الكهف وراءها. كان من الواضح أن مساحة الكهف كبيرة، وأنه مُضاء دون شكٍّ بنهر الضوء الأزرق نفسه الذي رأيناه يتدفق من الماكينات التي رأيناها من قبل. تساقطتْ -تكرارًا ومرارًا- قطراتٌ متقطعة من الماء بين القضبان بالقرب من وجهي.

كانت محاولتي الأولى، بطبيعة الحال، أن أرى ما قد يوجد على أرضية الكهف، لكن شبكة القضبان تقع في منخفَض، أخفتْ حافتُه كلَّ هذا عن أعيننا. يا له من إحباطٍ. على أننا استعدنا اهتمامنا مرة أخرى بعد أن سمعنا أصواتًا مختلفة، ثم التقطت عيناي عددًا من الظلال الخافتة التي تتحرك عبر السقف المعتم فوقنا بمسافة بعيدة.

ما من شكٍّ في وجود العديد من السيليناية في هذا المكان، ربما عددٌ كبيرٌ لأننا سمعنا ضجيجَ حديثهم، فضلًا عن أصواتٍ خافتة أدركتُ أنها وقع أقدامهم. سمعنا أيضًا سلسلة من الأصوات التي تتكرر بانتظام -تشيك، تشيك، تشيك- تبدأ وتتوقف؛ يوحي بصوت قطع سكين أو مجرفة في مادة ناعمة الملمسِ. ثم سمعنا صوت قعقعة سلاسل، وصفيرًا، ودمدمة تشبه صوت عربة نقل تسير فوق مكان مجوفٍ، ثم بدأ تشيك، تشيك، تشيك، مرة أخرى. أوضحت الظِلال أشكالًا تتحرك بسرعة وبإيقاعٍ في توافقٍ مع الأصوات المنتظمة الأخرى، وتقف عندما تتوقف تلك الأصوات.

تقاربنا لمناقشة هذه الأمور همسًا، دون أي ضوضاء.

قلتَ: «إنهم منشغلون في عملٍ ما، بطريقة أو بأخرى».

«نعم».

«إنهم لا يبحثون عنَّا، أو يفكرون فينا؟».

«ربما لم يسمعوا عنَّا».

«هناك آخرون يبحثون عنَّا في أسفل، وإذا ظهرنا هنا فجأة...».

نظرنا إلى بعضِنا.

قال كافور: «ربما توجد فرصة للتفاوض».

قلتُ: «لا، ليس ونحن في هذا الوضع».

انشغل كلٌّ منَّا بأفكارِه لبعض الوقت.

استمرَّ صوت القطع -تشيك، تشيك، تشيك- وتحرَّكتْ الظلال ذهابًا وإيابًا.

نظرتُ إلى شبكة القضبان، وقلتُ: «إنَّها واهية؛ يمكننا أن نثني قضيبين ونزحف خلالهما».

أهدرنا القليلَ من الوقت في مناقشة مبهمة، ثم أمسكتُ بأحد القضبان بكلتا يديَّ، ورفعتُ قدميَّ على الصخرة حتى أصبحتا على المستوى نفسِه تقريبًا مع رأسي، وأخذتُ أدفع القضيب بقوة؛ التوى فجأة لدرجة أنني كدتُ أنزلق. تسلقتُ وقمتُ بثني القضيب المجاور في الاتجاه المعاكس، ثم أخرجتُ الفِطر المضيء من جيبي وأسقطته أسفل الشق.

«لا تتعجَّل القيام بأي شيء»، همس كافور، وأنا ألوي نفسي خلال الفتحة التي تمكَّنتُ من توسيعها. وما إن عبرت شبكة القضبان، حتى لمحتُ عددًا منهم في حالة انشغالٍ. انحنيتُ على الفور، بحيث تخفيني عن أعينهم حافة المنخفَض الذي توجد فيه الشبكة. استلقيتُ، مما أشار إلى كافور بأن يستعد ليأتي هو أيضًا. رقدنا متجاورين في المنخَفَض، نطل من فوق الحافة على الكهف وشاغليه.

كان كهفًا أكبر بكثيرٍ مما تصورنا من أول لمحة لنا عنه. نظرنا إلى أعلى، من أدنى جزءٍ في أرضيتِه المنحدرة، كان يبدو أكثر اتساعًا كلما نظرنا أبعد، لكنَّ سقفَه تدلَّى وأخفى تمامًا الجزءَ البعيد. كان يرقد على امتداد طوله، ويختفي بعيدًا في هذا المنظور الهائل، عددٌ من الأشكال الضخمة والأجسام الضخمة الشاحبة، ينشغل بها السيليناييت. ظهرت في البداية كأسطوانات بيضاء كبيرة مبهمة. ثم لاحظتُ أنَّ عليها رؤوسًا في اتجاهنا، رؤوسًا بلا أعين وبلا جلدٍ، مثل رؤوس الأغنام عند الجزار، أدركتُ أنَّها جثث لعجول القمر يجري تقطيعها، مثلما يتعامل طاقم صيد الحيتان مع حوت. كانوا يقطعون اللحم إلى شرائح، وكانت الضلوع البيضاء تظهر على بعض الجذوع البعيدة. كان تشيك، تشيك، تشيك، هو صوت البلطات التي يستخدمونها. وهناك، على مسافة ما، شيءٌ مثل عربة ذات أحبالٍ، مسحوبة وهي مُحمَّلة بشرائح اللحم اللينة، على منحدر أرضية الكهف. وهذا الطريق الطويل الهائل من الهياكل، التي كان مُقدَّرًا لها أن تكون بمثابة غذاء، قد أعطانا شعورًا بأنَّ القمرَ مكتظٌّ بالسكان، بعد أن كان تصوُّرنا في البداية عكس ذلك.

تصورتُ بداية أنَّ السيلينايت يقفون على ألواحٍ مدعومة بحواملَ،([14]) ثم رأيتُ أنَّ الألواحَ والدعمات والفؤوس كانت من اللون الرصاصي نفسه الذي بدت عليه القيود قبل أن يسقط عليها الضوء الأبيض. كان عددٌ من العتلات سميكة المظهر مُلقَى على الأرض، ويبدو أنها تساعد على قلب عجل القمر الميت على جانبه. ربما بلغ طولها ستة أقدام، وذات مقابض لها شكلٌ خاصٌّ؛ أسلحة ذات مظهرٍ يلفت الانتباه، وكان المكان كله مضاءً بثلاثة تياراتٍ مستعرضة من السائل الأزرق.

بقينا مُمددين فترة طويلة، نراقب كلَّ هذه الأشياء في صمتٍ، وأخيرًا قال كافور: «حسنًا؟»،

انحنيتُ، والتفتُّ إليه، تبادرتْ إلى ذهني فكرة رائعة: «ما لم يقوموا بخفض تلك الجثث بواسطة رافعة، فإننا نكون أقرب إلى السطح مما كنتُ أعتقد».

«لماذا؟».

«عجول القمر لا تقفز، وليس لديها أجنحة».

نظر من حافة التجويف مرة أخرى، قال: «أتساءل الآن.. بعد كل هذا، لم نبتعد عن السطح...».

أوقفته بقبضة على ذراعه، فقد سمعتُ ضجيجًا قادمًا من الشقِّ أسفلنا!

أدرنا أنفسنا، وبقينا ساكنين كالموت، بكلِّ إحساسِ التأهُّب اليقظ. بعد فترة وجيزة أيقنتُ أنَّ شيئًا يصعد الشقَّ بهدوءٍ؛ تأكدتُ ببطءٍ شديدٍ وبلا ضوضاءٍ من قوة قبضتي على السلسلة، وانتظرتُ ظهور أي شيء.

قلتُ: «ليتك تلقي مجرد نظرة على تلك الكائنات التي تحمل الفؤوس».

قال كافور: «إنهم على ما يرام».

حددتُ هدفًا مؤقتًا، عند الفجوة الموجودة في شبكة القضبان. أسمع الآن، وبوضوحٍ تامٍّ، زقزقة ضعيفة من السيلينايت الصاعدين، وصوت وضع أيديهم على الصخرة، وسقوط الترابِ من قبضاتهم وهم يتسلقون.

تبينتُ شيئًا يتحرك في السواد تحت شبكة القضبان، لكنني لم أتمكَّن من تمييزه. بدا للحظة أنَّه يستعد، ثم انطلق! كنتُ قد وقفتُ على قدميَّ، وضربتُ بوحشية شيئًا كان يومض في وجهي، اتضح أنها رأس الرمح المدببة. فكرتُ في أنَّ طولَه في أضيق مكانٍ في الشق قد حال دون انحداره للوصول إليَّ. على أي حالٍ، عَبَر الرمح شبكة القضبانِ مثل لسان ثعبان، وأخطأ هدفه، ثم طار عائدًا مرة أخرى وهو يومض ثانية. وفي المرة الثانية، تمكّنت من انتزاعِه والإمساك به، لكن ليس قبل أن يندفع آخر نحوي دون أن يصيب الهدف أيضًا.

صرختُ منتصرًا، ثم شعرتُ بقبضة أحد السيلينايت وهو يقاوم قوة شدة جذبي للحظة، وبعدها بدأتُ في توجيه لكماتٍ إلى أسفل من خلال القضبان، وسط ولولة الظلام. كما تمكَّن كافور من تحطيم الرمح الآخر، وأخذ يقفز ويتباهى بجانبي وهو يوجه الطعنات، لكنها لم تكن فعالة. تصاعد صوت

(كلانج، كلانج) من بين قضبان الشبكة، ثم اندفع فأسٌ عبر الهواء وارتطم بالصخور، مما أثار في ذاكرتي صورة الذبائح الموجودة في الكهف.

استدرتُ، رأيتهم جميعًا قادمين نحونا، ويلوحون بفؤوسهم، كانوا مخلوقاتٍ قصيرة وسمينة ويثيرون الشفقة، كما كانت أذرعهم طويلة، وكانوا مختلفين، بشكلٍ لافتٍ للنظر، عن تلك المخلوقات التي رأيناها من قبل. إذن لم يسمعوا عنَّا من قبل، فلا بُدَّ أنهم أدركوا الوضع بسرعة لا تُصدق. حدقتُ إليهم للحظة والرمح في يدي، «راقب شبكة القضبان، يا كافور»، ثم صرختُ لإخافتهم واندفعتُ لملاقاتهم. أخطأ اثنان منهم التصويب، وهرب الباقون. ثم ركض الاثنان أيضًا نحو الكهف، وقبضتا يديهما مُحكمتان ورأساهما إلى أسفل، لم أرَ أبدًا رجالًا يركضون على هذا النحو!

كنتُ أعرف أنَّ الرمحَ الذي معي ليس مفيدًا؛ كان رقيقًا وواهيًا، وتأثيره لا يظهر سوى عند اندفاعه، وطويلًا جدًّا لاسترداده بسرعة. لذا، طاردت السيلينايت حتى الذبيحة الأولى فقط، وتوقفت هناك وأمسكتُ بإحدى العتلات التي كانت مُلقاة حولها. شعرتُ بالراحة عندما أحسستُ بثِقلها، الذي يصلح لتحطيم أي عدد من السيلينايت. رميتُ الرمح، وأمسكتُ عتلة ثانية بيدي الأخرى. شعرتُ أنني أفضل بخمس أضعاف مما شعرتُ به مع الرمح. هززتُ العتلتين مُهدِّدًا السيلينايت، الذين توقفوا محتشدين عند الكهف، ثم استدرتُ لأنظر إلى كافور.

كان يقفز من جانب شبكة القضبان إلى جانبها الآخر، وهو يكيل ضربات التهديد برمحه المكسور، كان ذلك جيدًا، حيث من شأنه إبقاء جماعة السيلينايت في الأسفل لفترة من الوقت على أي حالٍ، نظرتُ إلى أعلى الكهف مرة أخرى، ماذا سنفعل الآن؟

لقد حوصرنا بطريقة ما بالفعل، لكنَّ هؤلاء الجزارين في الكهف فوجئوا، وربما كانوا خائفين؛ فليس لديهم أسلحة خاصة، سوى تلك الفؤوس الصغيرة، وهنا يكمن الهروب. انتشرت هيئاتهم الصغيرة القوية -التي كانت أقصر بكثيرٍ وأكثر سِمنة من قطعان عجول القمر- على المنحدر بطريقة تنم بوضوح عن الحيرة. كانت ميزتي الافتراضية أنني مثل ثورٍ مجنونٍ في شارعٍ، لكن حشدهم بدا هائلًا، وهذا مُحتَمَلٌ إلى حدٍّ كبير. كما أنَّ تلك المجموعة من السيلينايت الموجودةَ أسفل الشق، لا بُدَّ أنَّ لديها بعضَ الرماح الطويلة الجهنمية، وربما لديهم مفاجآت أخرى لنا... ولكن... يا لَحيرتي! إذا هاجمنا الكهف، سوف نجعلهم خلفنا؛ وإذا لم نهاجمه، ربما يحصل هؤلاء المتوحشون الصغار في الكهف على تعزيزاتٍ. السماء وحدها تعرف ما آلات الحرب الهائلة -من بنادق، وقنابل، وطوربيدات أرضية- الموجودة في هذا العالَم المجهول تحت أقدامنا، هذا العالَم الأوسع الذي لم نلمس منه سوى قشرته الخارجية، ربما لم يرسل حتى الآن ما يُدمرنا. أصبح من الواضح أنَّ الشيء الوحيد الذي يجب القيام به هو الهجوم! أصبح أكثر وضوحًا عندما ظهرت أرجل عددٍ إضافي من السيلينايت وهم يركضون أسفل الكهف نحونا.

«بدفورد!»، صاح كافور، وهو ينظر! كان في منتصف الطريق بيني وبين شبكة القضبان،

صحتُ: «ارجع! ماذا تفعل...».

«إنَّ معهم... معهم شيئًا مثل بندقية!».

جرت معركة عند شبكة القضبان، بين تلك الرماح الدفاعية التي أظهرت رأس وكتفي سيلينايت منفرد هزيل في أحد الأركان، ويحمل جهازًا مُعقدًا.

أدركتُ عجز كافور تمامًا عن القتال الدائر، ترددتُ للحظة، ثم اندفعتُ نحوه وتجاوزته وأنا ألفُّ العتلتين بيدي في حركة دائرية وأصيح لإحباط هدف السيلينايت، الذي كان يصوب بطريقة غريبة جدًّا بشيءٍ يحمله حول بطنه. «تشووزز!»، لم يكن الشيء بندقية، بل انفتح مثل قوس ونشّاب، وأصابني في منتصف قفزة.

لم أسقط، وإنما ببساطة انخفضتُ قليلًا، أقل مما كنت سأفعله لو لم يصيبني. ومن إحساسي بكتفي، يبدو أنَّ هذا الشيء وخزني، ثم ارتطمتْ يدي اليسرى بالعمود، وأدركتُ عندئذٍ أنَّ رمحًا ما يخترق كتفي. ولما كانت يدي اليُمنى ممسكة بعتلة، ضربت السيلينايت بالمثل. انهار، مكوَّمًا مُهشَّمًا، ورأسه مُحطمة كبيضة.

أسقطتُ العتلة وسحبتُ الرمح من كتفي، وبدأتُ في وخزه أسفل شبكة القضبان في الظلام، ومع كل وخزة، كانت تصدر صرخة وزقزقة. وأخيرًا ألقيتُ الرمح عليهم بكلِّ قوتي وقفزتُ، ثم التقطتُ العتلة مرة أخرى، وانطلقتُ صاعدًا وراء الجموع أعلى الكهف.

«بدفورد!»، صاح كافور، «بدفورد!»، وأنا أركض بجانبه.

أتذكر خطواته خلفي.

خطوة، قفزة ... ضربة، خطوة، قفزة... بدت كلُّ قفزة مستمرة لعصورٍ، ومع كلٍّ منها، يزداد اتساع الكهف وتزداد أعداد السيلينايت. كانوا يركضون في البداية مثل كومةٍ من النمل المضطرب، ويلوح واحدٌ أو اثنان منهم بفؤوسهم ويتقدَّمون نحوي، بينما يهرب أكثرهم، ويفرُّ بعضهم إلى الجانب في اتجاه الذبائح. ظهر الآنَ آخرون يحملون الرماح، ثم آخرون. رأيتُ شيئًا شديد الغرابة، كانت كل الأيدي والأقدام تندفع بحثًا عن غطاءٍ، وكلما صعدتُ، زادت قتامة الكهف.

كليك! طار شيءٌ فوق رأسي. كليك! رأيتُ، وأنا في منتصف خطوة صعود، رمحًا يصيب مرتعشًا إحدى الذبائح على يساري. وعند هبوطي، ارتطم رمحٌ بالأرض أمامي، وسمعتُ عن بُعد صوتَ إطلاق أسلحتهم... تشووزز! ثم طارت أشياء وانهمرت كالمطر.. كليك! كليك!

توقَّفتُ جامدًا.

لا أعتقد أنني كنت أفكر بوضوحٍ حينها. أتذكر عبارة نمطية مرَّت بذهني: «منطقة إطلاق نار، يجب البحث عن ساتر!». أعرف أنني اندفعت لمسافة بين جثتين، ووقفتُ هناك لاهثًا وأشعر بالشر حولي.

بحثتُ عن كافور، الذي بدا للحظة كأنه اختفى من العالم، ثم خرج من الظلام، بين صفّ الذبائح والجدار الصخري للكهف، رأيتُ وجهه الصغير، داكنًا ومزرقًا، لكنه يلمع من العرق والانفعال.

كان يقول شيئًا، لكنني لم أنتبه. أدركتُ أنَّنا ننتقل من أحد عجول القمر إلى آخر، أعلى الكهف، حتى أصبحنا قريبين جدًّا من القتال، إما القتال أو لا شيء. قلتُ: «هيَّا!»، وقُدتُ الطريق.

«بدفورد!»، صاح دون كللٍ.

كان عقلي مشغولًا، ونحن نصعد ذلك الزقاق الضيق بين الجثث وجدار الكهف. كانت الصخور حولنا مُنحنية؛ لن يتمكن السيليناية من إصابتنا. وعلى الرغم من ضيق المساحة، بما لا يتيح لنا القفز، فقد كانت قوانا المنتمية لكوكب الأرض تجعلنا أسرع بكثيرٍ من السيليناية.

تصورتُ أنَّنا لا بُدَّ من أن نهاجمهم الآن؛ فما إن ننقضَّ عليهم، حتى يصبحوا كتلة هائلة مثل الخنافس السوداء، لكنَّنا سنواجه بداية وابلًا من الرصاص. فكرتُ في حيلة، خلعتُ سترتي الخفيفة وأنا أركض.

«بدفورد!»، ناداني كافور وهو يلهث ورائي.

نظرتُ خلفي قائلًا: «ماذا؟».

كان يشير إلى أعلى، فوق الذبائح. قال: «ضوء أبيض! الضوء الأبيض مرة أخرى!».

نظرتُ، وكانت ملاحظتُه في محلِّها؛ شبحٌ أبيض خافتٌ من الضوء، بعيدًا في سقف الكهف، يبدو أنَّ هذا ما ضاعف قوتي.

قلتُ: «ابق على مقربة». اندفع سيليناية طويلٌ خارجًا من الظلام صارخًا، وهرب. وقفتُ، وأوقفتُ كافور بيدي. علَّقتُ سترتي فوق عتلتي، وتفاديتُ الذبيحة التالية، وأسقطتُ السترة والعتلة، وأظهرتُ نفسي، ثم اندفعتُ إلى الخلف.

جاء سهمٌ واحدٌ فقط «تشووزز-فليك»، كنَّا قريبين من مجموعة السيليناية، الذين يقفون في حشدٍ؛ منهم المكتنز، والقصير، والطويل، كلهم معًا، ولديهم مجموعةٌ صغيرةٌ من أدوات إطلاق الأسلحة الخاصة بهم، تشير إلى أسفل في اتجاه الكهف. انطلقتْ ثلاثة أو أربعة أسهم أخرى بعد السهم الأول، ثم توقف الإطلاق.

كاد سهمٌ أن يرتطم برأسي، تفاديته بمسافة قليلة جدًّا. هذه المرة واجهتُ عشرات الطلقات أو أكثر، وسمعت السيليناية يصرخون ويزقزقون كأنَّ عملية إطلاق السهام تثير انفعالهم، أخذتُ سترتي وعتلتي مرة أخرى.

قلتُ: «الآن!»، ورفعتُ سترتي عاليًا.

«تشوووووووز-زز-زز-زز! تشووزز!»، وفي لحظة، نمتْ لحية سميكة من السهام على سترتي، فضلًا عن السهام التي تهتز خلفنا في جثث جميع الذبائح. على الفور ألقيتُ السترة -وبقدر ما أعرف، لا تزال ملقاة هناك- بعد أن سحبتُ منها العتلة، واندفعتُ نحوهم مهاجمًا.

كانت مذبحة، ربما لدقيقة. كنتُ شرسًا للغاية، من دون تمييز. وربما خاف السيليناية من القتال. على أي حالٍ، لم يقاتلوني. كنتُ غاضبًا. أتذكر أنَّني أخذتُ أخوضُ بين تلك الأشياء الجلدية الرقيقة كرجلٍ يخوض خلال عشبٍ طويلٍ، أحطِّم وأضرب يمينًا، وأُهشم يسارًا. تطايرتْ قطراتٌ صغيرة من الرطوبة حولي. كنتُ أدوس على أشياء تتسحق وتتحطم وتصبح زلقة. بدا أنَّ الحشد ينفتح وينغلق

ويتدفق مثل الماء. كان واضحًا عدم وجود أي خطة لديهم. تطايرت رماحٌ حولي، وأصاب إحداها أذني، كما طُعِنتُ مرة في ذراعي ومرة في خدي، لكنني لم أدرك الأمر إلَّا فيما بعد، عندما سال الدم وشعرتُ به باردًا.

لا أعرف ماذا فعل كافور، بدا لي، لفترة، أنَّ القتال استمرَّ لدهرٍ، وسوف يستمر إلى الأبد، ثم فجأة انتهى كلُّ شيء، ولم يعُد هناك ما يمكن رؤيته سوى ظهور رؤوس تتمايل صعودًا وهبوطًا بينما يركض أصحابُها في جميع الاتجاهات، لم يصبني أيُّ أذى، ركضتُ إلى الأمام بضع خطوات، صائحًا، ثم استدرتُ، ودُهِشتُ.

كنتُ أركض بخطواتٍ واسعة مُحلِّقة، وكانوا جميعًا ورائي، يركضون هنا وهناك سعيًا للاختباء.

كانت دهشتي هائلة من تبخُّر المعركة الكبرى التي دفعتُ نفسي فيها، وشعرتُ بالابتهاج. لما اكتشفتُ أنَّ السيلينايت ضعفاء بشكلٍ غير متوقعٍ، وإنَّما أنني كنتُ قويًّا بشكلٍ غير متوقعٍ. ضحكتُ بغباءٍ. هذا القمر الرائع!

نظرتُ للحظة إلى الجثث المحطمة والملتوية التي تتناثر على أرضية الكهف، وفي ذهني فكرة غامضة عن مزيدٍ من العنف، ثم أسرعتُ خلف كافور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(18)
في ضوء الشمس

انفتح الكهف أمامنا الآن على فراغٍ ضبابي. وفي اللحظة التالية وجدنا أنفسَنا في دهليزٍ مائلٍ، يبرز في مساحة دائرية واسعة، ويتَّجه نحو حفرة أسطوانية عمودية ضخمة إلى أعلى وأسفل. وحول هذه الحفرة، يمرُّ الدهليز المائل من دون أي حاجزٍ أو حماية لمسافة تصل إلى دورة ونصف، ثم تغوص عاليًا في الصخور مرة أخرى. ذكِّرني ذلك، بطريقة ما، بأحد تلك المنعطفات الحلزونية للسكك الحديدية عبر سانت جوثارد. كان كلُّ شيءٍ ضخمًا للغاية، بالكاد ما أستطيع وصف النِسب العملاقة في هذا المكان كلِّه، وتأثيرها العملاق. تابعت أعيننا الانحدار الشاسع لجدار الحفرة، ورأينا على مسافة بعيدة فوق رؤوسِنا فتحة مستديرة تبدو فيها مجموعة نجوم خافتة، ويبدو نصف حافتها المستديرة ساطعًا بضوء الشمس الأبيض، وعندئذٍ، صحنا في وقتٍ واحدٍ بصوتٍ عالٍ.

قلتُ: «هيَّا!»، وأنا أقود الطريق.

قال كافور: «ولكن هناك؟»، واقترب بحذرٍ شديدٍ من حافة الدهليز. حذوتُ حذوه، وتحركتُ إلى الأمام وأنا أنظر إلى أسفل، لكنَّ بصيصَ الضوء في الأعلى بهرني؛ فلم أكن أرى سوى ظلامٍ بلا نهاية مع بقعٍ قرمزية وأرجوانية طيفية عائمة. مع ذلك، وإن لم أتمكَّن من الرؤية، فقد كنتُ أسمع. جاء صوتٌ من هذا الظلام، صوتٌ مثل همهمة غاضبة يمكن للمرء أن يسمعها إذا وضع أذنه بالقرب من خلية النحل، صوتٌ آتٍ من تجويفٍ هائلٍ، ربما يمتدُّ أربعة أميال تحت أقدامنا.

استمعتُ للحظة، ثم شددتُ قبضتي على عتلتي، وقُدتُ الطريق إلى أعلى الدهليز.

قال كافور: «لا بُدَّ من أنَّ هذا هو العمود الذي رأيناه سابقًا، تحت هذا الغطاء».

«وهناك، في الأسفل، هو المكان الذي رأينا فيه الأضواء».

قال: «الأضواء! نعم، أضواء العالَم التي لن نراها الآن».

قلتُ: «سنعود؛ فقد نجحنا حتى الآن في تجنُّب الكثير، لدرجة أنَّني أصبحتُ متفائلًا بإمكانية استعادة الكرة بسرعة».

لم أسمع ردَّه.

سألته: «هه؟».

أجاب: «لا يهم»، وأسرعنا في صمتٍ.

أعتقد أنَّ الطريقَ الجانبي المائل كان يمتدُّ نحو أربعة أو خمسة أميال، مما يسمح بانحنائه، ويصعد إلى منحدرٍ شديدٍ، قد يجعله عموديًّا تقريبًا على كوكب الأرض، لكنَّنا سرنا عليه بسهولة في ظلِّ ظروف القَمر. لم نرَ سوى اثنين من السيلينايت خلال كل ذلك الجزء من رحلتنا، وركضا مسرعين بمجرد أن شاهدانا. من الواضح أنَّ المعرفة بقوتِنا وعنفِنا قد وصلت إليهما. كان طريقُنا إلى الخارج

واضحًا بشكلٍ غير متوقعٍ. أصبح الدهليز الحلزوني مستقيمًا في نفقٍ تصاعدي حادٍّ، وظهرت على أرضيته العديدُ من آثار عجول القمر، ثم أصبح مستقيمًا وقصيرًا بما يتناسب وقوسه الواسع، بحيث لم يكن أيُّ جزءٍ منه مظلمًا تمامًا. بدأ الضوء يزداد على الفور تقريبًا، ثم أصبح ساطعًا عن بُعدٍ في أعلى، وظهرت فتحة نحو الخارج، منحدر شديد الانحدار تعلوه قمة من شجيرة شائكة طويلة لكنها مكسورة الآن، كما كانت جافة وميتة، في صورة ظلية شائكة في مواجهة الشمس.

ومن الغريب أننا نحن الرجال، الذين بدا لهم هذا الغطاء النباتي غريبًا وفظيعًا منذ فترة قصيرة، أصبحنا ننظر إليه الآن بالعاطفة التي قد يشعر بها المنفي العائد إلى الوطن، عندما يرى وطنه الأصلي. رحبنا حتى بنُدرة الهواء التي جعلتنا نلهث ونحن نركض، التي سبَّبت عدم سهولة التحدُّث كما كان الحال، بل أصبح محاولة لسماع النَفَس. نمت الدائرة المُضاءة بأشعة الشمس فوقنا، أكبر وأكبر، وغرق النفق الأقرب متحولًا إلى حافة من السواد لا يمكن تمييزها. رأينا شجيرة شائكة ميتة، فقدت كل لمسة من اللون الأخضر وأصبحت بُنيَّة وجافَّة وسميكة، وشكَّل ظلُّ فروعها العليا البعيد عن النظر نمطًا متشابكًا بكثافة على الصخور المتداعية. وعند فتحة النفق مباشرة، كانت هناك مساحة واسعة عليها آثارٌ توضح أنَّ عجول القمر تأتي وتذهب.

خرجنا أخيرًا إلى الضوء والحرارة التي شعرنا بها وبضغطها علينا. اجتزنا بألم المنطقة المكشوفة، وتسلَّقنا منحدرًا بين الجذوع المهشمة، ثم جلسنا لاهثين في بقعة مرتفعة تحت ظل كتلة من الحمم الملتوية. شعرنا بسخونة الصخر، حتى في الظل.

كان الهواء شديدَ الحرارة، وكنَّا نشعر بإجهادٍ جسديٍّ كبير، لكنَّنا لم نعُد في كابوسٍ؛ فقد رجعنا إلى موقعِنا الأول مرة أخرى تحت النجوم، وولَّى الخوف والإجهاد اللذان عشناهما خلال رحلتنا عبر الممرات والشقوق المعتمة في أسفل. ملأتنا تلك المعركة الأخيرة ثقة هائلة بأنفسنا، بقدر ما كان السيلينايت قلقين. نظرنا إلى الوراء بتشكُّكٍ، في الفتحة السوداء التي خرجنا منها للتوِّ. هناك في الوهج الأزرق، الذي أصبح في ذكرياتنا الشيء التالي للظلام المطلق، التقينا أشياءَ تماثِل محاكاة ساخرة مجنونة بالبشر، ومخلوقات برؤوسٍ مثل الخوذات، ومشينا أمامهم في خوفٍ، وخضعنا لهم حتى أصبح من المتعذر أن نخضع أكثر من ذلك، وها هم قد تحطموا كالشمع، وتناثروا كالقشِّ، وهربوا واختفوا كمخلوقاتٍ تظهر في الحلم!

فركتُ عيني متشككًا، ما إذا كنَّا لم ننم وحلمنا بهذه الأشياء بسبب الفِطر الذي أكلناه، وفجأة اكتشفتُ دماءً على وجهي، كما كان قميصي ملتصقًا بشكلٍ مؤلمٍ بكتفي وذراعي.

قلتُ: «يا إلهي!»، بينما أتحقَّق من إصاباتي؛ وفجأة أصبحتْ فتحة النفق البعيد عينًا تراقب.

«كافور»، قلتُ، «ماذا سيفعلون الآن؟ وماذا سنفعل؟».

هزَّ رأسه وعيناه مثبتتان على النفق: «كيف يمكن للمرء أن يقول ما سيفعلونه؟».

«هذا يتوقَّف على ما يتصورونه عنَّا، ولا أعرف كيف يمكننا أن نبدأ في تخمين ذلك، كما أنَّه يعتمد على ما لديهم من مخزونٍ. كما تقول، يا كافور، لقد لمسنا أفضل ما في خارج هذا العالَم. قد توجد في الداخل، هنا، كلُّ أنواع الأشياء، حتى مع أولئك الذين يطلقون أسلحتهم، ربما يسببون لنا أضرارًا...».

«ثم أضفتَ: «ومع ذلك، حتى لو لم نجد الكرة على الفور، هناك فرصة بالنسبة إلينا، يمكننا أن نصمد حتى خلال الليل، ونهبط إلى هناك مرة أخرى، ونخوض معركة من أجلها».

نظرتُ حولي بعينين مُتأملتين، تغيَّرت طبيعة المشهد تمامًا بسبب النمو الهائل وما تلاه من جفافٍ للشجيرات المنخفضة. كانت القمة التي جلسنا عليها مرتفعة، وتطل على مساحة واسعة من الفوهة، رأينا أنَّها الآن صافية وجافة في أواخر الخريف في فترة بعد الظهر على القمر. كانت ترتفع، الواحدة تِلْوَ الأخرى، منحدرات طويلة، وحقول بنية اللون ترعى عليها عجول القمر. وبعيدًا في وهج الشمس الكامل، تنعم مجموعة منهم بالهدوء، وتتناثر أشكالٌ تسقط على جانب كل منها بقعة من الظل - مثل الأغنام، لكننا لم نرَ على الإطلاق أيَّ علامة على السيليناية. إما أنهم فرُّوا عند خروجنا من الممرات الداخلية، أو اعتادوا على الراحة بعد مطاردة عجول القمر، لا أستطيع التخمين، لكنني كنتُ أعتقد حينذاك أنَّ الاحتمال الأول هو الأرجح.

قلتُ: «إذا أشعلنا النارَ في كل هذه الأشياء، قد نجد الكرة بين الرماد».

يبدو أنَّ كافور لم يسمعني، كان ينظر من تحت يده إلى النجوم، التي لا تزال مرئية بوفرة في السماء، على الرغم من أشعة الشمس الشديدة. ثم تساءل أخيرًا: «كم مضى من وقتٍ منذ أن جئنا هنا؟».

«جئنا إلى أين؟».

«إلى القمر».

«ربما يومان من أيام كوكب الأرض».

«أكثر، نحو عشرة أيام. هل تعلم أنَّ الشمسَ تجاوزت ذروتها وتغرق في الغرب. وفي غضون أربعة أيام أو أقل، سيحلُّ الليلُ».

«لكننا تناولنا الطعام مرة واحدة فقط!».

«أعرف ذلك. ولكن هناك النجوم!».

«ولكن، لماذا يجب أن يبدو الوقت مختلفًا لأننا على كوكبٍ أصغر؟».

«لا أعرف، هكذا الأمر!».

«كيف يمكن للمرء أن يعرف الوقت؟».

«الجوع، التعب، كلُّ هذه الأمور تختلف. كلُّ شيء مختلفٌ، كلُّ شيء. بالنسبة إليَّ، يبدو أنها مجرد مسألة ساعات، ساعات طوال، منذ بداية خروجنا من الكرة».

قلتُ: «عشرة أيام؛ هذا يترك...»، نظرتُ إلى الشمس للحظة، ورأيتُ أنَّها كانت في منتصف الطريق من الذروة إلى الحافة الغربية. «أربعة أيامٍ! كافور، يجب ألا نجلس هنا ونحلم، كيف نبدأ في رأيك؟».

وقفتُ. «يجب أن نحدد نقطة ثابتة يمكننا التعرُّف عليها -قد نرفع علمًا، أو منديلًا، أو شيئًا من هذا القبيل- ونُقسم الأرض إلى أجزاءٍ، ونبحث في كلِّ جزءٍ».

وقف بجانبي.

قال: «نعم، ليس أمامنا سوى البحث عن الكرة، لا شيء آخر، قد نجدها، بالتأكيد قد نجدها، وإذا لم نجدها...».

«يجب أن نستمرَّ في البحث».

نظر في هذا الاتجاه وذاك، ثم إلى الأعلى نحو السماء، وإلى الأسفل نحو النفق؛ وأدهشني بلفتة مفاجئة تنمُّ عن نفاد الصبر، «أوه، لقد تصرفنا بحماقة! أن نصل إلى هذا الوضع! فكر في ما فعلناه، والأشياء التي ربما كان علينا القيام بها!».

«ربما لا يزال يمكننا أن نفعل شيئًا».

«ليس ما قمنا به أبدًا؛ يوجد عالَم تحت أقدامنا، فكر في هذا العالَم! فكّر في الآلة التي رأيناها، والغطاء والعمود! كانت مجرد أشياء بعيدة معزولة، وتلك المخلوقات التي رأيناها وقاتلناها، إنهم ليسوا أكثر من فلاحين جهلة، وسكان من الضواحي، وعمَّال وأجلاف يشبهون الوحوش. هناك في الأسفل، أدناه! توجد كهوفٌ تحت كهوفٍ، وأنفاق، وأبنية، وطرق... لا بُدَّ أنَّها تنفتح وتكبر وتتسع وتصبح أكثر اكتظاظًا بالسكان كلما هبطنا. بالتأكيد. وفي النهاية يقع البحر الذي يلتف حول مركز القمر. فكّر في مياهه حبرية السواد تحت الأضواء الاحتياطية، إذا كانت أعينهم بحاجة إلى أضواء! فكّر في الروافد المتتالية التي تتدفق عبر القنوات لتغذيها! فكّر في الجُزُر على سطحه، واندفاع المد والجزر ودواماته! ربما لديهم السفن التي تبحر فوقه، وربما توجد مدنٌ قوية وطرقٌ محتشدة، ربما لديهم حكمة ونظامٌ تفوق ذكاء الإنسان. ونحن قد نموت هنا في الأعلى، ولا نرى أبدًا السادة الذين لا بُدَّ أنهم يتحكَّمون في هذه الأشياء! قد نتجمَّد ونموت هنا، ويتجمَّد الهواء ويذوب فوقنا، وبعد ذلك...! ثم يأتون، يأتون ليجدوا أجسامنا متيبسة وصامتة، ويعثرون على الكرة التي لم نتمكَّن من العثور عليها، وعندئذٍ يفهمون أخيرًا وبعد فوات الأوان كلَّ الفكر والجهد الذي انتهى هنا دون جدوى!».

بدا صوتُه طوال حديثه كأنَّه صوتُ شخصٍ يأتي عبر الهاتف، صوتٌ ضعيفٌ وبعيدٌ.

قلتُ: «لكن الظلام».

«يمكننا التغلُّب على ذلك».

«كيف؟».

«لا أعرف. كيف لي أن أعرف؟ يمكننا الاستعانة بشُعلة، وقد يوجد مصباح... الآخرون، ربما يفهمون».

وقف للحظة، ويداه مرفوعتان ووجهه حزينٌ، يُحدِّق إلى الامتداد الشاسع الذي يتحدَّاه. ثم بإيماءة تنم عن التنازل، التفتَ نحوي باقتراحاتٍ حول البحث المنهجي عن الكرة.

قلتُ: «يمكننا العودة».

نظر حوله. «يجب أولًا، وقبل كل شيء، أن نصل إلى كوكب الأرض».

«يمكننا أن نعود ومعنا مصابيح وأحذية ذات مسامير للتسلق، ومئة شيء آخر ضروري».

قال: «نعم».

«ويمكننا أن نعود إلى كوكبنا ونحقق نجاحًا من الذهب».

نظر إلى عتلتي الذهبية، وظلَّ صامتًا لفترة. وقف ويداه متشابكتان خلف ظهره، ينظر إلى الفُوهة. تنهد أخيرًا ثم قال: «أنا الذي وجدتُ الطريق إلى هنا، لكن إيجاد طريق لا يعني دائمًا التحكّم فيه. ماذا سيحدث إذا أخذت سِري إلى كوكب الأرض؟ لا أعرف كيف يمكنني الحفاظ على هذا السر لمدة عام، أو حتى لفترة من العام. سوف ينكشف السرُّ عاجلًا أم آجلًا، حتى إن أعاد آخرون اكتشافه. وعندئذٍ... سوف تكافح الحكومات والقوى من أجل الوصول إلى هنا، وسوف يقاتلون بعضهم، ويقاتلون سكان القمر؛ لن تؤدي معرفة السر إلَّا إلى نشر الحرب ومضاعفة فرصها، وخلال فترة قصيرة، فترة قصيرة جدًّا، إذا قُلت سري، سوف تتناثر في هذا الكوكب، وصولًا إلى أعمق دهاليزه وأروقته، القتلى من البشر. هناك أشياء أخرى مشكوكٌ فيها، لكن ما قلته هو أمرٌ مؤكدٌ. ليست المسألة أن البشر ليس لهم أي فائدة للقمر، ما فائدة القمر للبشر؟ حتى كوكبهم الأرضي نفسه، حوَّلوه إلى ساحة قتال ومسرحٍ لحماقة لا نهائية. إنَّ الإنسان صغيرٌ كعالمه، وقصيرٌ كزمنه، ولا يزال في حياته الصغيرة الكثيرُ الذي يمكنه القيام به. لا! لقد اجتهد العِلم طويلًا في صناعة أسلحة، ليستخدمها الحمقى، وآن الأوان للكفِّ عن ذلك، لندعهم يكتشفون ذلك مرة أخرى، بعد ألف عامٍ».

قلتُ: «هناك أساليب للسرية».

نظر نحوي وابتسم، ثم قال: «على أي حالٍ، لماذا القلق؟ هناك فرصة ضئيلة للعثور على الكرة، وفي الأسفل، الأشياء تختمر. إنها ببساطة تلك العادة البشرية، التحلي بالأمل حتى الموت، هي التي تجعلنا نفكر في العودة. مشاكلنا في بدايتها. لقد أظهرنا العنف لسكان القمر، جعلناهم يعرفون نوعيتنا؛ وفرصنا جيدة مثل نمرٍ أفلت وقتل رجلًا في حديقة هايد بارك، ولا بُدَّ من أن أخبارنا الآن تنتقل في الأسفل من دهليزٍ إلى آخر، وصولًا إلى الأجزاء المركزية... ولن تسمح لنا أيُّ كائناتٍ عاقلة أن نرجع بتلك الكرة إلى الأرض بعد ما رأوه منَّا».

قلتُ: «نحن لا نُحسِّن فرصنا بالجلوس هنا».

وقفنا متجاورين.

قال: «قبل أي شيء، يجب أن ننفصل، علينا أن نلصق منديلًا على هذا النبات الشوكي العالي هنا ونربطه بقوة، ونبدأ منه كنقطة ارتكازٍ للبحث فوق الفوهة. أنت تذهب غربًا، وتتحرك في أنصاف دوائر، جيئة وذهابًا، في اتجاه غروب الشمس. يجب أن تتحرك أولًا وظلك على يمينك، حتى يصبح زوايا قائمة مع اتجاه منديلك، ثم تتحرك وظلُّك على يسارك، وسأفعل الشيء نفسه في اتجاه الشرق. يجب أن نبحث كلَّ أخدودٍ، ونفحص كلَّ منحدرٍ صخري، سنفعل كل ما بوسعنا لإيجاد الكرة. وإذا رأينا السيلينايت، سنختبئ منهم قدر الإمكان. سوف نستعين بالثلج للشُرب. وإذا شعرنا بالحاجة إلى الطعام، لا بُدَّ من قتل أحد عجول القمر إذا استطعنا، وأن نأكل اللحم كما هو نيئًا، وهكذا، سوف يذهب كلٌّ منَّا في طريقه».

«وإذا وجد أحدُنا الكرة؟».

«عليه أن يعود إلى المنديل الأبيض، ويقف إلى جانبه ويشير إلى الآخر».

«وإذا لم يجدها أيٌّ منَّا؟».

نظر كافور إلى الشمس، ثم قال: «نواصل البحث إلى أن يدركنا الليل والبرد».

«لنفترض أنَّ السيليناية وجدوا الكرة وأخفوها؟».

هزَّ كتفيه.

«أو إذا جاؤوا الآن لمطاردتنا؟».

لم يجب.

قلتُ: «من الأفضل أن تأخذ معك هراوة».

هزَّ رأسَه، وحدَّق بعيدًا عني باتجاه الأراضي القفر.

ظل واقفًا للحظة، نظر نحوي بخجلٍ، تردَّد، ثم قال بالفرنسية «إلى اللقاء».

شعرتُ بوخزة عاطفة غريبة. انتابني إحساسٌ حول كيف أغضبنا بعضنا، لا سيما كيف أغضبته، فكرت: «يا إلهي! كان يمكننا التصرف بشكلٍ أفضل!». كنتُ على وشك أن أطلب منه أن نتصافح، فهذا ما شعرتُ به بشكلٍ ما حينذاك، لكنه كان قد ضمَّ قدميه وقفز بعيدًا نحو الشمال. بدأ ينجرف في الهواء مثل ورقة شجر ميتة، ثم هبط بخفة، وقفز مرة أخرى. وقفتُ للحظة أشاهده، ثم توجهتُ غربًا على مضضٍ، استجمعتُ شتاتَ نفسي، وبشعور رجلٍ يقفز في مياهٍ جليدية، اخترتُ نقطة القفز، وانطلقتُ إلى الأمام لاستكشاف نصفي المنفرد من عالم القمر. سقطتُ بشكلٍ أخرق إلى حدٍّ ما بين الصخور. وقفتُ ونظرتُ إلى ما حولي، تسلقتُ لوحًا صخريًّا، وقفزتُ مرة أخرى.

نظرتُ إلى ما حولي لأرى كافور، لكنَّني لم أعثر له على أثرٍ، لكنَّ المنديل ظهر عاليًا بشجاعة على ساريته، أبيض في وهج الشمس.

عقدتُ العزم على ألَّا يغيب ذلك المنديل عن نظري مهما حدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(19)
السيد بدفورد بمفردِه

شعرتُ بعد فترة وجيزة كأنَّني بمفردي دائمًا على سطح القمر، واصلتُ البحثَ بعزيمة لبعض الوقت، لكن الحرارة لا تزال شديدة، وأحسستُ برقة الهواء كطوقٍ حول صدري. وصلتُ إلى حوضٍ أجوف مملوءٍ بأوراق سعفٍ طويلة، وجافَّة، وبُنية اللون، تحيط بحافتِه، جلستُ تحتها لأستريح ويبرد جسمي من الحرارة. كنتُ أنوي أن أستريح لفترة قصيرة؛ وضعتُ هراوتي بجواري، وجلستُ أريح ذقني على يدي. لم أهتم كثيرًا عندما رأيتُ الأشنات الجافة المتشققة تنحسر، وتُظهِر صخور الحوض وما فيها من عروقٍ وكتلٍ متناثرة من الذهب، كما تبرز بين الركام هنا وهناك رؤوسٌ من الذهب المستدير والمتجعد، ما أهمية ذلك الآن؟ سرى في أطرافي وذهني نوعٌ من الخمول، لم أكن أعتقد للحظة أننا سنجد الكرة في هذه الأراضي الجافة الشاسعة. افتقرتُ إلى الدافع لبذل الجهد إلى أن يأتي السيلينايت. ثم رأيتُ ضرورة بذل الجهد، امتثالًا لتلك الحتمية غير المعقولة التي تحث الإنسان، قبل كل شيء، على الحفاظ على حياته والدفاع عنها، على الرغم من أنه قد يحافظ عليها فقط ليموت بشكلٍ أكثر إيلامًا في فترة قصيرة.

لماذا جئنا إلى القمر؟

فكرتُ في الأمر كمشكلة مُحيِّرة، ما هذه الروح الإنسانية التي تحثُّه دومًا على الابتعاد عن السعادة والأمن، من أجل الكدح ووضع نفسه في خطر، بل والمخاطرة ولو بقدرٍ معقولٍ من اليقين بالموت؟ لقد اتَّضح لي هنا في القمر، رغم أنَّه شيءٌ كان يجب أن أعرفه دائمًا، أنَّ الإنسان لم يوجد ببساطة ليتجوَّل وهو آمنٌ، ومستريحٌ، وجيد التغذية، ومستمتعٌ. إذا عرضت الأمر على أي رجلٍ، ليس بالكلمات وإنما على شكل فُرصٍ، سوف يُظهِر أنه يعرف الكثيرَ، إنَّه مدفوعٌ باستمرارٍ للقيام بأشياء غير منطقية، ضد مصلحته وضد سعادته. لا تدفعه نفسه، بل تجبره قوة ما، وعليه أن يمتثل، لكن لماذا؟ لماذا؟ الجلوس هنا وسط ذلك الذهب القمري عديم الفائدة، وسط أشياء من عالم آخر، كل ذلك لأنال الفخر طوال حياتي. وعلى افتراض أنني سأموت منبوذًا على سطح القمر، إذن فَقد فشلتُ تمامًا في رؤية الغرض الذي استهدفته. لم أصل إلى شيءٍ في هذه النقطة، لكن الأمر -على أي حال- أصبح أكثر وضوحًا بالنسبة إليَّ عمَّا كان عليه في حياتي من قبل، أدركتُ أنني لم أكن أخدم هدفًا يخصني، وأنني لم أخدم طوال حياتي في الحقيقة أغراض حياتي الخاصة. أغراض مَن التي كنتُ أخدمها؟ وما هي تلك الأغراض؟ توقَّفتُ عن تأمُّل أسباب مجيئنا إلى القمر، وأخذتْ تأمُّلاتي تجوب مساحة أوسع، لماذا جئتُ حتى إلى كوكب الأرض؟ لماذا كانت لديَّ حياة خاصة على الإطلاق؟ أضعتُ نفسي، في النهاية، في تأمُّلاتٍ بلا نهاية.

أصبحتْ أفكاري غامضة وضبابية، ولم تعُد تقود إلى اتجاهاتٍ محددة، لم أشعر بأي ثِقلٍ أو تعبٍ، ولا أتخيَّل أن يشعر أحدٌ بذلك على سطح القمر، لكنَّني كنتُ مرهقًا للغاية، لذا، رحتُ في النوم.

أعتقد أنَّ النوم أراحني كثيرًا. طيلة غفوتي، كانت الشمس تغرب وعنف الحرارة يخف. أيقظتني أخيرًا ضجةٌ عن بُعد، شعرتُ بالنشاط والقدرة مرة أخرى. فركتُ عيني ومددتُ ذراعي، نهضتُ على

قدمي. كنتَ متيبسًا بعض الشيء، وإنما على أتمِّ استعدادٍ لاستئناف بحثي على الفور. حملتَ العتلتين الذهبيتين، واحدة على كل كتفٍ، وخرجتُ من وادي الصخور ذات العروق الذهبية.

كانت الشمس بالتأكيد أقل انخفاضًا بكثيرٍ، والهواء أكثر برودة. أدركتُ أنني لا بُدَّ نمت لفترة، بدا لي أنَّ لمسة خافتة من الزرقة الضبابية معلقةً عند الجرف الغربي، قفزتُ إلى نتوءٍ صغيرٍ من الصخور، وعاينتُ الفُوهة. لم أرَ أيَّ علاماتٍ على عجول القمر أو السيلينايت، ولم أرَ كافور أيضًا، لكنني رأيتُ منديلي عن بُعدٍ مستقرًّا على شجيرة الأشواك. نظرتُ حولي، ثم قفزتُ إلى الأمام، إلى نقطة الرؤية الملائمة التالية.

سرتُ في نصف دائرة، ثم عُدتُ في نصف دائرة أبعد. لقد بدا الأمر مُجهِدًا وميؤوسًا منه. زادتْ برودة الهواء، وبدا لي أنَّ الظلَّ أسفل الجرف الغربي يتسع. توقفتُ مِرارًا وتكرارًا بهدف الاستطلاع، لم أرَ أي علامة على كافور، ولا أي علامة على السيلينايت. تصورت أنهم لا بُدَّ دفعوا بعجول القمر إلى الداخل مرة أخرى، لأنني لم أرَ أيًّا منهم. أصبحتُ أكثر رغبة في رؤية كافور. اختفتْ الخطوط المُجنحة للشمس، إلى أن أصبحت تقريبًا مسافة قطرها من حافة السماء. لاحقتني فكرة أنَّ السيلينايت سيغلقون أغطيتهم وصماماتهم الآن، ويتركوننا لينقض علينا الليل القمري الذي لا يرحم. رأيتُ أن الوقت حان للتخلي عن البحث، والعودة إلى التشاور. وشعرتُ بضرورة أن نقرر مسارنا بسرعة. لقد فشلنا في العثور على الكرة، ولم يعُد لدينا الوقت للبحث عنها. سوف نضيع بمجرد إغلاق هذه الصمامات وتركِنا في الخارج. سيهبط علينا الليل الفضائي الرهيب: سواد الفراغ، وهو الموت المطلق الوحيد. تقلصَ كياني كلّه من هذه الفكرة. يجب أن نعود إلى داخل القمر مرة أخرى، مع ما في ذلك من خطر القتل. طاردتني صورتنا ونحن نتجمَّد حتى الموت، وطرقِنا بآخر ما لدينا من قوة على صمام الحفرة الهائلة.

لم أعُد أفكر في الكرة، واقتصر تفكيري على العثور على كافور مرة أخرى. كنتُ أكثر ميلًا إلى العودة إلى القمر من دونه، بدلًا من البحث عنه حتى فوات الأوان. كنتُ بالفعل في منتصف الطريق نحو منديلنا، عندما فجأة...

رأيتُ الكرة!

لم أجدها بقدر ما وجدتني، كانت جاثمة في اتجاه الغرب، على مسافة أبعد مما وصلتُ إليه، وقد انعكست من زجاجها الأشعة المنحدرة من الشمس الغارقة، وأعلن فجأة شعاعٌ مبهرٌ عن وجودها. تصورتُ للحظة ما رأيته كان جهازًا جديدًا من أجهزة السيلينايت موجَّهًا ضدنا، ثم أدركتُ الموقف.

رفعتُ ذراعي، وصرختُ بصوتٍ عالٍ، وانطلقتُ نحوها في قفزاتٍ هائلة، أخفقتُ في إحدى قفزاتي، فسقطتُ في وادٍ عميقٍ والتوى كاحلي، وبعدها كنت أتعثَّر في كلِّ قفزة تقريبًا. كنتُ في حالة هياجٍ هستيري، أرتجف بعنفٍ، وتتقطَّع أنفاسي قبل أن أصل إليها بفترة طويلة. اضطررتُ إلى التوقُّف ثلاث مرات على الأقل، وأضع يديّ على جانبي، وعلى الرغم من جفاف الهواء الرقيق، كان العَرق رطبًا على وجهي.

لم أفكر في شيء سوى الكرة، حتى وصلتَ إليها. نسيتَ حتى مشكلتي في معرفة مكان كافور، دفعتني قفزتي الأخيرة عليها ويداي على زجاجها، رقدتُ بجوارها لاهثًا، أحاول عبثًا أن أصرخ: «كافور! ها هي الكرة!». وبعد أن تعافيتُ قليلًا، نظرتُ خلال زجاجها السميك، ورأيتُ الأشياءَ داخلها مبعثرة. انحنيتُ لألقي نظرة أقرب، حاولتُ الدخول، اضطررتُ إلى رفعها قليلًا لإدخال رأسي في الكوة. كانت السدادة اللولبية في الداخل، ولم يحدث مساسٌ لأي شيء، لم يتضرر أي شيء. ظلّت الكرة في مكانها عندما تركناها وخرجنا وسط الثلوج. انشغلتُ تمامًا لفترة في صُنع وإعادة صُنع المخزون في الكرة. وجدتني أرتجف بعنفٍ، كنتُ سعيدًا لرؤية الداخل المظلم المألوف مرة أخرى! لا أستطيع أن أصف لكم مدى سعادتي. تسلَّلتُ إلى الداخل وجلستُ بين الأشياء، نظرتُ من خلال الزجاج إلى عالَم القمر وارتعشتُ. وضعتُ هراوتي الذهبية على الطاولة، وبحثتُ عن الطعام؛ ليس لأنني أرغب في الأكل، وإنما لوجود طعام. فكرتُ أنَّ الوقت قد حان لأخرج وأشير إلى كافور، لكنني لم أفعل ذلك على الفور؛ شيء ما كان يبقيني داخل الكرة.

على أي حالٍ، كلُّ شيء على ما يرام، لا يزال أمامنا وقتٌ للحصول على المزيد من الحجر السحري الذي يمنح المرء سيطرة على الآخرين. الذهب بعيدٌ هناك، وسهل المنال، وبإمكان الكرة السفر ونصفها مملوءٌ بالذهب، كأنَّها فارغة. يمكننا العودة الآن، سادة أنفسنا وعالمنا، وعندئذٍ...

نهضتُ أخيرًا، وبذلتُ جهدًا لأخرج من الكرة. أصابتني رعشة بمجرد خروجي، فقد زادتْ برودة هواء المساء. وقفتُ في التجويف أتطلَّع إلى ما حولي. دققتُ في الشجيرات حولي بعناية فائقة قبل أن أقفز إلى الجرف الصخري بقوة، وقفزتُ مرة أخرى مثل قفزتي الأولى في القمر، لكنني قفزتها الآن دون أي مجهودٍ.

استمرَّ نمو النباتات واضمحلالها على قدم وساقٍ، وتغيَّر مظهر الصخور كله، وإنما لا يزال من الممكن تحديد المنحدر الذي نبتت عليه البذور، والكتلة الصخرية التي رأينا منها الفوهة للمرة الأولى. على أن الشجيرة الشائكة على المنحدر أصبحت الآن بُنية اللون وذابلة، ويبلغ ارتفاعها ثلاثين قدمًا، ويلقي ظلالًا طويلة امتدَّت بعيدًا عن الأنظار، والبذور الصغيرة التي تتجمَّع في فروعها العليا كانت بُنية وناضجة. لقد أنجزتْ عملَها، وأصبحتْ هشَّة وجاهزة للسقوط والتفتت تحت الهواء المتجمد بمجرد حلول الظلام. أمَّا الصبار الضخم، الذي انتفخ ونحن نشاهده، فقد انفجر منذ فترة طويلة وتناثرت بذوره في أركان القمر الأربعة. يا له من ركنٍ صغيرٍ مذهلٍ في الكون، مكان لهبوط البشر!

فكرتُ أنني، يومًا ما، سأكتب شيئًا وأتركه هنا في وسط التجويف. خطر على بالي أنَّ هذا العالم المزدحم في الداخل إذا عرف بأهمية هذه اللحظة، فلسوف يموج باضطراباتٍ غاضبة!

لكنَّهم حتى الآن لا يحلمون حتى بأهمية قدومنا لأنَّهم إذا أدركوا الأمر سوف تمتلئ الفُوهة بالتأكيد بضجيج البحث، بدلًا من سكونها الذي يماثل الموت! بحثتُ عن مكانٍ يمكن أن أشير منه إلى كافور، ورأيتُ رقعة الصخر نفسها التي قفز منها من موقعي الحالي، وكانت لا تزال خالية وجرداء في الشمس. تردَّدتُ للحظة في الابتعاد كثيرًا عن الكرة، ثم خجلتُ من تردُّدي، فقفزتُ.

ومن موقع المراقبة هذا، عاينتُ الفُوهة مرة أخرى. وبعيدًا، عند قمة الظل الهائل الذي ألقيته، كان المنديل الأبيض الصغير يرفرف فوق الشجيرات، كان صغيرًا جدًّا وبعيدًا جدًّا، لكنَّ كافور لم يكن

على مرمى البصر. تصوَّرتَ لا بُدّ وأنه يبحث عني الآن، كان هذا هو الاتفاق، لكنني لم أره في أي مكانٍ.

وقفتُ أنتظر وأراقب، ويداي تظلِّل عيني، مع توقُّعي أن أراه في أي لحظة. من المحتمل أنني وقفتُ هناك لفترة طويلة جدًّا، حاولتُ الصياح، ثم تذكرتُ رِقة الهواء. قمتُ بخطوة مترددة نحو الكرة، لكنَّ الرهبة الكامنة داخلي من السيليناية جعلتني أتردَّدَ في الإشارة إلى مكان وجودي برفع إحدى بطانيات النوم على الشجيرات المجاورة. تفحَّصتُ الفُوهة مرة أخرى.

أشعرني تأثير الفراغ بالبرودة، كان المكان ساكنًا؛ تلاشى تمامًا أيُّ صوتٍ للسيليناية في ذلك العالم السفلي. خيَّم سكونٌ كالموت. ما من صوتٍ أو ظلٍّ للصوت، باستثناء صوت خافت لحركة الشجيرات حولي، في النسيم البسيط الآخذ في النهوض، ويُفجِّر البرد.

أين كافور!

أخذتُ نفسًا عميقًا، ووضعتُ يدي على جانبيْ فمي، «كافور»، صرختُ؛ لكنَّ الصوتَ كان مثل قزمٍ يصيح من بعيدٍ.

نظرتُ إلى المنديل، نظرتُ خلفي إلى الظل المتسع للجرف الغربي، نظرتُ من تحت يدي إلى الشمس، بدت زاحفة عبر السماء.

شعرتُ أنني يجب أن أتصرَّف على الفور، فربما يحتاج كافور إلى إنقاذٍ. خلعتُ سترتي وعلَّقتُها كعلامة فوق الشجيرات الشائكة ورائي، ثم انطلقتُ في خطٍّ مستقيم نحو المنديل. ربما كان على بُعد بضعة أميالٍ؛ أي مئات قليلة من القفزات والخطوات. لقد سبق أن حَكيتُ كيف يشعر المرء بأنه مُعلَّقٌ خلال تلك القفزات القمرية. كنتُ أبحث عن كافور طيلة كل لحظات التعليق، وأتعجب عن سبب اختفائه. وكنت أشعر، مع كل قفزة، بغروب الشمس خلفي. وبعد كل مرة ألمس فيها الأرض، أميل إلى الكف عن القفز والعودة.

أوصلتني القفزة الأخيرة إلى المنخفض الذي يقع أسفل منديلنا، وبعد خطوة واحدة، أصبحتُ أقف بالقرب من نقطة المراقبة السابقة، على بُعد أذرع منها. وقفتُ مستقيمًا وتفحصتُ العالَم حولي، بين قضبان الظل المطولة. بعيدًا، أسفل منحدر طويل، توجد فتحة النفق الذي فررنا منه، كان ظلي يمتد نحوه، ويلمسه مثل إصبع الليل.

ما من علامة على كافور، وما من صوتٍ في السكون، وإنما زادت فقط حركة الظلال وتموجات الأشجار المنخفضة والظلال. وفجأة ارتجفتُ بعنفٍ، بدأت: «كاف...»، ثم أدركتُ مرة أخرى عدم جدوى الصوت البشري في هذا الهواء الرقيق، صمت، صمت الموت.

ثم رأت عيناي شيئًا، شيئًا صغيرًا يرقد، ربما على مسافة خمسين ياردة أسفل المنحدر، وسط مجموعة من الأغصان الملتوية والمكسورة. ما هذا؟ عرفتُ، رغم أنَّني لسببٍ ما لا أعرف. اقتربتُ، ووجدتها قبعة الكريكيت الصغيرة التي يرتديها كافور، لم ألمسها، بل وقفتُ أنظر إليها.

ثم رأيتَ الأغصان المتناثرة حولها قد تحطمت وهناك من داس عليها بقوة. تردّدتَ، وتقدمتَ نحوها، وأخذتها.

وقفتُ وقبعة كافور في يدي، أحدِّق بالنباتات والأشواك المُداسة حولي. وجدتُ على بعضها مسحاتٍ صغيرة من شيء مظلم، شيء لم أجرؤ على لمسه. وعلى بُعد عشر ياردات، ربما، رفع النسيم الصاعد شيئًا إلى مجال رؤيتي، شيئًا صغيرًا، وأبيض بشكلٍ واضحٍ.

كانت قطعة صغيرة من الورق مكوَّرة بإحكام، كأنَّما كان هناك من يمسكها بإحكام، أمسكتُها، ووجدتُ عليها بقعًا حمراء. لمحتُ عليها علاماتٍ باهتة بقلمٍ رصاصٍ، فردتُ الورقة، ورأيتُ كتابة متقطعة ومكسورة، تنتهي بخطٍّ ملتوٍ على الورقة.

بدأتُ فكَّ شفرة الكتابة.

بدت الكتابة واضحة: «لقد أُصِبت في ركبتي، وأعتقد أنها مجروحة؛ ولا أستطيع الركض أو الزحف».

ثم أقل وضوحًا: «ظلُّوا يطاردونني فترة، وهي مجرد مسألة» - يبدو أنَّ كلمة «وقت» كُتِبت هنا ثم مُحيت لصالح شيء غير مقروء - «قبل أن يمسكوا بي، إنَّهم يتفوقون عليَّ».

ثم أصبحت الكتابة متشنجة: «يمكنني سماعهم»، خمَّنت أنه يعني المطاردة، ثم أصبحتْ الكتابة غير مقروءة على الإطلاق لمساحة، ثم جاءت سلسلة صغيرة من الكلمات، كانت مُمَيَّزة بوضوح: «مجموعة من نوعٍ مختلفٍ تمامًا من السيلينايت، الذين يبدو أنهم يوجهون الـ...»، أصبحت الكتابة مجرد ارتباك متسرعٍ مرة أخرى.

«رؤوسهم أكبر، أكبر بكثيرٍ، وأجسامهم أكثر نحافة، وأرجلهم قصيرة جدًّا، يُصدِرون أصواتًا لطيفة، ويتحركون بشكلٍ مُنظمٍ...».

«وعلى الرغم من أنني جريحٌ وعاجزٌ هنا، إلَّا أنَّ مظهرهم لا يزال يمنحني الأمل». هذا هو كافور. «لم يُطلِقوا أسلحتهم نحوي، ولم يحاولوا... الإصابة، أنوي...».

ثم جاء خطٌّ ملتوٍ مفاجئ بالقلم الرصاص عبر الورقة، وعلى ظهرها وحوافها توجد دماءٌ!

وبينما أقف غبيًّا ومتحيرًا، وهذا الأثر المُفاجئ، لمس يدي للحظة شيءٌ ناعمٌ وخفيفٌ وباردٌ، واختفى، ثم انجرف شيءٌ في الظل، بقعة بيضاء صغيرة. كانت قطعة ثلج صغيرة، أول قطعة ثلج، تباشير الليل.

نظرتُ إلى أعلى، كانت السماء قد أظلمت إلى حدِّ السواد تقريبًا، كما امتلأت بحشدٍ كبيرٍ من النجوم الساهرة. نظرتُ شرقًا؛ لمس لونٌ برونزي معتمٌ ضوء ذلك العالم الذابل. وغربًا؛ سرق الآن ضبابٌ أبيض سميكٌ نصفَ حرارة الشمس وروعتها، ولمست الشمس حافة الفوهة وأخذت تغوص بعيدًا عن الأنظار. أما جميع الشجيرات والصخور الشوكية والمتداعية، فقد وقفت في اضطرابٍ متخذة أشكالًا سوداء. وفي بحيرة الظلام الهائلة غربًا، كان إكليلٌ واسعٌ من الضباب يغرق. هبَّت رياح باردة جعلت

الفوهة برمتها ترتجف، وفجأة، للحظة، أصابتني الثلوج المتساقطة، وأصبح العالم كله حولي رماديًّا ومعتمًا.

سمعتُ بعد ذلك صوتًا، ليس بارتفاع وحِدَّة الصوت الذي سمعناه في البداية، وإنما كان ضعيفًا وخافتًا مثل صوتٍ يحتضر؛ ذلك الطبل، نفس الطبل الذي يرحب بقدوم النهار: بوم! بوم! بوم!

تردَّد صدى الصوت حول الفُوهة، بدا يخفق مع خفقات النجوم الكبيرة، غرق هلال قرص الشمس الأحمر الدموي مع الخفقان: بووم! بوم! بوم!

ماذا حدث لكافور؟ وقفتُ بغباءٍ طوال صوت الدق، وأخيرًا توقف.

وفجأة أُغلِقت فتحة النفق، أُغلِقت مثل عين تُغلَق، واختفت عن الأنظار.

أصبحتُ وحيدًا بالفعل.

أصبح الفضاء الأبدي، فوقي، وحولي، وبالقرب مني، يعانقني أقرب من أي وقتٍ مضى، ذلك الذي كان من قبل بمثابة البداية، التي تنتصر على النهاية، ذلك الفراغ الهائل الذي لم يظهر خلاله كل الضوء والحياة والوجود سوى كرونقٍ رقيقٍ متلاشٍ لنجمٍ يسقط، البرد، السكون، الصمت - ليلة الفضاء اللا نهائية والأخيرة.

أصبح الشعور بالعزلة والخراب شعورًا بوجودٍ ساحقٍ ينحدر نحوي، وكاد أن يمسني.

«لا»، صحتُ. «لا، ليس الآن! ليس الآن! انتظر! انتظر! أوه، انتظر!»، ارتفع صوتي إلى صرخة. رميتُ الورقة المتجعدة، واندفعتُ مرة أخرى إلى القمة لأحدِّد اتجاهي. وبكلِّ الإرادة التي كانت داخلي، قفزتُ نحو العلامة التي تركتها من قبل، قاتمة وبعيدة الآن في هامش الظل.

قفزة، قفزة، قفزة، وكل قفزة كانت بسبعة عصورٍ.

غاص أمامي الجزء الشاحب من الشمس، وتقدَّم الظلُّ مكتسحًا ليغطي الكرة قبل أن أتمكَّن من الوصول إليها. كنتُ على بُعد ميليْن منها، أمامي مئة قفزة أو أكثر، والهواء حولي يزداد رقة مثلما يحدث له تحت مضخة هواء، والبرد يجتاح مفاصلي. لو مُتُّ حينذاك، لمُتُّ وأنا أقفز. انزلقتْ قدمي مرة، ثم مرة أخرى، على الثلج المتراكم، ما أدى إلى قِصر قفزاتي. وسقطتُ بين الشجيرات، فتحطمتْ وتهشَّمتْ متحولة إلى رقائقَ مغبرة ولا شيء. وتعثَّرتُ مرة، وسقطتُ، وتدحرجتُ رأسًا على عقب إلى أخدودٍ، وظهرت كدماتٌ ونزفتُ، وارتبكتُ فيما يتعلَّق باتجاهي.

لكن مثل تلك الحوادث لم تكن شيئًا بالنسبة للفترات الفاصلة، تلك الوقفات الفظيعة التي انجرفت خلالها عبر الهواء، نحو ذلك المدِّ المتدفق من الليل. أصبح تنفُّسي يصدر صوتًا مثل صخب المزامير، كأنَّما سكاكين تطعن في رئتيَّ. بدا قلبي كأنَّه ينبض في قمة مخي، «هل سأصل إلى الكرة؟ يا السماء! هل سأصل إليها؟».

أصبح كياني مكروبًا.

«استلقِ!»، صرخ ألمي ويأسي، «استلقِ!».

كلما كافحتَ لأقترب، بدا الأمر أبعد بفظاعة، كنتَ مُخَدّرًا، تعثرتَ، أصبتَ بكدمة، وجُرِحتَ، لكنني لم أنزف.

رأيتُ الكرة.

سقطتُ على أطرافي الأربعة، ورئتاي تشهقان.

زحفتُ، تجمَّع الصقيع على شفتيَّ، وتدلَّت رقاقات الجليد من شاربي، تحوَّل لوني إلى الأبيض، في هذا الغلاف الجوي المتجمِّد.

كنتُ على بُعد 12 ياردة من الكرة، أصبحت عيناي معتمتين. «استلقِ!»، صرخ اليأس، «استلقِ!».

لمستُ الكرة ثم توقفتُ. «فات الأوان!»، صرخ اليأس: «استلقِ!».

جاهدتُ بصلابة. كنت عند كوة الدخول، شخصًا مُخَدَّرًا ونصف ميت، والثلوج تحيط بي. جررتُ نفسي إلى داخل الكرة، حيث يكمن هواءٌ أكثر دفئًا بقليلٍ.

رقصتْ رقائق الثلج ورقائق الهواء حولي، وأنا أحاول بيدي المرتعشتين دفعَ صمام الإغلاق ولفَّه بإحكام وقوة. تنهدتُ. «سوف أنجح»، قلتُ وأسناني تصطك. ثم تمكَّنتُ، بأصابع مرتعشة وشعور بالضعف، من إغلاق الغطاء.

خلال محاولة تعامُلي مع المفاتيح -حيث لم أستخدمها من قبل- رأيتُ عبر الزجاج المُعتم نتيجة لقطرات البخار، شرائطَ حمراء ساطعة للشمس الآخذة في الغوص، وهي ترقص وتومض خلال العاصفة الثلجية، ورأيتُ الأشكال السوداء للشجيرات التي تزداد سُمكًا وانحناء وانكسارًا تحت الثلج المتراكم. زادت الثلوج سُمكًا وسوادًا في مواجهة الضوء. ماذا لو لم تسعفني المفاتيح الآن؟ ثم سمعتُ صوتَ نقرٍ لشيءٍ تحت يدي، وفي لحظة اختفتْ عن عيني تلك الرؤية الأخيرة لعالَم القمر، وأصبحتُ في صمتٍ وظلام الكرة التي تبحر بين الكواكب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(20)

السيد بدفورد في الفضاء اللا نهائي

كان الأمرُ كأنَّني قُتِلتُ. يمكنني أن أتخيَّل بالفعل أنَّ رجلًا قُتِل فجأة وبعنفٍ سوف يشعر بما شعرتُ به. كنت أشعر في اللحظة نفسِها بشغف الوجود والخوف المؤلم، وأشعر في اللحظة التالية بالظلام والسكون، لا ضوء ولا حياة ولا شمس، لا قمر ولا نجوم، الفراغ اللا نهائي. شعرتُ بالدهشة والذهول والارتباك، على الرغم من أنني ساهمتُ في صُنع الكرة بنفسي، وعلى الرغم من أنني تذوقتُ بالفعل تأثيرَ العمل مع كافور ومصاحبته. بدا أنَّني محمولٌ إلى أعلى في ظلامٍ هائلٍ، كانت أصابعي تطفو على الأزرار، وكنتُ مُعلَّقًا كأنَّني دُمرت، وأخيرًا، بهدوءٍ ولطفٍ شديدينً، وصلتُ إلى حزمة الأمتعة، والسلسلة الذهبية، والعتلات التي انجرفت إلى منتصف الكرة.

لا أعرف كم استغرق هذا الانجراف من وقتٍ، ففي الكرة، أكثر حتى من على سطح القمر، كان الشعور بزمن كوكب الأرض بلا جدوى. عندما لمستُ حزمة الأمتعة، شعرتُ أنني استيقظتُ من نوم بلا أحلام. أدركتُ على الفور أنني إذا أردتُ أن أبقى مستيقظًا وعلى قيد الحياة، لا بُدَّ أن أحصل علىً ضوءٍ أوً أفتح نافذة حتى يمكنني الرؤية، علاوة على ذلك، كنتُ أشعر بالبرد. تركتُ حزمة الأمتعة، وتشبثتُ بالحبال الرقيقة داخل الزجاج، ثم زحفتُ حتى وصلتُ إلى حافة كوة الدخول، وهكذا تمكنتُ من تحديد اتجاهات الضوء وأزرار الستائر. دفعتُ نفسي بقوة، وحلَّقتُ مرة واحدة حول حزمة الأمتعة. أفزعني شيءٌ كبيرٌ ومهلهلٌ، ينجرف طليقًا؛ فأمسكتُ بالحبل وكان قريبًا من الأزرار، ووصلتُ إليه. أشعلتُ المصباحَ الصغير أولًا، لأرى ما الذي اصطدمتُ به، اكتشفتُ أنَّ النسخة القديمة من صحيفة «لويدز نيوز» انزلقت من مكانها وتهيم في الفراغ. أخرجني هذا من الشعور باللا نهائية إلى أبعادي الصحيحة مرة أخرى، وجعلني أضحك وألهث لبعض الوقت، وأوحى لي بفكرة الاستعانة بالقليل من الأكسجين من إحدى الأسطوانات. بعد ذلك أشعلتُ المِدفأة حتى شعرتُ بالدفء، ثم تناولتُ الطعام. بدأتُ بعدها التعامُل بحذرٍ شديدٍ مع ستائر الكافوريت، لمعرفة مدى إمكانية التخمين كيف تتحرك الكرة.

فتحتُ أوَّل ستارة ثم أغلقتُها في الحال. بقيتُ لفترة طافيًا، ومُصابًا بعمى مؤقتٍ من أشعة الشمس. بعد قليلٍ من التفكير، بدأتُ أفتح النوافذ التي تقع على زاوية قائمة من تلك الستارة؛ رأيتُ القمرَ هلالًا ضخمًا، والأرضَ هلالًا صغيرًا خلفه، اندهشتُ من مدى بُعدي عن القمر. أدركتُ أنَّ الأمرَ لا يقتصر على وجود القليل أو لا شيء من «ضربة الانطلاق» التي قدَّمها لنا الغلاف الجوي لكوكب الأرض عندما بدأنا، لكنَّ «التحليق» العرضي لدوران القمر سيكون أقل بثمانية وعشرين مرة على الأقل من دوران كوكب الأرض. توقعتُ أن أجد نفسي مُعلَّقًا فوق فوهتنا، عند حافة الليل، لكن ذلك كله أصبح الآن مجرد جزءٍ من خطوط الهلال الأبيض العريضة الذي ملأ السماء. وكافور...؟

لقد أصبح بالفعل متناهي الصغر.

حاولتُ أن أتخيَّل ما قد يحدث له، لكنَّني في ذلك الوقت لم أستطع التفكير في شيء سوى الموت. تخيَّلتُ أنني أراه، منحنيًا ومهشَّمًا عند سفح سلسلة عالية لا نهائية من الضوء الأزرق، وتحملق حوله

تلك الحشرات الغبية.

بعد تلك اللمسة المُلهِمة من الصحيفة الهائمة، استعدتُ لفترة قدرتي العملية مرة أخرى. أصبح واضحًا أمامي بجلاءٍ أنَّني يجب أن أعود إلى كوكب الأرض، لكنني، بقدر ما استطعت أن أرى، كنتُ أنجرف بعيدًا عنها. بغض النظر عما حدث لكافور، حتى لو كان لا يزال على قيد الحياة -وهو الشيء الذي يصعب تصديقه بعد القصاصة الورقية الملطخة بالدماء- فقد كنتُ عاجزًا عن مساعدته. إنَّه هناك، حيًّا أو ميتًا تحت عباءة تلك الليلة الخالية من الأشعة، ويجب أن يبقى على الأقل حتى أتمكَّن من استدعاء زملائنا البشر لمساعدته، هل يجب أن أفعل ذلك؟ شيء من هذا القبيل كان يدور في ذهني، أن أعود إلى الأرض، إن أمكن، ثم يتحدد الأمر بناء على اعتباراتٍ حكيمة، إمَّا لإظهار الكرة وشرحها لعددٍ قليلٍ من الأشخاص الذين يمكنهم تكتُّم الأمر والعمل معهم، أو الاحتفاظ بسري، وبيع ذهبي، والحصول على أسلحة، وإمدادات ومساعدة، ثم العودة ومعي هذه المميزات للتعامُل على قدم المساواة مع تلك الكائنات القمرية الواهية لإنقاذ كافور، إذا كان ذلك لا يزال ممكنًا. وعلى أي حالٍ، الحصول على إمدادات كافية من الذهب كي تقوم إجراءاتي اللاحقة على أساسٍ أكثر حزمًا. لكن ذلك كله مجرد أملٍ بعيدٍ؛ يجب أولًا أن أعود إلى كوكب الأرض.

بدأتُ التفكيرَ لأقرر كيف يمكنني العودة إلى كوكب الأرض، ومع بذل كل جهدٍ لحل تلك المشكلة، توقَّف قلقي بشأن ما يجب أن أفعله عندما أعود، وأخيرًا أصبح شاغلي الوحيد هو العودة.

كُنتُ في حيرة، لكنَّني أدركتُ أخيرًا أنَّ أفضل فُرصي تكمن في العودة مرة أخرى في اتجاه القمر، إلى أقرب موقع أجرؤ على الوصول إليه، لكي أحشد السرعة، ثم أغلق النوافذ، وأنطلق مُحلِّقًا. وعندما أبتعد، يمكنني فتح النوافذ في اتجاه كوكب الأرض، وأقلع بسرعة جيدة نحو الوطن. ولكن، ليس بمقدوري أن أتوقع ما إذا كنتُ سأصل إلى كوكبي الأرضي بهذه الطريقة، أو سأجد نفسي ببساطة أدور في منحنى قطعي أو مكافِئ أو غيره. جاءني إلهامٌ سعيدٌ لاحقًا؛ فتحتُ نوافذ بعينها نحو القمر، الذي ظهر في السماء أمام كوكب الأرض، ثم حوّلت مساري جانبًا لأبتعد عن الأرض، التي أصبح واضحًا أنني لا بُدَّ أن أتركها خلفي. لقد انغمستُ في قدرٍ هائلٍ من تعقيدات التفكير حول هذه المشاكل، لأنني لستُ عالِم رياضيات، لكنَّني على يقينٍ أن حُسنَ حظي أكبر بكثيرٍ من تفكيري، وهو ما مكَّنني من الوصول إلى كوكب الأرض. لو كنتُ أعرف حينها، كما أعرفُ الآن، أنَّ الفرص الرياضية كانت ضدي، أشك في أنَّ لمس الأزرار للقيام بأي محاولة كان ليثير قلقي. وبعد أن قررتُ ما اعتبرته الشيء الذي يجب القيام به فتحتُ كلَّ نوافذي المتجهة نحو القمر، وجلستُ القرفصاء. رفعني الجهد لبعض الوقت عدة أقدام أو نحو ذلك في الهواء، وبقيت مُعلَّقًا هناك بطريقة غريبة. انتظرت الهلال أن يكبر، حتى شعرتُ أنني قريبٌ كفاية من الأمان؛ لأغلق النوافذ، وأحلِّق عبر القمر بالسرعة التي حصلتُ عليها منه، إن لم أحطمه، وهكذا أتجه نحو الأرض.

وهذا ما فعلته.

شعرتُ أخيرًا أنَّ بداية انطلاقي نحو القمر كانت كافية، حجبت رؤية القمر عن عيني. وأتذكر الآن أنني كنت في حالة صفاء ذهني لا يُصدَّق، خالية من القلق أو أي شيء حزينٍ، وجلستُ يقظًا في تلك البقعة الصغيرة من المادة في الفضاء اللا نهائي، التي ستستمر حتى أصل إلى الأرض. أصبحت

الكرة دافئة بشكلٍ مقبولٍ بسبب السخان، وكان الهواء منتعشًا بالأكسجين. وباستثناء ذلك الألم الخفيف في رأسي، الذي صاحبني دائمًا أثناء غيابي عن الأرض، شعرتُ براحة جسدية كاملة. أطفأتُ الضوء مرة أخرى، خشية أن يخذلني في النهاية. أصبحتُ في الظلام، باستثناء تألق كوكب الأرض وبريق النجوم تحتي. ساد الصمت والسكون تمامًا، لدرجة أنني شعرتُ بأنني ربما الكائن الوحيد في الكون، ومع ذلك، ويا لَلَغرابة، لم يكن لديَّ شعورٌ بالوحدة أو الخوف أكثر مما لو كنتُ مستلقيًا في السرير على كوكبي الأرضي. يبدو ذلك كله غريبًا الآن؛ فخلال ساعاتي الأخيرة في تلك الفوهة القمرية، كان شعوري بالوحدة المطلقة عذابًا.

شيءٌ لا يُصدَّق، فهذه الفترة الزمنية التي قضيتُها في الفضاء لا تتناسب وأي فترة زمنية أخرى في حياتي، بدت أحيانًا كأنني جلستُ أبديات غير قابلة للقياس، مثل الآلهة على ورقة من أوراق نبات اللوتس، وبدت في أحيانٍ أخرى كأنَّما توقُّفٌ لحظيٌّ حدث وقفزتُ من القمر إلى كوكب الأرض. وفي الحقيقة، كانت المدة في مجملها بضعة أسابيع بزمن كوكب الأرض، لكنني قضيتُ تلك الفترة في حذرٍ، وقلقٍ، وجوعٍ أو خوفٍ. كنتُ أطفو، مُفكرًا برحابة وحرية غريبتين في كلِّ ما مررتُ به، وفي مجمَل حياتي ودوافعي، وفي المواضيع السرية المتعلقة بوجودي. شعرتُ أنني أصبحتُ أكبر وأكبر، فقدتُ كلَّ إحساسٍ بالحركة؛ تضمنتْ أفكاري فكرة العوم وسط النجوم، ويصاحبني دومًا الشعور بضآلة كوكب الأرض والضآلة اللا نهائية لحياتي عليه.

لا يمكنني شرح الأشياء التي تموج في ذهني، لا شكَّ أنَّه يمكن عزوها جميعًا، سواء بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، إلى الظروف المادية الغريبة التي كنتُ أعيشها. كتبتُ تلك الأشياء هنا لمجرد قيمتها، ودون أي تعليقٍ. وكان أبرزها هو الشك الذي تغلغل إلى هويتي، أصبحتُ، إن جاز التعبير، منفصلًا عن بدفورد؛ نظرتُ إلى بدفورد بازدراءٍ، كشيء عَرَضي تافهٍ تصادف أن أتواصل معه. رأيتُ بدفورد في العديد من العلاقات كأحمق أو وحشٍ مسكينٍ، حيث كنتُ أميل حتى الآن إلى النظر إليه بفخرٍ كبيرٍ كشخصٍ مفعم بالحيوية أو بالأحرى فاعل. لم أره كمجرد شخصٍ أحمق، وإنما بوصفه ابنًا لأجيالٍ عديدة من الحمقى. استعرضتُ أيام دراسته، وبداية رجولته، وأول لقاء له مع الحب بقدر ما يمكن للمرء أن يستعرض وقائع حياة نملة في الرمال. لا يزال شيء من فترة النقاء الفكري تلك مُعلقًا للأسف، وأشك أنني سأتمكَّن من استعادة كامل الرضا الذاتي الذي نعمتُ به في حياتي المبكرة. لكن الأمور لم تكن في ذلك الوقت مؤلمة على الأقل؛ إذ كنتُ أتمتَّع باقتناعٍ غريبٍ بأنني، في واقع الأمر، لم أكن بدفورد أكثر مما كنتُ أيَّ شخصٍ آخر، وإنما مجرد عقلٍ يعوم في صفاء الفضاء الساكن، لماذا تزعجني عيوب بدفورد؟ لم أكن مسؤولًا عنه أو عنها.

كافحتُ لفترة ضد هذا الوهم البشع حقًّا، حاولتُ استدعاءَ ذكرى لحظات مفعمة بالحيوية، بالمشاعر الرقيقة أو القوية، لمساعدتي. شعرتُ أنني إذا تمكنتُ من تذكُّر الإحساس بوخزة ألم حقيقية واحدة، سيتوقف هذا الشعور المتزايد بالانفصال. لكنني لم أستطع. رأيتُ بدفورد يندفع عبر شَّارع تشانسري لين، مرتديًا قبعة على مؤخرة رأسه، وذيول معطفه تتطاير، في طريقه إلى اختبارٍ عامٍّ. رأيته يتفادى ويصطدم، وحتى يُلقي التحية، بمخلوقاتٍ صغيرة أخرى مماثلة في ذلك الحشد منَ الناس. أنا؟ رأيتُ بدفورد في المساء نفسِه، في غرفة الجلوس عند سيدة معينة، وقبعته على الطاولة بجانبه تحتاج بشدة إلى التنظيف، وكان يبكي. أنا؟ رأيته مع تلك السيدة في مواقف وانفعالاتٍ مختلفة - لم أشعر أبدًا بمثل

هذا الانفصال من قبل... رأيته مسرعًا إلى ليم لكتابة مسرحية، ومُخاطِبًا كافور، ويرتدي قميصًا خفيفًا وهو يعمل على تصنيع الكرة، ويخرج إلى كانتربري لأنَّه يخشى المجيء! أنا؟ لا أصدق.

ما زلت أفكر أنَّ هذا كلَّه مجرد هلوسة بسبب عزلتي، وحقيقة أنني فقدتُ كلَّ سيطرة وإحساسٍ بالمقاومة. سعيتُ لاستعادة هذا الإحساس من خلال الارتطام بأنحاء الكرة، ومن خلال ضم يديَّ وشبكهما معًا. قمتُ أيضًا، من بين أمورٍ أخرى، بإشعال الضوء وأمسكتُ النسخة الممزَّقة من جريدة لويدز، وقرأتُ تلك الإعلانات الواقعيةً التي تبعث على الإقناع حول دراجة كوتاوايٍ، والرجل ذي الوسائل الخاصة، والسيدة التي تعاني محنة وتبيع تلك «الشوك والملاعق». ما من شكٍّ في وجودهم بالفعل، وقلتُ: «هذا هو عالَمك، وأنت بدفورد، وستعود للعيش بين هذه الأشياء لبقية حياتك». لكنَّ الشكوك في داخلي ظلَّت تجادل: «لستَ أنتَ الذي يقرأ، إنَّه بدفورد، وأنتَ لستَ بدفورد، تعرف ذلك. وهنا يكمن الخطأ».

«يا إلهي!»، صحتُ، «وإذا لم أكن بدفورد، فمن أنا؟».

لا يوجد ضوءٌ قادمٌ في هذا الاتجاه، على الرغم من أنَّ أغرب الأوهام أخذتْ تتدفَّق إلى ذهني، شكوك بعيدة غريبة، مثل الظلال التي ننظر إليها من بعيدٍ. تصورتُ أنَّني لم أكن بالفعل شيئًا خارج العالم فقط، وإنما خارج كل العوالم، وخارج المكان والزمان، وأنَّ بدفورد هذا المسكين ليس سوى ثقب الباب الذي أنظر من خلاله إلى الحياة.

بدفورد! على الرغم من أنَّني تبرأتُ منه، فقد كنت هناك مرتبطًا به بالتأكيد، وكنتُ أعرف أنَّني أينما كنت أو أيًّا من أكون، لا بُدَّ أن أشعر بضغط رغباته، وأتعاطف مع أفراحِه وأحزانِه إلى أن تنتهي حياته. ومع موت بدفورد، ماذا بعد ذلك؟

تكفي هذه المرحلة المهمة من تجاربي! وأحكيها هنا ببساطة لأُوضح كيف أنَّ عزلة المرء ورحيله عن هذا الكوكب لا يمسَّان وظائف كل عضو من أعضاء جسمه وإحساسها فحسب، بل أيضًا نسيج العقل ذاته، مع اضطرابات غريبة وغير متوقعة. طوال الجزءِ الرئيس من تلك الرحلة الفضائية الهائلة، ظللتُ أفكر في مثل هذه الأشياء غير المادية، تفكيرًا مفكَّكًا وفاترًا، تحيط به غمامة من جنون العظمة، وسط النجوم والكواكب في فراغ الفضاء. ولم يقتصر الأمر على العالم الذي أعود إليه، وإنَّما أيضًا كهوف السيلينايت ذات الإضاءة الزرقاء، ووجوههم التي تشبه الخوذة، وآلاتهم العملاقة الرائعة، ومصير كافور الذي ذهب عاجزًا إلى هذا العالم، بدا كلُّ ذلك دقيقة لا نهائية، وأشياء تافهة برمتها بالنسبة لي.

وأخيرًا بدأتُ أشعر بالجاذبية الأرضية، التي تسحبني مرة أخرى إلى حياة البشر الفعلية، وعندئذٍ أصبح أكثر وضوحًا بالنسبة إليَّ أنَّني كنتُ بالتأكيد بدفورد، وأنني أعود، بعد مغامراتٍ مذهلة، إلى عالَمنا، وبحياتي التي كان من الأكثر ترجيحًا أن أفقدها خلال رحلة العودة، بدأتُ أستعد لمعرفة كيفية الهبوط على سطح كوكب الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(21)

السيد بدفورد في ليتلستون

كان مسار طيراني موازيًا للسطح عندما وصلتُ إلى طبقات الهواء العلوية. بدأتْ درجة حرارة الكرة في الارتفاع على الفور. كنتُ أعرف أنني يجب أن أهبط في الحال. امتدتْ مساحة شاسعة من البحر على مسافة بعيدة في الأسفل، في الشفق المظلم. فتحتُ كلَّ نافذة استطعتُ فتحَها، وهبطتُ، من أشعة الشمس إلى المساء، ومن المساء إلى الليل. أخذتْ الأرض تكبر وتكبر، وتبتلع النجوم، وامتدَّ نحوي حجابُ السحاب الفضي الشفاف الذي تضيئه النجوم. وأخيرًا لم يعُد العالَم يبدو كرويًّا، بل مُسطَّحًا، ثم مُقعَّرًا، لم يعُد كوكبًا في السماء، بل عالَم البشر. أغلقتُ جميعَ النوافذ في اتجاه كوكب الأرض، ليس إغلاقًا تامًّا، بل تركتُ قرابة بوصة مفتوحة، وهبطتُ بسرعة متباطئة. اندفعتْ المياه الآخذة في الاتساع لمقابلتي، اقتربت جدًّا لدرجة أنني كنتُ أرى لمعان الأمواج المُظلِم. أصبحتْ الكرة شديدة الحرارة، أغلقتُ الشريطَ الأخير من النافذة، وجلستُ متجهمًا أعضُّ أصابع يدي، في انتظار الارتطام.

ارتطمتْ الكرة بالماء، وانطلق رذاذٌ هائلٌ، لا بُدَّ أنَّه تدفَّق عاليًا. فتحتُ ستائر الكافوريت عندما تناثرتْ المياه. بدأتْ الكرة تغوص على نحوٍ متباطئ، ثم شعرتُ أنَّها تضغط على قدمي، ثم أخذت ترتفع مرة أخرى كالفقاعة. وأخيرًا كانت الكرة تطفو وتهتز على سطح البحر، وانتهتْ رحلتي الفضائية.

كانت الليلة مظلمة وملبَّدة بالغيوم. ظهرت عن بُعد نقطتان بلونٍ أصفر؛ ما يدل على مرور سفينة. كما ظهر، على مسافة أقرب، وهجٌ أحمر ثم اختفى. لو لم تنفد كهرباء مصباحي، لتمكَّنتُ من إرسال إشارة لإنقاذي في تلك الليلة. وعلى الرغم من الإرهاق المُفرِط الذي بدأتُ أشعر به، كنتُ مُتحمسًا، ولفترة آملًا، بطريقة محمومة وغير صبورة، حتى تنتهي رحلَتي.

توقفتُ أخيرًا عن الحركة، وجلستُ ومعصمي على ركبتي، أحدق بضوء أحمر بعيدٍ، تمايل صعودًا وهبوطًا، واهتزَّ، وتأرجح. انتهى حماسي. أدركتُ أنني سوف أقضي ليلة أخرى على الأقل في الكرة، شعرتُ بإرهاقٍ وإجهادٍ بلا حدودٍ؛ وهكذا غفوتُ.

أيقظني تغييرٌ في إيقاع حركتي. نظرتُ من خلال الزجاج، ورأيتُ أنني جنحتُ على رمالٍ ضحلة ضخمة. كما رأيتُ عن بُعد منازلَ وأشجارًا، فضلًا عن سفينة مشوهة في اتجاه البحر، مُعلقة بين البحر والسماء.

وقفتُ وترنَّحتُ. كان الخروج هو رغبتي الوحيدة. كانت الكوة في الأعلى، كافحتُ مع الصامولة، وانفتحت الكوة ببطءٍ. دخل الهواء مغردًا مرة أخرى، كما كان يُغرد من قبل. لكنني لم أنتظر هذه المرة إلى أن ينتهي ضبط الضغط. فتحتُ النافذة في اللحظة التالية وخرجتُ، خرجتُ تحت سماء كوكب الأرض القديمة المألوفة. ضرب الهواء صدري، فلهثتُ. سقطتْ مني الصامولة الزجاجية.

صرختَ، ووضعتَ يدي على صدري، ثم جلستَ. بقيتَ متألمًا لفترة، ثم أخذتَ نفسًا عميقًا، وأخيرًا أمكنني النهوض والتحرك مرة أخرى.

حاولتُ دفعَ رأسي من خلال الكوة، تدحرجتْ الكرة. شعرتُ كأنَّ شيئًا ما سحب رأسي إلى أسفل بمجرد أن ظهرتُ خارج الكوة. تراجعتُ بحِدة، وإلا كنتُ سأتعلق ووجهي تحت الماء. وبعد بعض الانحناء والدفع، تمكنتُ من الزحف على الرمال، حيث لا تزال الأمواج المتراجعة تتقدم نحوها ثم تنحسر.

لم أحاول الوقوف. بدا لي أنَّ جسدي يتغيَّر فجأة ليصبح من معدن الرصاص. أصبحتُ الآن في قبضة أمنا الأرض، بلا تدخلٍ من الكافوريت. جلستُ غير مكترث بالمياه التي تغمر قدمي.

كان الوقت فجرًا، فجرًا رماديًّا ملبدًا بالغيوم إلى حدٍّ ما، وإن تناثرت هنا وهناك رقعٌ طويلة من الرمادي الضارب إلى الاخضرار. رأيتُ على مسافة سفينة راسية، صورة ظلية شاحبة لسفينة ذات ضوءٍ واحدٍ أصفر. التفَّ الماء في موجاتٍ ضحلة طويلة. وبعيدًا على اليمين، عند المنحنى، رأيتُ شاطئًا من الحصى يضمُّ أكواخًا صغيرة، وأخيرًا منارة، وعلامة الإبحار، وموقعًا ما. امتدتْ اليابسة لمساحة من الرمال، تتخلَّلها هنا وهناك بِركٌ مائية، وتنتهي ربما على بُعد ميلٍ عند شاطئ منخفض من النباتات. ورأيتُ في اتجاه الشمال الشرقي ينبوعًا منعزلًا، وصفًّا من المساكن الهزيلة، أطول شيء رأيته على الأرض، بأعدادٍ قليلة تبدو باهتة في مواجهة السماء الساطعة. لا أعرف ما هذه الطبيعة الغريبة لهؤلاء البشر الذين يُقيمون تلك الأكوام العمودية في هذه المساحة الشاسعة. إنها تشبه أجزاءً من مدينة برايتون الساحلية، التي تبدو ضائعة في العراء.

جلستُ هناك لفترة طويلة، أتثاءب وأفرك وجهي. وأخيرًا بذلتُ جهدًا لأنهض، جعلني أشعر أنني أرفع وزنًا ثقيلًا، وقفتُ.

حدَّقتُ إلى المنازل البعيدة. ولأول مرة منذ شعورنا بالجوع في الفوهة، أفكر في طعام كوكبي الأرضي، همستُ لنفسي: «لحمٌ مقددٌ، بيضٌ، خبزٌ محمص جيدٌ وقهوة جيدة، كيف سأحصل على كل هذه الأشياء وآخذها معي إلى ليم؟»، تساءلت أين أنا؟ كان شاطئًا شرقيًّا، على أي حالٍ، وقد رأيتُ أوروبا قبل أن أهبط.

سمعتُ خطواتٍ على الرمال، ظهر على الشاطئ شابٌّ مستدير الوجه، وودود المظهر، يرتدي سروالًا خفيفًا، وتلتفُّ حول كتفيه منشفة استحمام، ويحمل فوق ذراعِه لباسَ البحر، عرفتُ على الفور أنَّني لا بُدَّ في إنجلترا. تقدَّم محملقًا. وأجرؤ على القول إنَّ مظهري كان متوحشًا شرسًا بما يكفي: قذرًا وأشعث إلى درجة لا توصف، لكنَّ ذلك لم يخطر ببالي حينذاك. وقف الرجل على مسافة عشرين ياردة، قال متشككًا: «مرحبًا، يا رجل!».

قلتُ: «مرحبًا!».

وعندئذٍ تقدَّم مطمئنًا. سألني: «ما هذا الشيء؟».

سألته: «هل يمكنك إخباري أين أنا؟».

قال: «هذه بلدة ليتلستون»، مشيرًا إلى المنازل، «وهذه دنجينس! هل هبطتَ للتوِّ؟ ما هذا الشيء الذي لديك؟ أهو نوعٌ من الآلات؟».

«نعم».

«هل طفوتَ على الشاطئ؟ هل تحطمت، أو شيء من هذا القبيل؟ ما هذا؟».

فكرتُ سريعًا، وأنا أتأمَّل مظهرَ الرجل الصغير وهو يقترب. قال: «يا إلهي! لقد أمضيتَ وقتًا في هذا الشيء! تصورتُ أنَّك... حسنًا... أين كنتَ؟ هل هذا شيءٌ عائمٌ لإنقاذ الحياة؟».

قررتُ أن أسايره في الوقت الحاضر، وقدَّمتُ له بعضَ التأكيدات الغامضة. قلتُ بصوتٍ أجشَّ: «أحتاج إلى مساعدة، أريد نقل بعض الأشياء إلى الشاطئ، أشياء لا أستطيع تركها». لاحظتُ وجودَ ثلاثة شبان آخرين مظهرهم لطيفٌ، ويحملون المناشف، ويرتدون ستراتٍ وقبعاتٍ من القش، يسيرون على الرمال ويقتربون نحوي. من الواضح أنهم من قسم الاستحمام المبكر في ليتلستون.

قال الشاب: «مساعدة! بالتأكيد!»، وأصبح نشِطًا بشكلٍ أو آخر، استدار وأومأ قائلًا: «ماذا تريد تحديدًا؟». أسرع الشبان الثلاثة خطاهم، وأحاطوا بي بعد دقيقة، وبدؤوا يوجِّهون لي أسئلة لم أكن مستعدًّا للإجابة عنها. قلتُ لهم: «سأحكي لكم كلَّ شيء في وقتٍ لاحقٍ؛ فأنا مرهقٌ جدًّا».

قال الشاب الذي التقيته أولًا: «تعالَ إلى الفندق، سنعتني بهذا الشيء هناك».

ترددتُ. قلتُ: «لا أستطيع، يوجد قضيبان كبيران من الذهب في هذه الكرة».

نظروا إلى بعضِهم في تشكُّكٍ، ثم نحوي مع توجيه أسئلة جديدة. ذهبتُ إلى الكرة، انزلقتُ، زحفتُ، وأحضرتُ لهم عتلتيّ السيليناية والسلسلة المكسورة. لو لم أكن شديد الإرهاق، لكان بإمكاني الضحك على ردِّ فعلهم، كانوا مثل قططٍ صغيرة تحيط بخنفساء، لم يعرفوا ماذا يفعلون بهذه الأشياء. انحنى الشاب السمين ورفع نهاية أحد القضيبين، ثم أسقطها مُصدِرًا صوتًا يشبه النخير. فعل الآخرون الشيء نفسه.

قال أحدهم: «إنَّها من الرصاص، أو الذهب!».

قال آخر: «أووه، إنَّها من الذهب!».

قال الثالث: «ذهب، إنَّه ذهبٌ بالفعل».

نظروا جميعًا نحوي، ثم نحو السفينة الراسية.

صاح الشاب الأول: «يا للسماء! ولكن من أين حصلتَ على هذه الأشياء؟».

كنتُ مُتعَبًا جدًّا لأختلق كذبة: «حصلتُ عليها من القمر».

رأيتهم ينظرون إلى بعضهم.

قلتَ: «اسمعوا! لن أناقش أي شيء الآن. ساعدوني على حمل هذه الكتل الذهبية إلى الفندق. أعتقد أنّ بإمكان اثنين منكم حمل واحدة، ثم الأخرى بعد قليلٍ من الراحة، وسأتولّى جرَّ هذه السلسلة، وسأخبركم أكثر بعد أن أتناول الطعام».

«وماذا عن هذا الشيء الكروي؟».

قلت: «لن يلحق به أي ضررٍ هنا، وعلى أي حالٍ، اللعنة! يجب أن يظل هنا الآن، وإذا ارتفع المدُّ، سيطفو ببساطة».

أطاعني الشباب، ورفعوا كنوزي على أكتافهم وهم في حالة دهشة كبيرة. وبساقين شعرت كأنهما من الرصاص، قُدتُ موكبًا نحو ذلك الجزء البعيد من «واجهة البحر». وفي منتصف الطريق أسعفتنا فتاتان صغيرتان مذعورتان بمجارف، ثم ظهر صبيٌّ صغيرٌ نحيفٌ يحاول معرفة ماذا يحدث. أتذكر أنه كان يقود دراجة، ورافقنا لمسافة مئة ياردة تقريبًا على يميننا، ثم أتصور أنه وجدنا لا نثير اهتمامه فتركنا وركب دراجته فوق الرمال في اتجاه الكرة.

نظرتُ خلفي لمتابعته.

قال الشاب السمين لطمأنتي: «لن يلمسها»؛ وكنتُ على استعدادٍ تامٍّ للاطمئنان.

في البداية كانت رمادية الصباح في ذهني، ثم فصلت الشمس نفسها عن مستوى غيوم الأفق وأضاءت العالَم، وحوَّلت لون البحر من الرصاصي إلى مياه متلألئة؛ ارتفعتْ روحي المعنوية. ومع ضوء الشمس، اجتاح ذهني شعورٌ بالأهمية الكبيرة للأشياء التي قمتُ بها، والأشياء التي لم أقم بها بعد، ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، بينما كان الشاب الأول يسير مترنحًا تحت ثِقل ذهبي.

عندما أتبوأ مكاني في العالم، كم سيكون العالم مذهلًا!

ولولا تعبي المفرط، لكان صاحب فندق ليتلستون مُسليًا؛ إذ تردَّد بين ذهبي ورفقتي المحترمة من ناحية، ومظهري القذر من ناحية أخرى. وجدتني أخيرًا في حمام مألوفٍ مرة أخرى: ماء دافئ للاستحمام، وتغيير للملابس، ملابس صغيرة بشكلٍ مضحكٍ لكنها نظيفة، أعارني إياها الشاب القصير اللطيف. وقد أعارني شفرة حلاقة أيضًا، لكنني لم أستطع تغيير قراري بمهاجمة حتى الأجزاء الأمامية للحية الخشنة التي غطت وجهي.

جلستُ لتناول وجبة إفطار إنجليزية، وأكلتُ بشهية ضعيفة، شهية عمرها عدة أسابيع وواهنة للغاية. كما بدأتُ أجيب عن أسئلة الشبان الأربعة؛ أخبرتهم بالحقيقة.

قلتُ: «حسنًا، ما دمتم تُصرون، حصلتُ على الذهب في القمر».

«القمر؟».

«نعم، القمر في السماء».

«ولكن، ماذا تعني؟».

«أعني ما أقوله. اللعنة!».

«إذن، هل وصلتَ الآن من القمر؟».

«بالضبط! عبر الفضاء، في تلك الكرة». ثم ملأتُ فمي بالبيض اللذيذ، وقلتُ ملاحظة خاصة، أنني سآخذ معي علبة من البيض عندما أعود إلى القمر.

كنتُ أرى بوضوحٍ أنَّهم لا يصدقون كلمة واحدة مما أخبرتهم به، ومن الواضح أيضًا أنهم اعتبروني أكثر كاذب محترمٍ قابلوه على الإطلاق. نظروا إلى بعضهم، ثم تركز بصرهم نحوي. تخيَّلت أنَّهم يتوقَّعون أن أفسِّر لهم طريقتي في رشِّ الملح على البيض، ربما وجدوا شيئًا مهمًّا في استخدامي للتوابل. لقد أذهلتهم هذه الكتل الذهبية غريبة الشكل. كانت الكتل ملقاة أمامي، وكل منها يساوي آلاف الجنيهات، ويستحيل أن يسرقها أيُّ شخصٍ؛ فهي مثل منزلٍ أو قطعة أرض. عندما نظرتُ إلى وجوههم الفضولية فوق فنجانٍ قهوتي، أدركتُ حجمَ التفسيرات الهائل الذي يجب أن أخوض فيه ليتمكَّنوا من فهمي مرة أخرى.

«أنتَ لا تعني حقًّا...»، بدأ الحديث أصغر شاب، في نبرة من يتحدث إلى طفلٍ عنيدٍ.

«أعطني هذا الخبز المحمص»، قلتُ، وأصمتُه تمامًا.

قال شابٌّ آخر: «اسمع، تعرف أننا لن نصدق ذلك».

«أها، حسنًا»، قلتُ وأنا أهزُّ كتفي.

قال أصغر شاب، يقف جانبًا: «إنَّه لا يريد أن يخبرنا». ثم واصل قائلًا برباطة جأش: «لا تُمانع إذا أخذت سيجارة؟».

لوحتُ له بموافقة ودية، وواصلتُ تناول إفطاري. ذهب اثنان آخران ونظرا من النافذة البعيدة، وتحدَّثا بصوتٍ غير مسموعٍ. طرأت على ذهني فكرة صدمتني، سألتُ: «المد، هل انتهى؟».

مرَّت لحظة صمتٍ، شكٍّ، من الذي سيجيبني.

قال الشاب الصغير السمين: «تقترب المياه من الجزر».

قلتُ: «حسنًا، لن تطفو بعيدًا بأي حالٍ».

قطعتُ رأسَ بيضتي الثالثة، وبدأتُ حديثًا قصيرًا، قلتُ: «اسمعوا. أرجوكم لا تتخيلوا أنني فظٌّ أو أخبركم بأكاذيب متخلفة، أو أي شيء من هذا القبيل، أنا مضطرٌّ إلى الإيجاز والغموض بعض الشيء، ويمكنني أن أفهم تمامًا مدى غرابة قصتي، لكن خيالكم يجب أن يستوعب الأمر. أؤكد لكم أنكم تعيشون لحظة لا تُنسى، وإنما ليس بإمكاني توضيح الأمر لكم الآن، هذا مستحيلٌ، أقسم بشرفي إنني جئتُ من القمر، وهذا كلُّ ما يمكنني إخباركم به، ومع ذلك، أنا ملتزمٌ تجاهكم تمامًا، تعرفون، ملتزمٌ تمامًا، وآمل أن طريقتي لم تُسيء إليكم بأي شكلٍ من الأشكال».

قال أصغر شاب بلطفٍ: «أوه، كلا، على الإطلاق! يمكننا أن نفهم تمامًا»، وهو يحدِّق إليَّ بقوة طوال الوقت. رفع ظهر كرسيه بدرجة مزعجة، ثم بذل جهدًا ليعيده إلى موضعِه. وقال الشاب السمين: «كلا، على الإطلاق».

«لا تتصور ذلك!». نهضوا جميعًا متفرقين، ساروا وأشعلوا السجائر، وحاولوا بشكلٍ عامٍّ إظهار الود والتفهم، وعدم الفضول تجاهي أو تجاه الكرة. سمعتُ أحدهم يقول بصوتٍ خفيضٍ: «على كل، سأراقب تلك السفينة هناك». لو كان عليهم، لكانوا -كما أعتقد- خرجوا وتركوني. عُدتُ لتناول بيضتي الثالثة.

قال الرجل القصير السمين: «الطقس رائع، أليس كذلك؟ لا أعرف متى كان لدينا مثل هذا الصيف».

سمعنا صوت فووو-وييييز! مثل انطلاق صاروخ هائل!

تحطمتْ نافذة في مكانٍ ما.

قلتُ: «ما هذا؟».

«ليس صوت...؟»، صرخ الرجل الصغير، وهرع إلى النافذة الجانبية.

وبالمثل، اندفع الآخرون جميعًا إلى النافذة، جلستُ أنظر إليهم.

قفزتُ فجأة، طرقتُ على بيضتي الثالثة، وهرعتُ أيضًا إلى النافذة؛ إذ تبادرت فكرة إلى ذهني. صاح الرجل القصير، مسرعًا نحو الباب: «لا يمكن رؤية أي شيء هناك».

قلتُ زاعقًا بصوتٍ غاضبٍ أجش: «إنَّه ذلك الصبي! ذلك الصبي الملعون!». استدرتُ، دافعًا النادل جانبًا -حيث كان يجلب لي المزيدَ من الخبز المحمص- وركضتُ بعنفٍ خارج الغرفة، إلى أسفل، إلى الساحة الصغيرة التي تقع أمام الفندق.

ومع تسارع الخُطى، تقلَّب البحر بعد أن كان مستويًا؛ وتساقطتْ المياه، كما يحدث في أعقاب إبحار سفينة، حول المكان الذي كانت تستقر فيه الكرة، وفي الأعلى، دارتْ نفخة صغيرة من السحاب مثل دخانٍ متناثرٍ، وكان الأشخاص الثلاثة أو الأربعة على الشاطئ يحدِّقون بوجوه متسائلة إلى موقع صدور صوت الفرقعة غير المتوقَع. وكان هذا كل شيء! أسرع خلفي الخدم، والنادل، والشبان الأربعة الذين يرتدون السترات. تعالتْ صيحاتٌ من النوافذ والأبواب، وجاء العديدون قلقين ومدهوشين.

وقفتُ هناك لفترة، غارقًا في هذا التطور الجديد، إلى حدٍّ أنني لم أفكر في الناس المتجمعين.

أصابتني في البداية حالة من الذهول حالت دون رؤيتي لما حدث باعتباره كارثة؛ مجرد ذهولٍ يشبه ما يصيب المرء عندما يتعرَّض لضربة عنيفة مفاجئة، وبعدها فقط يبدأ في استيعاب إصابته.

«يا إلهي!».

شعرتَ كأنّ شخصًا يصبُّ الذعرَ من وعاءٍ على الجزء الخلفي من عنقي، أصبحت ساقاي ضعيفتين. كنتُ قد تلقيتُ أول إشارة على ما تعنيه الكارثة بالنسبة إليَّ؛ ذلك الفتى المتحير الطموح! لم أكن أعرف ماذا أفعل، كان الذهب في غرفة القهوة، وهو كل ما أملك في هذا الكوكب. كيف ستسير الأمور؟ وكانت النتيجة العامة عبارة عن ارتباكٍ هائلٍ لا يمكن السيطرة عليه.

سمعتُ صوتَ الرجل القصير في الخلف: «أعتقد... كما تعرف».

استدرتُ، فوجدتُ عشرين أو ثلاثين شخصًا، مجموعة غير منظمة من الناس، يوجهون أسئلة غبية، وهم في حالة شكٍّ وريبة لا نهائية. لم أتحمَّل نظرات أعينهم، فتذمَّرتُ بصوتٍ عالٍ.

قلتُ صائحًا: «لا أستطيع، أقول لكم لا أستطيع! ليس بإمكاني الشرح! يا للحيرة، عليكم اللعنة!».

شوحتُ بيدي في تشنُّج. تراجع الرجل خطوة كما لو أنني هددته. مررتُ خلالهم متجهًا إلى الفندق. عُدتُ إلى غرفة القهوة وقرعتُ الجرسَ بغضبٍ، وأمسكت النادل عندما دخل. صحتُ: «أتسمعني؟ عليك أن تجلب من يساعدك لحمل هذه القضبان إلى غرفتي على الفور».

لم يفهمني، فصرختُ فيه وحدَّثته بعنفٍ. ظهر رجلٌ عجوزٌ قصيرٌ، يبدو الخوف على مظهره ويرتدي مريلة خضراء، كما ظهر شابان آخران يرتديان سراويل خفيفة، اندفعتُ نحوهم وأجبرتهم على مساعدتي، وبمجرد أن وضعوا الذهب في غرفتي، بدأتُ تعنيفهم، صحتُ: «اخرجوا الآن، اخرجوا كلكم، إذا كنتم لا ترغبون في رؤية رجلٍ يُصاب بالجنون أمام أعينكم!». أمسكتُ بكتف النادل لمساعدته، عندما رأيته يتردد عند المدخل. وما إن أغلقتُ الباب وراءهم جميعًا، حتى خلعت ملابس الشاب القصير، وألقيتها يمينًا ويسارًا، ثم دخلتُ الفراش على الفور. بقيت لفترة طويلة ألهث وأطلق الشتائم واللعنات، وأحاول تهدئة نفسي.

هدأتُ أخيرًا بما يكفي للخروج من السرير، واستدعاء النادل مستدير العينين ليجلب لي ملابس للنوم، وصودا وويسكي، وبعض السيجار الجيد. تأخر بشكلٍ استفزازي وصولُ هذه الأشياء التي طلبتُ شراءها، مما دفعني إلى دقِّ الجرس عدة مرات، وما إن وصلتْ حتى أغلقتُ الباب مرة أخرى، وبدأت في التفكير بجدية في الوضع برمتِه.

النتيجة النهائية للتجربة العظيمة قدمتْ نفسَها كفشلٍ ذريعٍ كانت هزيمة، وكنتُ الناجي الوحيد. كانت انهيارًا مطلقًا، والآن الكارثة الأخيرة. ليس أمامي سوى إنقاذ نفسي، والابتعاد بقدر الإمكان عن مسار هذه الكارثة. لقد انتهتْ بضربة واحدة قاتلة جميع قراراتي الملتبسة حول العودة وإصلاح الوضع: نيتي في العودة إلى القمر، وملء الكرة بالذهب، وبعدها إخضاع جزء من الكافوريت للتحليل والكشف عن ذلك السر الكبير، وربما في نهاية المطاف حتى استعادة جثمان كافور - تلاشت كلُّ هذه الأفكار تمامًا.

كنتُ الناجي الوحيد، وهذا كلُّ شيء.

أعتقد أنَّ الذهاب إلى الفراش كان أحد أفضل أفكاري في حالات الطوارئ، وأعتقد حقًّا أنني كان يجب أن أطلق العنان لتفكيري أو أفعل شيئًا طائشًا. لكنني هناك، حابسًا نفسي وآمنًا في انقطاعٍ تامٍّ، يمكنني أن أفكر في الموقف من جميع الاتجاهات وتحديد الترتيبات بهدوءٍ.

كان واضحًا بالطبع ما حدث للصبي، لقد زحف إلى الكرة، وعبث في الأزرار، فأغلق نوافذ الكافوريت، وارتفعت الكرة. ومن غير المحتمل إلى حدٍّ كبيرٍ أنه أغلق غطاء كوة الدخول، وحتى لو أغلقها، لا تزيد فرص عودته عن واحدٍ في الألف. وكان واضحًا لي تمامًا أنه سينجذب مع حزمة أمتعتي إلى مكانٍ بالقرب من منتصف الكرة ويبقى فيه، وبالتالي يكف الاهتمام به على كوكبنا، مهما بدا مُهمًّا لسكان بعض بقاع الفضاء البعيدة. وسرعان ما أقنعتُ نفسي بهذه الفكرة. أما بالنسبة إلى أي مسؤولية قد تقع على كاهلي في هذه الموضوع، كما تصورتُ بعد تفكير، فقد زدتُ اقتناعًا أنني لن أزعج نفسي بذلك ما دمتُ سأبقى صامتًا، وإذا واجهني والدا الصبي الحزينان وطالباني بإرجاع ابنهما المفقود، سأطالبهما فقط بإرجاع كرتي المفقودة، أو أسألهما ماذا يعني كلامهما. راودتني في البداية رؤية لآباء وأولياء أمورٍ يبكون، فضلًا عن جميع أنواع التعقيدات، لكنني أصبحتُ أرى ببساطة أنني يجب أن أحافظ على فمي مغلقًا، وبالتالي لن يحدث أيُّ شيءٍ. وفي الواقع، كلما بقيت مستلقيًا أدخن وأفكر، أصبحت حكمة ما توصلت إليه أكثر وضوحًا.

من حقِّ كلِّ مواطن بريطاني، شريطة عدم ارتكاب أي فِعل ضار أو فاسد، أن يظهر فجأة أينما يشاء، وبمظهرٍ رثٍّ وقذرٍ كما يشاء، وبأي كمية من الذهب الخام مهما كانت، ولا يحق لأحدٍ على الإطلاق أن يعيقه ويحتجزه لهذه الأسباب. هكذا صِغتُ الأمرَ على هذا النحو لنفسي أخيرًا، وكررته كنوعٍ من الماجنا كارتا([15]) الخاصة بحريتي.

وما إن نحيتُ هذه المسألة جانبًا، حتى بدأتُ أفكر بشكلٍ منصفٍ في بعض الاعتبارات التي لم أجرؤ على التفكير فيها من قبل؛ وهي الاعتبارات التي تنشأ عن ظروف إفلاسي. وبالنظر إلى هذه المسألة بهدوءٍ، رأيتُ أنني لو أخفيتُ هويتي باختيار اسم مؤقتٍ أقل شهرة، واحتفظتُ بلحيتي التي نمتْ خلال الشهرين الماضيين، لقلَّت كثيرًا مخاطر الإزعاج من أي دائنٍ شريرٍ. وانطلاقًا من هذا الموقف، كان الإبحار سهلًا في اتجاه مسارٍ محددٍ للعمل العقلاني، كان كلُّ شيءٍ بسيطًا بشكلٍ مثيرٍ للدهشة بلا شكٍّ، ماذا تبقَّى إذن لأقوم به؟

وبغض النظر عمَّا سأفعله، كنتُ مصممًا على أن أظلَّ رزينًا وعلى الطريق الصحيح.

طلبتُ شراءَ موادٍ للكتابة، ووجهتُ رسالة إلى بنك رومني الجديد -وهو أقرب بنك، كما أبلغني النادل- لأخبر المدير برغبتي في فتح حسابٍ، وطلبتُ منه إرسال شخصين جديرين بالثقة ويتمتعان بالصلاحية، في عربة ذات حصانٍ جيدٍ لنقل ما يصل وزنه إلى خمسين كيلوجرام من الذهب الذي يرهقني. وقَّعتُ على الرسالة باسم «بليك»، الذي بدا لي اسمًا وقورًا. أمسكتُ بعد ذلك «دليل فولكستون الأزرق»، واخترتُ تاجر ملابس وطلبتُ منه أن يرسل لي ترزيًّا ليأخذ قياسي لحياكة بذلة صوفية سوداء. وطلبتُ، في الوقت نفسه، محفظة جلدية، وحقيبة للملابس، وحذاءً بُنيًّا، وقمصان، وقبعة ملائمة، وهلُمَّ جرًّا. كما طلبتُ ساعة أيضًا من تاجر الساعات. وبعد الانتهاء من إرسال هذه الرسائل، تناولتُ أفضلَ غداءٍ يمكن أن يقدمه الفندق، ثم استلقيتُ لتدخين سيجارٍ وأنا هادئٌ وعاديٌّ قدر الإمكان، إلى أن وصل -وفقًا لطلبي- اثنان من موظفي البنك المُعتَمَدين، ووزنا ذهبي وأخذاه. وبعد ذلك سحبتُ أغطية الفراش فوق أذني، حتى لا أسمع أي طرقٍ على الباب، وذهبتُ للنوم وأنا أشعر براحة شديدة.

استغرقتَ في النوم، لا شك أنّه كان شيئًا غريبًا يقوم به أول رجلٍ يعود من القمر، وأتخيل أن القارئ الشاب والميّال إلى التخيُّل سوف يجد سلوكي مخيبًا للآمال، لكني كنتُ مرهقًا للغاية ومنزعجًا. اللعنة! ماذا أيضًا كان يجب أن أفعله؟ لم تكن توجد بالتأكيد أدنى فرصة لتصديقي إذا حكيتُ قصتي، وكنتُ سأتعرَّض حتمًا لإزعاجٍ لا يُطاق. استغرقتُ في النوم، وعندما استيقظتُ كنتُ على استعدادٍ لمواجهة العالم كما اعتدتُ دومًا على مواجهته منذ أن بلغ عمري سنوات التعقُّل. وهكذا هربتُ إلى إيطاليا، وهناك أكتب هذه القصة، وإذا لم يرها العالَم قصة حقيقية، قد يعتبرها قصة خيالية. وهذا لا يهمني.

والآن بعد سرد القصة، يدهشني للغاية التفكير في انتهاء هذه المغامرة تمامًا. يعتقد الجميع أنَّ كافور لم يكن باحثًا علميًّا تجريبيًّا لامعًا، وأنَّه فجَّر منزلَه ونفسَه في ليم، ويفسِّرون الانفجار الذي أعقب وصولي إلى ليتلستون بإشارة إلى تجارب المتفجرات التي تجرى باستمرارٍ في مؤسسة ليد الحكومية، على بُعد ميليْن. ويجب أن أعترف أنني لم أتحدَّث حتى الآن عن دوري في اختفاء السيد تومي سيمونز، هو اسم ذلك الصبي الصغير، وربما يصعب تفسير هذه المسألة. لقد فسَّر الناس مظهري الأخرق ومعي قضيبان من الذهب بالفعل على شاطئ ليتلستون بطرق مبتكرة مختلفة، ولا تقلقني أراؤهم. يقولون إنني ابتكرتُ هذه القصص وربطتُها معًا، لتجنُّب أيَّ استجوابٍ دقيقٍ عن مصدر ثرائي. أودُّ أن أرى الرجل الذي يمكنه اختراع قصة متماسكة كهذه، حسنًا، عليهم اعتبار القصة رواية خيالية؛ هذا هو الحال.

لقد حكيتُ قصتي، ولا بُدَّ أن أعود الآن إلى هموم هذه الحياة الأرضية مرة أخرى، فحتى إذا كان المرء قد ذهب إلى القمر، لا يزال عليه كسب لقمة عيشه، ولذا، أمارس عملي هنا في أمالفي([16])، في كتابة سيناريو تلك المسرحية التي بدأتها قبل أن يدخل كافور إلى عالمي، وأحاول استعادة حياتي كما كانت قبل أن أراه. ويجب أن أعترف أنني أجد صعوبة في التركيز على المسرحية عندما يدخل ضوءُ القمر إلى غرفتي، هنا القمر مكتملٌ، وأمضيتُ الليلة الماضية عدة ساعات في العريشة، أحدق بعيدًا بالفراغ الساطع الذي يخفي الكثير. لكَ أن تتخيل! طاولاتٍ وكراسي، ومنصاتٍ وقضبان من الذهب! اللعنة! لو أمكن فقط الحصول على الكافوريت مرة أخرى! لكنَّ شيئًا كهذا لا يحدث في حياة المرء مرتين. وها أنا ذا، أفضل حالًا مما كنتُ عليه في ليم، وهذا كل شيء. أما كافور، فقد انتحر بطريقة أكثر تعقيدًا من أي شخصٍ من قبل. ولذا، تنتهي القصة أخيرًا وتمامًا كحلم. إنَّها تجربة لا تتناسب والكثير جدًّا من جميع الأشياء الأخرى من الحياة، وتبعُد تمامًا عن الخبرةَ البشرية برمتها: القفز، والأكل، والتنفس، وفترات انعدام الوزن؛ على أن هناك لحظاتٍ في الواقع أكاد أعتقد فيها، على الرغم مما لدي من الذهب القمري، أن كل شيء كان حلمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(22)

التواصل المذهل مع السيد جوليوس ويندیجي

عندما انتهيتُ من روايتي عن عودتي إلى ليتلستون على كوكب الأرض وكتبتُ «النهاية»، شعرتُ بالسعادة وألقيتُ قلمي جانبًا، معتقدًا أنَّ القصة الكاملة لأول بشرٍ داخل القمر قد انتهتْ. لم أكتفِ بذلك، بل سلَّمتُ مخطوطتي لوكيلٍ أدبي، وأعطيته موافقتي على بيعِها. رأيتُ الجزء الأكبر منها منشورًا في مجلة ستراند، وبدأتُ أستعدُّ لاستكمال سيناريو المسرحية التي بدأتها في ليم، قبل أن أدرك أنَّ القصة لم تنته بعد. فقد تبعتني من أمالفي إلى مدينة الجزائر رسالة مذهلة (كان من المفترض أن أتلقَّاها منذ قرابة ستة أشهر). باختصارٍ، عرفتُ أنَّ السيد جوليوس ويندیجي، وهو كهربائي هولندي، كان يجرِّب جهازًا شبيهًا بالجهاز الذي يستخدمه السيد تسلا في أمريكا، على أمل اكتشاف طريقة ما للاتصال بالمريخ؛ وأنَّه يتلقَّى يوميًّا رسالة مجزَّأة غريبة باللغة الإنجليزية، تأتي من دون شكٍّ من السيد كافور في القمر. تصوَّرتُ في البداية أنَّها دعابة متقنة من شخصٍ رأى مخطوطة روايتي. أجبتُ السيد ويندیجي مازحًا، لكنَّه ردَّ بطريقة أبعدت الشكَّ تمامًا. وفي حالة من الإثارة التي لا يمكن تصورها، سارعتُ من الجزائر العاصمة إلى المرصد الصغير على جبل مونتي روزا الذي يعمل فيه. اختفتْ شكوكي العالقة تمامًا أمام سِجله وأجهزته، وقبل كل شيء من الرسائل التي بعث بها كافور وأصبحت في متناول يدي. قررتُ على الفور قبولَ اقتراحه بالبقاء معه، ومساعدته على استلام الرسائل من يوم لآخر، فضلًا عن مساعدته في محاولة بث رسالة إلى القمر. عرفنا أنَّ كافور لا يزال حيًّا وحرًّاً أيضًا، في وسط مجتمعٍ لا يمكن تصوُّره من هذه الكائنات الشبيهة بالنمل، الرجال-النمل، في ظلام الكهوف القمرية الزرقاء. فهمنا أنَّ كافور أُصيب بعرجٍ، لكنَّ صحته جيدة، أفضل، كما قال بوضوحٍ، مما كان يتمتع به عادة على كوكب الأرض. كما أُصيب بحُمى، لكنَّها لم تترك أيَّ آثارٍ سيئة. لكنَّ الغريبَ أنَّه بدا كأنَّه مقتنعٌ أنني إما ميتٌ في فوهة القمر، أو مفقودٌ في عمق الفضاء.

بدأتْ الرسائل تصل إلى السيد ويندیجي عندما كان منخرطًا في بحثٍ مختلفٍ تمامًا. ومما لا شكَّ فيه أن القارئ سوف يتذكر بعض الإثارة في بداية القرن، بسبب إعلان السيد نيكولا تسلا، المهندس الكهربائي الأمريكي الشهير، أنه تلقَّى رسالة من المريخ، وقد جدَّد إعلانه الاهتمامَ بحقيقة كانت مألوفة للعلماء منذ فترة طويلة؛ وهي وصول موجات كهرومغناطيسية مشوشة إلى كوكب الأرض باستمرارٍ قادمة من مصدرٍ مجهولٍ في الفضاء، تماثل تمامًا تلك التي يستخدمها سينيور ماركوني في التلغراف اللا سلكي. وإلى جانب تسلا، انخرط عددٌ غيرُ قليلٍ من المراقبين الآخرين في إتقان جهازٍ لتلقي وتسجيل هذه الاهتزازات، على الرغم من أنَّ قلة من العلماء ذهبوا إلى حدِّ اعتبارها رسائلَ فعلية قادمة من خارج كوكب الأرض. ومن بين تلك المجموعة القليلة، يجب أن نُحصي السيد ويندیجي بالتأكيد؛ فمنذ عام 1898 وهو يكرس نفسه بالكامل لهذا الموضوع، ولما كان يتمتع بمواردٍ وفيرة، فقد أنشأ مرصدًا على جوانب جبل مونتي روزا، في موضع جرى إعداده بشكلٍ متفرِّدٍ بكلِّ طريقة ممكنة لمثل هذه المراقبات.

لا بُدَّ أن أعترف أنَّ تحصيلي العلمي ليس كبيرًا، ولكن بقدر ما يُمكنني من الحُكم، فإنَّ أجهزة السيد ويندیجي للكشف عن أي تشوشات وتسجيلها في ظروف الفضاء الكهرومغناطيسية تُعد أجهزة أصلية

ومبتكرة بشكلٍ فريدٍ. ولحُسن الحظ أنّ إعداد هذه الأجهزة وتشغيلها بدأ قبل شهرين تقريبًا من محاولة كافور الأولى للتواصُل مع كوكب الأرض، وبالتالي لدينا مقتطفاتٌ من رسائله منذ أن بدأتْ، لكنَّها للأسف ليست سوى مقتطفات، بينما أهم الأشياء التي كان يجب أن يخبر البشرية بها قد ضاعتْ في الفضاء من دون تسجيلٍ: مثل تعليمات صنع الكافوريت، إذا كان قد أرسلها بالفعل. لم ننجح أبدًا في إرسال ردٍّ إلى كافور، ولذلك، لم يتمكَّن من معرفة ما تلقيناه أو ما فاتنا، كما لم يتمكَّن، في الواقع، من التأكُّد مما إذا كان على سطح الأرض من يعرف حقًّا بجهوده للوصول إلينا. وتوضح مثابرته على إرسال ثماني عشرة رسالة تضم وصفًا طويلًا لأوضاع القمر وظروفه -كما تبدو لو اكتملت- مدى تحوُّل عقله إلى كوكبه الأصلي منذ أن تركه قبل عامين.

لكَ أن تتخيل مدى دهشة السيد ويندجي عندما اكتشف في جهاز تسجيله للموجات الكهرومغناطيسية تداخلًا لرسائل كافور بلغة إنجليزية صحيحة. لم يكن السيد ويندجي يعرف شيئًا عن رحلتنا الطائشة إلى القمر، وفجأة... تأتيه هذه اللغة الإنجليزية من الفراغ!

من المهم أن يفهم القارئ الظروف التي يبدو أن هذه الرسائل قد أُرسِلت في ظلِّها، من المؤكد أنَّ كافور تمكَّن من الوصول، في مكانٍ ما داخل القمر ولفترة من الوقت، إلى كمية كبيرة من الأجهزة الكهربائية، ويبدو أنَّه تلاعب -ربما بمكرٍ- في تنظيم إرسال من نوع ماركوني، وتمكن من العمل على فترات غير منتظمة: في بعض الأحيان لمدة نصف ساعة فقط أو نحو ذلك، وفي أحيان أخرى على امتداد ثلاث أو أربع ساعات. ونجح خلال هذه الفترات في بثِّ رسائله نحو كوكب الأرض، بغض النظر عن التغير الدائم للموقع النسبي لكل من القمر والنقاط على سطح الأرض. ونتيجة لذلك، علاوة على عدم الدقة اللازمة في أدوات التسجيل لدينا، كانت اتصالاته تروح وتجيء إلى سجلاتنا على نحوٍ متقطعٍ؛ تأتي غير واضحة و«تتلاشى» بطريقة غامضة واستفزازية تمامًا. ويُضاف إلى ذلك أنه لم يكن خَبيرًا في أمور التشغيل؛ فقد نسي جزئيًّا، أو لم يتقن تمامًا، شفرة الاستخدام العام. كما كانت بعض الكلمات تسقط منه أو يُخطئ في الهجاء بغرابة عندما يحلُّ عليه التعب.

وإجمالًا، ربما فقدنا نصفَ الاتصالات التي قام بها، فضلًا عن أنَّ الكثيرَ منها تالفٌ أو ممسوحٌ جزئيًّا. وفي الملخص الذي سأقدِّمه الآن، يجب أن يستعد القارئ لوجود عددٍ كبيرٍ من حالات التوقُّف، والفجوات، وتغيير الموضوع. ونتعاون أنا والسيد ويندجي لإصدار طبعةً كاملة ومشروحة من رسائل كافور، نأمل أن ننشرها جنبًا إلى جنب سردٍ مفصلٍ للأدوات المستخدمة، وذلك بدءًا من المجلد الأول في يناير المقبل، وهو ما سوف يُعد بمثابة التقرير الكامل والعلمي، بحيث لا يمثل ما سأعرضه الآن سوى نسخة شعبية منه، على أننا نقدِّم هنا ما يكفي على الأقل لإكمال القصة التي رويتُها، مع إعطاء الخطوط العريضة لحالة ذلك العالَم الآخر، القريب جدًّا والشبيه جدًّا، ومع ذلك يختلف كثيرًا عن عالَمنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(23)

ملخص أوَّل ست رسائل وردت من السيِّد كافور

احتفظنا بنص أوَّل رسالتين من رسائل السيِّد كافور للمجلد الكبير، فالرسالتان تسردان ببساطة -وبإيجاز كبيرٍ واختلافٍ في العديد من التفاصيل المثيرة للاهتمام، لكنَّها لا تتَّسم بأهمية جوهرية- الحقائق الأساسية لصُنع الكرة وخروجنا من كوكبِنا الأرضي. يتحدَّث عني كافور طوال الرسالتين كرجلٍ ميتٍ، بينما يتغيَّر انفعالُه بشكلٍ غريبٍ عندما يتناول هبوطنا على سطح القمر. يقول عني: «بدفورد المسكين»، و«هذا الشاب المسكين»؛ ويلقي باللوم على نفسِه لحثِّ شابٍّ «ليس بأي حالٍ من الأحوال مُجهَّزًا تجهيزًا جيدًا لمثل هذه المغامرات»، على مغادرة كوكبٍ «كان مؤهلًا بلا منازعٍ أن يحقق فيه نجاحًا» ليذهب في مهمة محفوفة بالمخاطر. أعتقد أنَّه يقلِّل من دور طاقتي وقدرتي العملية في وضع تصوُّره النظري للكرة موضع التنفيذ الفعلي. «وصلنا»، كما يقول، دون أي حسابٍ لمرورنا عبر الفضاء أكثر مما لو كنَّا قد قمنا برحلة شائعة في قطار السكك الحديدية.

زادتْ بعد ذلك عدم عدالة موقفه تجاهي. لم يكن عادلًا، في الواقع، إلى حدٍّ لم أكن أتوقَّعه من رجلٍ تدرَّب على البحث عن الحقيقة. وبالعودة إلى سردي الذي كتبته عن هذه الأمور، لا بُدَّ أن أؤكد أنني كنتُ أكثر عدلًا تجاه كافور من موقفه تجاهي؛ لقد خفَّفتُ قليلًا من دون أن أكتم أيَّ شيء، أمَّا في سرده، يقول:

«سرعان ما وضحتْ غرابة ظروفنا ومحيطنا بالكامل: فقدان الوزن إلى حدٍّ كبيرٍ، ورقة الهواء وإن كان مليئًا بالأكسجين، والجهد العضلي المبالغ فيه، وسرعة تطور النباتات الغريبةً من بذورٍ غامضة، وتوهُّج السماء؛ وكلها أشياء كانت مثيرة لرفيقي دون مبررٍ. ظهر تدهور شخصيته على القمر؛ أصبح مندفعًا، وطائشًا، ومشاكسًا. وبعد فترة وجيزة، أدَّت حماقتُه لالتهام بعض الحويصلات العملاقة والتسمُّم، إلى القبض علينا من جانب السيلينايت - قبل أن تُتاح لنا أدنى فرصة لمراقبة طرقهم بشكلٍ صحيحٍ...».

(من المُلاحَظ أنَّه لم يقل أيَّ شيء عن تناوله لهذه «الحويصلات» نفسها).

ويمضي من تلك النقطة ليقول: «وصلنا معهم إلى ممرٍّ وعرٍ، وبدفورد يوجِّه لهم إيماءاتٍ خاطئة» – كانت لفتات لطيفة!- «فتحت الطريق أمام عنفٍ مذعورٍ؛ ركَض بتهوُّرٍ، قتل ثلاثة، وكنتُ مُجبَرًا على الفرار معه بعد هذا الغضب. اشتبكنا في وقتٍ لاحقٍ معً عددٍ من الذين حاولوا سدَّ طريقنا، وقتلنا سبعة أو ثمانية آخرين. لم تقتلنا تلك الكائنات على الفور عندما أمسكوا بنا، وهذا يوضح الكثيرَ عن تسامحهم. شققنا طريقنا إلى الخارج، وانفصلنا عند الفوهة التي كانت موقع وصولنا إلى القمر، في محاولة لزيادة فرص استعادة كرتنا، على أنني رأيتُ الآن مجموعة من السيلينايت تحت قيادة فرديْن يختلفان تمامًا عن الآخرين الذين رأيناهم حتى الآن، حتى من حيث الشكل. كانت رأساهما أكبر وجسماهما أصغر، فضلًا عن زيادة الأغطية التي يلفُّها كلٌّ منهما حول نفسه. وبعد تفاديهما لبعض الوقت، سقطتُ في شقٍّ، وأُصِبت بجرحٍ سيِّئ في رأسي وركبتي، أصبح الزحفُ مؤلمًا، فقررتُ الاستسلام، إذا سمحوا لي به. قَبِلوا استسلامي، وإدراكًا لعجزي، حملوني معهم مرة أخرى إلى داخل

القمر. لم أسمع أيَّ شيء عن بدفورد ولم أره، وأعتقد أيضًا لم يره أي سيلينايت. إما أن أدركه الليل في الحفرة، أو أنَّه -وهو الأكثر احتمالًا- وجد الكرة وانطلق بها، رغبة منه في اقتناص الفرصة، أخشى فقط ألا يتمكَّن من التحكُّم فيها، ويظل مُعلَّقًا في الفضاء الخارجي».

لم يذكرني كافور بعد ذلك، وانتقل إلى مواضيع أكثر إثارة للاهتمام. أكره فكرة أنه استخدمني لتحويل قصته لمصلحته، لكنني مضطرٌّ هنا إلى الاحتجاج على تحويره للأحداث، لم يقل شيئًا عن تلك الرسالة التي كتبها على ورقة ملطَّخة بالدماء وروى فيها، أو حاول أن يروي، قصة مختلفة تمامًا. وأنا مُصرٌّ على أنَّ الاستسلام الكريم هو نظرة جديدة تمامًا للموضوع، ترجع إلى أنه بدأ يشعر بالأمان بين سكان القمر؛ وهو ما كان يعول عليه. أمَّا بالنسبة لمفهوم «اقتناص الفرصة»، فإنني أودُّ ترك هذه المسألة للقارئ ليحكم بيننا. أعلم أنني لستُ رجلًا نموذجيًّا، ولم أزعم ذلك، ولكن هل أنا كذلك؟

ومع ذلك، فإنَّ ما ذكره هو مجمل الأخطاء التي ارتكبتُها، ومن هذه النقطة يمكنني القول إنَّ عقل كافور تخلَّص من الاضطراب، لأنَّه كفَّ عن الحديث عني.

يبدو أنَّ السيلينايت الذين أمسكوا به حملوه إلى نقطة ما في الداخل، هبوطًا على «عمودٍ كبيرٍ» بواسطة ما وصفه بأنه «نوعٌ من البالون». نستنتج من الفقرة المرتبكة نسبيًّا التي يصف فيه ذلك، ومن عددٍ من الإشارات والتلميحات العارضة في رسائل أخرى، أنَّ هذا «العمود الكبير» هو واحدٌ من نظامٍ هائلٍ من المهابط الاصطناعية التي يمتدُّ كلٌّ منها، مما يُسمَّى «فوهة» قمرية، إلى أسفل لما يقرُب من مئة ميلٍ نحو الجزء المركزي من قمرنا، وتتصل هذه المهابط بواسطة أنفاق مستعرَضة، تصل إلى الكهوف السحيقة وتتسع في أماكن كروية كبيرة. وتتكوَّن مادة القمر كلها، لمسافة مئة ميلٍ إلى الداخل، من صخورٍ إسفنجية. يقول كافور: «جزئيًّا، هذه السمة الإسفنجية طبيعية، لكنَّها ترجع إلى حدٍّ كبيرٍ إلى الصناعة الهائلة التي قام بها السيلينايت في الماضي. وتُشكل التلال الدائرية الهائلة من الصخورِ المحفورة والتراب تلك الدوائر الهائلة حول الأنفاق، والمعروفة لدى علماء الفلك الأرضيين (الذين ضلَّلهم تشبيهٌ زائفٌ) بالبراكين».

أخذوه بداية أسفل هذا المهبط، في هذا «النوع من البالون» الذي يتحدث عنه، إلى سوادٍ بلون الحبر ثم إلى منطقة من الوميض الفوسفوري المتزايد باستمرارٍ. أظهرت لنا الرسائل غرابة كافور، بغض النظر عن مهمته كرجلٍ علمي، لكنَّنا فهمنا أنَّ هذا الضوء كان بسبب تيارات وشلالات المياه التي تدفَّقت أكثر وفرة إلى أسفل نحو البحر المركزي؛ «لا شكَّ أنَّها تحتوي على بعض الكائنات الفوسفورية». وعندما هبط، يقول: «أصبح السيلينايت مضيئين أيضًا». وأخيرًا رأى على مسافة بعيدة أسفله بحيرة من نارٍ بلا حرارة، ومياه البحر المركزي، متوهجة وتدور في اضطرابٍ غريبٍ «مثل الحليب الأزرق المضيء الذي على وشك الغليان».

يقول كافور، في فقرة لاحقة: «هذا البحر القمري ليس محيطًا راكدًا؛ بل يرسله المد الشمسي في تدفُّقٍ دائم حول محور القمر، وتحدث عواصف غريبة، وحالات غليان واندفاع لمياهه. وفي بعض الأحيان تتصاعد منه رياحٌ باردة ورعدٌ متجهة نحو مسارات تل النمل الكبير المزدحمة أعلاه. ولا يصدر ضوء عن المياه إلا عندما تكون في حالة حركة، بينما نجد المياه سوداء في مواسم الهدوء النادرة.

وعادة عندما ينظر المرء إلى البحر، يشهد ارتفاع مياهه وانخفاضها في موجاتٍ غنية، وتدفق رقائق ومجموعات كبيرة من الرغاوى الفقاعية اللامعة مع التيار البطيء، ضعيف التوهج. يبحر السيلينايت في الممرات المائية الكهفية والبحيرات في قوارب مُسطحة صغيرة، تشبه زوارق الكنو الطويلة الخفيفة، وحتى قبل رحلتي عبر الدهاليز المحيطة بالقمري الأكبر، وهو سيد القمر، سمحوا لي برحلة قصيرة على مياهه».

«الكهوف والممرات شديدة التعرُّج بطبيعة الحال، وهناك نسبة كبيرة من هذه المسارات لا يعرفها سوى المُرشدين ذوي الخبرة من الصيادين، وكثيرًا ما يتوه السيلينايت إلى الأبد في هذه المتاهات. قيل لي إنَّ هناك مخلوقات غريبة تتوارى في التجاويف النائية، ومن بينها مخلوقات رهيبة وخطيرة لم تتمكَّن كلُّ علوم القمر من إبادتها. هناك بوجه خاص «رافا»؛ وهي كتلة مُركبة من مجسَّات قابضة، إذا قطعها المرء تتضاعف متكاثرة. وهناك أيضًا مخلوقٌ يُسمَّى «تزي»؛ وهو مخلوق السهام الذي لا يراه أحدٌ قطُّ، ولذا يقتل بمهارة وفجأة...».

إنَّه يعطينا لمحة وصفية.

«لقد ذكّرتني هذه الرحلة بما قرأته عن كهوف الماموث، فإذا كانت لديَّ شعلة صفراء بدلًا من هذا الضوء الأزرق المتغلغل، وبصحبتي مراكبي يتسم بمظهرٍ قاسٍ ومعه مجدافٌ بدلًا من هذا السيلينايت عجيب الوجه ويدير المحرك في الجزء الخلفي من الزورق، كان يمكنني أن أتصور أنني عُدتُ فجأة إلى كوكب الأرض مرة أخرى. كانت الصخور حولنا شديدة الاختلاف: أحيانًا سوداء، وأحيانًا زرقاء شاحبة ومُعرّقة، وما إن تومض وتتألق حتى يبدو الأمر كأنَّنا وصلنا إلى منجم من الياقوت الأزرق. رأيتُ في أسفل الأسماك الفوسفورية الشبحية، تومض وتختفي في عمق أقل فوسفورية بالكاد. وأرى الآن مشهدًا بحريًّا طويلًا عبر التيار المتدفق لإحدى قنوات المرور، ثم رصيفًا لميناء، وبعده لمحت، ربما، عمودًا ضخمًا مزدحمًا لأحد الطرق الرأسية».

«رأيتُ في أحد الأماكن الشاسعة، المليئة بالرواسب الهابطة اللامعة، عددًا من قوارب الصيد، ذهبنا بجوار إحداها، وشاهدتُ السيلينايت ذوي الأذرع الطويلة يتلوون وهم يسحبون شبكة. كانوا حشراتٍ صغيرة حدباء، بأذرع قوية جدًّا، وسيقان قصيرة مقوسة، وأقنعة وجه مجعدة. بدا أنَّ الشبكة التي يسحبونها أثقل شيء رأيته في القمر؛ إذ كانت مُحمَّلة بأثقالٍ -لا شكَّ من الذهب- واستغرق سحبها وقتًا طويلًا، لأنَّ أكبر وأكثر الأسماك الصالحة للأكل في تلك المياه تتوارى في العُمق. كان ظهور السمكة في الشبكة يشبه طلوع القمر الأزرق - تألق أزرق مندفع كالسهم».

«كان من بين صيدهم شيءٌ أسود متعدد المجسات، شرير العينين، ونشط بشراسة؛ وأطلقوا عند رؤيته صراخًا وزقزقة، وقاموا بحركاتٍ سريعة وعصبية لتقطيعه إلى أشلاء بفؤوسهم الصغيرة. واستمرَّت جميع أطرافه المقطوعة المُفككة في التحرُّك والتلوي بطريقة شريرة. بعد ذلك، وعندما اشتدتْ الحُمى التي أُصبتُ بها، حلمتُ مِرارًا وتكرارًا بهذا المخلوق المرير الغاضب وهو ينهض بقوة ونشاطٍ ليخرج من البحر المجهول. كان أكثر المخلوقات الحية التي رأيتها حتى الآن في هذا العالَم داخل القمر، نشاطًا وخُبثًا».

«لا بُدّ من أنّ سطح هذا البحر يقع على مسافة نحو مائتي ميل (إن لم يكن أكثر) تحت مستوى السطح الخارجي للقمر. وعرفتُ أنَّ جميع مدن القمر تقع مباشرة فوق هذا البحر المركزي، في مساحاتٍ كهفية ودهاليز اصطناعية كما وصفتها، وتتصل بالخارج عن طريق مهابط رأسية هائلة، تفتح دائمًا على ما يسميه علماء الفلك بكوكبِنا الأرضي «فوهات» القمر، وقد رأيتُ بالفعل، خلال تجوالي الذي سبق أسري، الغطاء الذي يقفل إحدى هذه الفتحات».

«أمَّا بالنسبة لظروف الجزء الأقل مركزية من القمر، فلم أتوصَّل بعد إلى معرفة دقيقة. يوجد نظامٌ هائلٌ من الكهوف التي تأوي إليها عجول القمر في أثناء الليل. وهناك مسالخ وما يشبهها، حيث تعاركنا أنا وبدفورد في إحداها مع الجزارين السيلينايت، ورأيتُ حينذاك بالوناتٍ مُحمَّلة باللحم تهبط من الظلام العلوي. لم أعرف حتى الآن الكثيرَ عن هذه الأشياء، مثلي مثل الزولو[17] في لندن عندما يتعرفون في الوقت نفسه على مخزون الذرة البريطانية. ومع ذلك، يبدو واضحًا أنَّ هذه الأعمدة الرأسية والغطاء النباتي في السطح يلعبان دورًا أساسيًّا في تهوية الغلاف الجوي للقمر والحفاظ عليه. في إحدى المرات، وخاصة عند خروجي الأول من سجني، كانت رياحٌ باردة تهبُّ بالتأكيد في اتجاه أسفل العمود، وفي وقتٍ لاحقٍ تهبُّ رياحٌ جافة إلى أعلى، مما توافق مع إصابتي بالحُمى، فبعد نهاية قرابة ثلاثة أسابيع، مرضتُ بنوعٍ من الحُمى يصعب تحديده، وعلى الرغم من النوم وأقراص الكينين التي -لحسن الحظ- جلبتها معي في جيبي، بقيتُ مريضًا وبائسًا لفترة، ثم أخذوني إلى القمري الأكبر، وهو سيد القمر».

يضيف بعد ذلك: «لن أتوسَّع في وصف بؤس حالتي، خلال أيام اعتلال الصحة تلك». لكنه يواصل بقدرٍ كبيرٍ من التفاصيل التي حذفتها هنا، ويختتم قائلًا: «لقد ظلَّتْ درجة حرارتي مرتفعة بشكلٍ غير طبيعي لفترة طويلة، وفقدتُ كلَّ رغبة في الطعام، كنتُ أستيقظ مُتعبًا على فتراتٍ، وتعذبني الأحلام عندما أنام، وأتذكر أنني كنتُ، في مرحلة ما، ضعيفًا مثل ضعف المريض على كوكب الأرض، وفي حالة شبه هستيرية. كنت أتوق بشدة إلى الألوان، لكسر هذا الأزرق الأبدي...».

ثم يعود الآن مرة أخرى إلى موضوع الغلاف الجوي الإسفنجي القمري، وقد أخبرني علماء الفلك والفيزياء أنَّ كلَّ ما قاله يتفق تمامًا مع ما كان معروفًا بالفعل عن ظروف القمر. يقول السيد ويندِيجي إنَّه لو تمتَّع علماء الفلك على كوكب الأرض بالشجاعة والخيال لعمل استقراء جريء، لتنبأوا بكلِّ ما يقوله كافور تقريبًا عن بنية القمر العامة. إنَّهم يعرفون الآن عن يقينٍ أنَّ القمر والأرض ليسا كوكبًا تابعًا وكوكبًا أساسيًّا، بقدر ما هما شقيقتان صغرى وكبرى، مصنوعتان من كتلة واحدة، وبالتالي من المواد نفسها. وبما أنَّ كثافة القمر ما هي إلا ثلاثة أخماس كثافة الأرض، فلا بُدَّ من أنَّ القمر يحتوي على نظامٍ هائلٍ من الكهوف. وقال السير جابيز فلاب، وهو صاحب إنجازات علمية كبيرة، لم تكن توجد ضرورة أكثر من الاستمتاع بطرافة النجوم، أن نذهب إلى القمر لمعرفة هذه الاستنتاجات السهلة، مع الإشارة بتورية إلى الجبن الجريير وتجاويفه، وإنما كان بإمكانه بالتأكيد أن يعلن من قبل عن معرفته بأنَّ القمر أجوف. وإذا كان القمر مجوَّفًا، يمكن بسهولة شديدة -بطبيعة الحال- تفسير الغياب الواضح للهواء والماء. يقع البحر عند قاع الكهوف، وينتقل الهواء عبر إسفنج الدهاليز الهائل، وفقًا لقوانين فيزيائية بسيطة. وكهوف القمر، على العموم، هي أماكن عاصفة جدًّا. وعندما يدور ضوء الشمس حول القمر، يسخن الهواء في الدهاليز الخارجية عند هذا الجانب، ويزيد ضغطه،

ويتدفق بعضُه إلى السطح الخارجي ويختلط بالهواء المتبخر من الفوهات (حيث تتخلص النباتات من حمض الكربونيك)، بينما يتدفَّق الجزء الأكبر عبر الدهاليز ليحل محلَّ الهواء المنكمش في الجانب الآخذ في البرودة بعد أن تركته أشعة الشمس. ولذلك يستمر وجود النسيم شرقًا في هواء الدهاليز الخارجية، ويتدفَّق إلى أعلى خلال اليوم القمري صاعدًا على الأعمدة، ويختلف بالطبع إلى حدٍّ كبيرٍ باختلاف أشكال الدهاليز، والاختراعات البارعة التي أنتجها عقل السيلينايت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(24)

التاريخ الطبيعي للسيلينايت

كانت رسائل كافور من السادسة حتى السادسة عشرة، متقطِّعة إلى حدٍّ كبيرٍ في معظمِها وكثيرة التكرار، لدرجة أنَّها بالكاد ما تُشكِّل سردًا متتاليًا. وسوف نقدِّمها كاملة، بطبيعة الحال، في التقرير العلمي، وإنَّما من الأنسب هنا الاستمرار في مجرد التلخيص والاقتباس، كما فعلنا في الفصل السابق. لقد أخضعنا كل كلمة لتدقيقٍ نقدي شديدٍ، وكانت ذكرياتي وانطباعاتي القصيرة عن الأشياء القمرية عونًا مفيدًا للغاية في تفسير ما قد يبدو مظلمًا ويتعذَّر فهمه لولا ذلك. وبطبيعة الحال، تركَّز اهتمامُنا ككائناتٍ حية على مجتمع الحشرات القمرية الغريب الذي كان يعيش فيه، على ما يبدو، كضيف شرفٍ، أكثر من اهتمامِنا بمجرد ظروف عالَمهم المادية.

وأعتقد أنني أوضحتُ بالفعل أنَّ السيلينايت الذين رأيتهم يشبهون الإنسان من حيث القامة المنتصبة، ووجود أربعة أطراف، وقارنتُ مظهرَ رؤوسهم العام ومفاصل أطرافهم بنظيرتها لدى الحشرات. كما أشرتُ أيضًا إلى النتيجة الغريبة المترتبة على انخفاض جاذبية القمر على هشاشتهم. وقد أكد كافور وجهة نظري في هذه النقاط جميعًا، وهو يسميهم «حيوانات»، على الرغم من أنَّهم لا يندرجون بالطبع تحت أي تقسيم لتصنيف مخلوقات كوكب الأرض، ويشير إلى أنَّ «تشريح أنواع الحشرات، لم يتجاوز أبدًا، لحسنِ حظ البشر، حجمًا صغيرًا جدًّا نسبيًّا على كوكب الأرض». فأكبر الحشرات الأرضية، سواء الحية أو المنقرضة، لا يزيد حجمُها في الواقع عن ست بوصاتٍ من حيث الطول؛ «بينما هنا، في مواجهة انخفاض جاذبية القمر، يبدو بالتأكيد أنَّ مخلوقًا مثل الحشرات الفقارية استطاع الوصول إلى أبعاد الإنسان والإنسان الفائق».

لم يذكر النمل، لكن ذهني كان يستحضر النمل طوال تلميحاته، يستحضره من حيث نشاطه الدائم، وذكاؤه وتنظيمه الاجتماعي، وبنيته، ولا سيَّما أنَّ النمل يعرض، بالإضافة إلى الشكلين -الذكر والأنثى، الذي يوجد لدى جميع الحيوانات الأخرى تقريبًا- عددًا من المخلوقات اللا جنسية الأخرى مثل الشغالة، والجنود، وما إلى ذلك، وتختلف عن بعضها في البِنية والطابع والقوة والفائدة، ومع ذلك تنتمي جميعُها إلى النوع نفسِه. يمتلك السيلينايت أيضًا مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأشكال، ولا يقتصر الأمر، بطبيعة الحال، على أنَّهم أكبر حجمًا بشكلٍ هائلٍ من النمل، لكنهم أيضًا -كما يذهب كافور على الأقل- أكثر ذكاء وأخلاقًا وحكمة اجتماعية من البشر. وفي مقابل أشكال النمل الأربعة أو الخمسة المختلفة التي شوهدت هناك، توجد أشكالٌ مختلفة لا حصرَ لها من السيلينايت، وقد حاولتُ الإشارة إلى الفارق الهائل الذي يمكن ملاحظته لدى السيلينايت الذين رأيتهم على القشرة الخارجية للقمر؛ كانت الاختلافات في الحجم والنِسب كبيرة بالتأكيد، مثل الاختلافات بين أعراق البشر الأكثر تباعدًا. لكن مثل هذه الاختلافات، كما رأيت، تتلاشى تمامًا إلى لا شيء مقارنة بالفروق الضخمة التي يرويها كافور. يبدو أنَّ السيلينايت الخارجيين الذين رأيتهم كانوا منشغلين في أعمالٍ متقاربة في الغالب: رعاة لقطعان عجول القمر، وجزارين، وسالخي الجلود، وما إلى ذلك. أما داخل القمر، وهو ما لم أكن أتوقعه عمليًّا، كانت هناك أنواعٌ أخرى من السيلينايت، تختلف من حيث الحجم، وتختلف من حيث الحجم النسبي من جزءٍ إلى جزءٍ، وتختلف من حيث القوة والمظهر، ومع ذلك لا تنتمي إلى

أنواع مختلفة من المخلوقات، وإنما هي مجرد أشكالٍ مختلفة لنوعٍ واحدٍ، وتحتفظ رغم جميع اختلافاتها بشبهٍ مشتركٍ معينٍ يشير إلى خصوصية توحدهم في نوعٍ واحدٍ. إنَّ القمر، في واقع الأمر، هو نوعٌ من تلٍّ شاسعٍ للنمل، على أنَّ الفارق يكمن في وجود العديد من مئات الأنواع المختلفة من السيلينايت مع تدرُّجٍ بين نوعٍ وآخر، في مقابل أربعة أو خمسة أنواعٍ فقط من النمل.

يبدو أنَّهم سرعان ما اكتشفوا مكان كافور، لا أعرف من روايته، وإنما أستنتج، أنَّ السيلينايت الآخرين الذين يشرفون على قطعان عجول القمر هم الذين أسروه، وكانت «علب أدمغتهم (رؤوسهم؟) أكبر وأرجل أقصر كثيرًا». وعندما وجدوا أنه لن يمشي حتى تحت لسعات المهماز، حملوه خلال الظلام، وعبروا جسرًا ضيقًا يشبه اللوح، ربما مثل الجسر الذي رفضتُ عبوره، ووضعوه داخل شيء لا بُدَّ أنَّه بدا في البداية مصعدًا من نوعٍ ما، كان هذا هو البالون. من المؤكد أننا لم نره على الإطلاق بسبب الظلام، كما أنَّ ما بدا لي مجرد لوحٍ في الفراغ كان بلا شكٍّ طريق الممر. وقد هبط بالبالون إلى كهوف القمر الأكثر إضاءة دائمًا. هبطوا صامتين في البداية، باستثناء زقزقات السيلينايت، ثم وصلوا إلى ضجة من الحركة العاصفة. بعد فترة وجيزة، أدَّى السواد الحالك إلى حساسية عينيه، لدرجة أنه بدأ يرى المزيد والمزيد من الأشياء حوله، وفي النهاية اتَّخذ الغموض شكلًا.

يقول كافور، في رسالته السابعة: «تصور مساحة أسطوانية هائلة، ربما يصل عرضها إلى رُبع ميلٍ. كانت خافتة الإضاءة في البداية ثم ازدادت إشراقًا، مع وجود منصات كبيرة تلف أسفل جوانبها في دوامة تتلاشى في النهاية أدناه في عُمقٍ أزرق، وتزداد الإضاءة إشراقًا، ولا يعرف المرء كيف أو لماذا. تذكّر بئرًا يضم أكبر سلم حلزوني أو عمود رفع رأيته في حياتك، وقم بتكبيره مئة مرة. تخيل رؤية ذلك في الشفق من خلال زجاجٍ أزرق، تخيَّل نفسَك تنظر إلى أسفل، وتخيل أيضًا فقط أنك تشعر بخِفة غير عادية، وأنك تخلصت من أي شعورٍ بالدوار قد تشعر به على كوكب الأرض، وعندئذٍ ستعرف الظروف الأولى التي شكَّلت انطباعي. تخيَّل وجودَ دهليزٍ واسعٍ حول هذا المهبط الهائل، دهليزٍ يمتد إلى حلزون أكثر انحدارًا بكثيرٍ مما يمكن تصديق وجوده على كوكب الأرض، ويُشكل طريقًا منحدرًا لا يحميه من الهاوية سوى حاجز صغير يتلاشى في النهاية عن المشهد على مسافة بضعة أميال أدناه».

«نظرتُ إلى أعلى، ورأيتُ زميلًا عند مشهد الهبوط. كان له، بطبيعة الحال، تأثير النظر إلى مخروطٍ شديد الانحدار. كانت الرياح تهب أسفل المهبط. وفي أعلى بكثيرٍ، تخيَّلتُ أنني سمعتُ خوارَ عجول القمر -خافتًا ويزداد خفوتًا- التي كانت تُدفَع إلى أسفل مرة أخرى بعد أن انتهتْ من مرعاها المسائي على السطح الخارجي للقمر. تناثر أعلى وأسفل الدهاليز الحلزونية العديدُ من سكان القمر، كائنات شاحبة ومضيئة بشكلٍ باهتٍ، تنظر إلى مظهرنا أو منشغلة بمهماتٍ غير معروفة».

«إما أنَّ قشرة ثلجية انجرفت خلال النسيم الجليدي، وإما أنني تخيلت ذلك، ثم هبط كقطعة ثلجٍ شخصٌ صغيرٌ، رجل-حشرة صغير، متشبثًا بمظلة، ويتجه بسرعة كبيرة نحو أماكن القمر المركزية».

«كان السيلينايت كبير الرأس يجلس بجانبي، ورآني أحرك رأسي بإيماءة، فأشار بـ«يده» التي تشبه الصندوق إلى شيء مثل رصيف ميناء يظهر في أسفل على مسافة بعيدة: منصة هبوط صغيرة تبدو

مُعلقة في الفراغ، وعندما انجرفت نحونا، تضاءلت وتيرتنا بسرعة كبيرة. وخلال لحظات قليلة، كما بدا، استقررنا على متنها، قُذِف حبل الإرساء وأمسكوا به، ووجدتني أسحَب إلى مستوى يضم حشدًا كبيرًا من السيلينايت، الذين تزاحموا لرؤيتي».

«كان حشدًا مُذهلًا. وجذبتْ انتباهي، فجأة وبقوة، تلك الاختلافات الهائلة بين كائنات القمر هذه».

«لا يوجد، في الواقع، اثنان متشابهان في ذلك الحشد المتدافع، كانوا يختلفون في الشكل، والحجم، وظهرت بينهم تغييراتٌ رهيبة لا سيما من حيث شكل السيلينايت! بعضهم منتفخٌ ويتدلَّى بإفراطٍ، وبعضهم يركض بين أقدام زملائهم. ويثيرون جميعًا إيحاءً بشعًا ومُفزعًا بحشرة تدبرت أمرها بطريقة أو بأخرى للسخرية من البشرية؛ إذ تظهر بكل منهم مبالغة لا تُصدَّق في ملامح بعينها: كان الطرف الأمامي الأيمن لأحدهم ضخمًا، ذراعًا هائلًا يشبه قرون الاستشعار. ويبدو آخر كأنَّه ساقٌ كاملة على ركائز متينة، وآخر تبرز حافة قناع وجهه في عضو يشبه الأنف، بما يجعله بشريًّا إلى حدٍّ مذهلٍ حتى يرى المرء فمه المفتوح الخالي من أي تعبير. أما الرأس الغريب الأكثر شبهًا برؤوس الحشرات (باستثناء نقص الفك السفلي والملامِس) لدى مرافقي عجول القمر، فقد شهد بالفعل تحولات لا تُصَدَّق: هنا كان واسعًا ومنخفضًا، وهنا عريضٌ وضيقٌ، وهنا طال الجبين الجلدي إلى قرون وملامح غريبة، هنا برز شعرٌ خشنٌ ومُقسَّم، وهناك لمحة بشرية بشعة. بدا كلٌّ تشويه واضحًا بوجه خاص. كما ظهرت العديدُ من الرؤوس التي انتفخت كالبالونات إلى أحجام ضخمة، مع تقلُّص قناع الوجه إلى أبعادٍ صغيرة جدًّا. وظهرت أيضًا عدة أشكالٍ مذهلة، ذات رؤوسٍ صغيرة إلى أبعادٍ متناهية الصغر وأجسام فقاعية، فضلًا عن أشياء واهية ولافتة للنظر، يبدو أنَّها ليست سوى أساسٍ واسع لنتوءات تشبه البوَق في الجزء السفلي من القناع. والأغرب من ذلك كله، كما بدا لي في تلك اللحظة، أنَّ اثنين أو ثلاثة من هؤلاء السكان الغريبين لعالِم تحت السطح -وهو عالمٌ محميٌّ من الشمس أو المطر بأميالٍ لا تُحصى من الصخور- يحملون مظلاتٍ في أيديهم التي تتخذ شكلَ مجسَّاتٍ؛ مظلاتٍ تماثل تمامًا المظلات المستخدَمة بالفعل على كوكب الأرض! فكرتُ عندئذٍ في المظلي الذي شاهدته يهبط».

«تصرف سكان القمر هؤلاء كما يتصرف تمامًا حشدٌ بشري في ظروفٍ مماثلة: تزاحموا وتدافعوا ودفعوا بعضهم جانبًا، حتى إنَّهم تسلَّقوا فوق بعضهم لإلقاء نظرة نحوي. كانت أعدادُهم تتزايد في كلِّ لحظة، وتضغط بإلحاح على المسؤولين عني» -لم يفسِّر كافور ما يعنيه بهذا- «وكانت أشكالٌ جديدة تخرج كل لحظة من الظلال، وتفرض نفسها على انتباهي المذهول. وضعوني الآن على شيء مثل المحفَّة ورفعوني فوق أكتاف حمَّالين لديهم أذرع قوية، وساروا بي خلال الغسق بين هذا الحشد الهائج نحو الغُرف التي خصَّصوها لي في القمر. وكان كلُّ شيءٍ حولي أعينًا، ووجوهًا، وأقنعة، وضجيجًا يشبه حفيفَ أجنحة الخنفساء، وثغاء كبيرًا وأصوات زقزقة السيلينايت التي تشبه صوت لعبة الكريكيت».

فهمنا أنَّهم أخذوه إلى «شقة سداسية الأضلاع»، وظلَّ مُحتجزًا بها لفترة، منحوه بعد ذلك حرية أكبر بكثير، تماثل في الواقع قدر الحرية التي يتمتع بها المرء في بلدة متحضرة على كوكب الأرض. ويبدو أنَّ الكائن الغامض، حاكم القمر وسيده، قد عيَّن اثنين من السيلينايت «برؤوس كبيرة» لحراسة كافور ودراسته، وإقامة أي تواصُل عقلي ممكن معه. ومن المذهل، كما قد يبدو، أنَّ هذين الكائنين،

هذين الرجلين-الحشرتين الخياليتين، هذين الكائنين من عالم آخر، كانا يتواصلان حاليًّا مع كافور عن طريق لغة الكلام على كوكب الأرض.

أسماهما كافور «فاي-أوو» و«تسي-بف». يبلغ طول فاي-أوو، كما يقول، قرابة خمسة أقدام؛ وسيقانه صغيرة نحيلة يبلغ طولها نحو 18 بوصة، وقدماه خفيفتان من النمط القمري الشائع. يتوازن جسمه الصغير فوق قدميه وساقيه، ويهتزُّ مع نبضات قلبه. تتَّسم ذراعاه بالطول والليونة وتعدُّد المفاصل، وتنتهي كلٌّ منها بقبضة ذات مجسَّات. أما رقبته، فكانت متعددة المفاصل بالطريقة المعتادة، لكنَّها قصيرة وسميكة بشكلٍ استثنائيٍّ. ويقول كافور -بما يشير بوضوحٍ إلى بعض الأوصاف السابقة التي ضلَّت طريقها في الفضاء- إنَّ رأسَه «من النوع القمري الشائع، لكنَّه يشتمل على تعديلاتٍ غريبة؛ فالفم مفتوحٌ وبلا تعبيرٍ كالعادة، لكنَّه صغيرٌ بشكلٍ غير عادي، ويتجه إلى أسفل، ويتقلص القناع إلى حجم أنف مسطحة كبيرة، وتوجد على كل جانبٍ أعين صغيرة».

«تنتفخ بقية الرأس إلى كرة ضخمة، وتتسم البشرة الجلدية التي تغطي أجسام قطعان عجول القمر بأنَّها رقيقة وعبارة عن مجرد غشاءٍ، يمكن من خلالها رؤية حركات الدماغ النابض بوضوحٍ. لهذا المخلوق، في الواقع، دماغٌ متضخمٌ للغاية، لكنَّه يبدو قزمًا بالنظر إلى تكوين باقي جسمه».

يقارن كافور، في فقرة أخرى، مظهره الخلفي بأطلس العالَم. ويقول عن تسي-بف إنَّه يشبه الحشرة تمامًا، لكنَّ «وجهه» طويلٌ إلى حدٍّ كبيرٍ، ويبدو تضخُّم دماغه في مناطق مختلفة؛ فلم يكن رأسُه مستديرًا، وإنَّما على شكل كمثرى، تنحني إلى أسفل. هناك أيضًا حاملو المحفة، وهم كائناتٌ تفتقر إلى التناسُب في أشكالِها، أكتافها ضخمة، أنهم مرشدون يتحركون بشكلٍ عنكبوتي، يرافقون حاشية كافور.

كانت الطريقة التي حاول بها فاي-أوو وتسي-بف حل مشكلة الكلام بسيطة إلى حدٍّ ما؛ جاؤوا إلى «الزنزانة السداسية» التي حُبِس فيها كافور، وبدأوا في تقليد كلِّ صوتٍ يصدر منه، بدءًا من السعال. ويبدو أنَّ كافور سرعان ما أدرك مقصدهما، فبدأ في تكرار الكلمات أمامهما والإشارة إلى معناها. ربما كان الإجراء مماثلًا دائمًا. يأتي فاي-أوو إلى كافور ويبقى معه لفترة، ويشير أيضًا ويقول الكلمة التي سمعها.

كانت الكلمة الأولى التي أتقنها هي «رجل»، والثانية «قمري» -التي يبدو أنَّ كافور استخدمها حينذاك، بدلًا من «سيلينايت»، للتعبير عن عِرق سكان القمر. وبمجرد أن يتأكد فاي-أوو من معنى كلمة، كان يكررها أمام تسي-بف، الذي يتذكرها بلا أخطاء. أتقنا أكثر من مئة كلمة إنجليزية في جلستهما الأولى.

ويبدو أنَّهما أحضرا في وقتٍ لاحقٍ فنانًا معهما للمساعدة في التفسير بالرسوم والأشكال؛ إذ كانت رسوم كافور فجة نوعًا ما. يقول كافور: «كان كائنًا بذراعٍ نشطة وعينٍ لاقطة»، ويرسم بسرعة مذهلة.

أمَّا الرسالة الحادية عشرة، فليست دون شكٍّ سوى جزءٍ من تواصُلٍ أطول. بعد عدة جُمل مقطوعة، وتسجيلها غير مفهوم، يواصل قائلًا:

«لكن عرض تفاصيل سلسلة المحادثات، التي كانت هذه هي بدايتها، لن يثير سوى اهتمام اللغويين، وسوف يؤخرني لفترة طويلة. كما أنني أشكُّ كثيرًا بالفعل في إمكانية عرض أي شيء في ترتيبٍ سليم لكل التقلبات والمنعطفات التي مررنا بها سعيًا لتحقيق الفهم المتبادل. سرعان ما أصبحت المحادثاتً يسيرة؛ فالأفعال النشطة، على الأقل، يمكن التعبير عنها بالرسم. كانت بعض الصفات سهلة، أما فيما يتعلق بالأسماء المجردة وحروف الجر وأنواع المجاز بالعامية -المُستخدمة على كوكب الأرض- كان الأمر أشبه بمحاولة الغوص مع ارتداء سترات من الفلين. وفي الواقع، ظلّت هذه الصعوبات مستعصية على الحل حتى حضر إلى الدرس السادس مساعدٌ رابعٌ، وهو كائنٌ برأسٍ ضخم على شكل كرة قدم، ومن الواضح أنَّ مهارته كانت تكمن في البحث عن تماثل مُركَّب. دخل بمظهرٍ جدّي، متعثرًا في كرسي. كان لا بُدَّ أن نطرح عليه الصعوبات التي نشأت، وإنما بقدرٍ من الصخب والقرع والوخز قبل أن تصل إلى إدراكه. لكنَّه ما إن فهم الوضع، حتى كان تدخُّله مُذهلًا. وكلما ظهرت الحاجة إلى التفكير بما يتجاوز حدود نطاق فاي-أوو، كنَّا نلجأ إلى هذا الشخص كبير الرأس؛ لكنه كان يبلِّغ استنتاجه دائمًا إلى تسي-بف، لأنه من سيتذكرها؛ ذلك أنَّ تسي-بف كان بمثابة ترسانة للحقائق، وهكذا نمضي قُدُمًا مرة أخرى».

«بدا الأمرُ طويلًا ومع ذلك قصيرًا، مسألة أيام، قبل أن أتمكَّن من الحديث بشكلٍ إيجابيٍّ مع هذه الحشرات القمرية. كان التواصُل في البداية، بطبيعة الحال، مملًّا بلا نهاية وسخيفًا، لكنَّه تطور بشكلٍ غير محسوسٍ إلى فهم. كما تنامى صبري لتحمُّل حدود هذا الفهم، حيث كان فاي-أوو هو يتولَّى الحديث كله، وكان يتوقَّف كثيرًا في حالة تأمُّلٍ، مكررًا «ممم-ممم»، ويلتقط عبارة أو عبارتين، «إن جاز لي القول»، «إذا كنت تفهم»، ويؤخر حديثه معهم».

«هذه طريقة حديثه. تخيله يشرح لفنانه».

«ممم-ممم. إنه، إن جاز لي القول، يرسم، يأكل قليلًا، ويشرب قليلًا، ويرسم، يحب الرسم، لا شيء آخر. يكره كل من لا يرسم مثله. يغضب، يكره كلَّ من يرسم مثله بشكلٍ أفضل. يكره معظم الناس. يكره كلَّ من لا يفكر في كل العالم ويرسمه. يغضب. ممم. كل الأشياء لا تعني شيئًا بالنسبة له، إنه يرسم فقط. إنه يحبك... إذا كنت تفهم.... شيء جديد ليرسمه. قبيح، ملفت للنظر. هه؟».

«إنه»، متحولًا إلى الحديث عن تسي-بف، «يحب تذكُّر الكلمات. يتذكر أفضل من أي شخص. لا يفكر، لا يرسم، يتذكر فقط». ثم يشير إلى مساعده الموهوب بكلمة «التاريخ. كل شيء. يسمعه مرة واحدة، ويقوله دائمًا».

«إنه لشيء رائع بالنسبة إليَّ، أكثر مما حلمت أن يحدث، أن أسمع في هذا الغموض الدائم تلك المخلوقات غير العادية -التي يخفق حتى الاعتياد في إضعاف تأثير مظهرها غير البشري- وهي تزقزق باستمرار على نحو أقرب إلى كلامنا الأرضي المتسق، تطرح أسئلة وتقدم إجابات. أشعر أنني أعود مرة أخرى إلى سماع الحكايات الخرافية في فترة الطفولة، عندما كانت النملة والجرادة تتحدثان وتحكُم النحلة بينهما...».

يبدو أنَّ كافور استراح كثيرًا من حبسه في أثناء هذه التمارين اللغوية. يقول: «لقد تمكنت من خلال استمراري في العقلانية المُتَعمَّدة لتصرفاتي أن أمحو أول رهبة وعدم ثقة شهدها صراعنا المؤسف،

وأنا قادرٌ الآن على التحرك جيئة وذهابًا كما يحلو لي، أو أحدِّد حركتي حسب مصلحتي فقط. ولذلك تمكَّنتُ من الوصول إلى هذا الجهاز؛ وبمساعدة اكتشاف سعيد بين المواد التي تناثرت في هذا الكهف-المخزن الهائل، ابتكرتُ وسيلة لبثِّ هذه الرسائل، ولم تحدث حتى الآن أدنى محاولة للتدخل فيما أقوم به، على الرغم من أنني أوضحتُ تمامًا لفاي-أوو أنني أبثُّ رسائلي إلى كوكب الأرض.

«هل تتحدث إلى شخص آخر؟» سألني وهو يراقبني.

«قلتُ له: «أتحدث إلى آخرين».

«قال: آخرين، أوه، نعم، رجال؟».

«وواصلتُ الإرسال».

كان كافور يصحِّح باستمرار تقييماته السابقة عن السيلينايت كلما تدفقت حقائق جديدة تتطلَّب منه تعديلَ استنتاجاته، وبالتالي نقَدم الاقتباسات التالية مع قدرٍ من التحفظ. وهي اقتباساتٌ من الرسائل التاسعة والثالثة عشرة والسادسة عشرة. وعلى الرغم من غموض هذه الرسائل وتجزئتها، فربما تعطي صورة كاملة عن الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع الغريب، الذي يمكن أن تأمل البشرية الآن في تحقيقه لأجيالٍ عديدة.

يقول كافور: «في القمر، يعرف كلُّ مواطنٍ مكانَه. فقد وُلِد في ذلك المكان، ويناسبه المكان في النهاية تمامًا بعد أن يخضع المواطن لانضباطٍ متقنٍ في التدريب والتعليم والجراحة، بحيث لا يمتلك أيَّ أفكارٍ أو أعضاء لأي غرض يتجاوز ما يتطلَّبه المكان. قد يسأل فاي-أوو «لماذا يجب عليه ذلك؟». فعلى سبيل المثال، إذا كان من المقرر لسيلينايت أن يصبح عالم رياضيات، فإن معلميه ومدربيه يشرعون على الفور لتحقيق هذه الغاية، يتحققون من أي نزعات أولية لديه لاهتماماتٍ أخرى، ويشجعون تحيُّزه للرياضيات بمهارة نفسية مثالية. ينمو عقله، أو على الأقل تنمو المَلَكات الرياضية في عقله، ويتبقى فقط ما هو ضروري للحفاظ على هذا الجزء الأساسي منه. وتكمن سعادته الوحيدة في النهاية، باستثناء الراحة والطعام، في ممارسة وإظهار مَلَكاته تلك، وينصب اهتمامه الوحيد على تطبيقها، ويصبح مجتمعه الوحيد هو مجتمع المتخصصين الآخرين في مجاله. يكبر دماغه باستمرار، على الأقل بقدر ما يتعلَّق الأمر بالأجزاء المرتبطة بالرياضيات؛ فهي تزداد انتفاخًا، ويبدو أنَّها تمتص كلَّ الحياة والنشاط من بقية جسده، ولذا تذبل أطرافه، ويتقلص قلبه وجهازه الهضمي، ويختبئ وجهه الحشري أسفل معالمه المنتفخة، ويصبح صوته مجرد صريرٍ للتعبير عن المعادلات والصيغ الرياضية، كما يبدو مصابًا بالصمم في جميع المشاكل ما عدا الملفوظَة بشكلٍ صحيحٍ. يفتقر إلى مَلَكة الضحك، باستثناء عند الاكتشاف المفاجئ لمفارقة ما، وتتمثل أعمق مشاعره في تطوير طريقة حساب جديدة، ويظل هكذا طوال حياته».

«أو، مرة أخرى، في حالة سيلينايت تَقرَّر أن يعمل في رعي عجول القمر؛ عندئذٍ يُحفّز من سنواته الأولى على التفكير والعيش كعجل قمرٍ، ويجد سعادته في معرفة عادات عجول القمر، ويتدرب على رعايتهم ومتابعتهم. يتدرب أيضًا على التمتُّع بالقوة والنشاط، وتركز عيناه على إحكام الأربطة، والجوانب التي تشكل «رعاية ذكية لعجول القمر». وفي النهاية، لا يهتم على الإطلاق بالجزء

الداخلي الأعمق من القمر. كما يعتبر أنّ السيليناييت جميعًا ليسوا على دراية متساوية بعجول القمر، وتتراوح مواقفهم بين اللا مبالاة، والسخرية، أو العداء. تدور أفكاره حول المراعي، ولغته التقنية بارعة فيما يتعلق بعجول القمر. وهو يحب عمله، ويؤدي بسعادة تامة الواجبات التي تبرر وجوده. وهكذا يسير الأمر مع جميع أنواع وظروف السيليناييت؛ كلٌّ منهم هو وحدة مثالية في آلة العالم».

«وتشكِّل هذه الكائنات ذات الرؤوس الكبيرة، التي يقع عليها عبء العمل الفكري، نوعًا من الأرستقراطية في هذا المجتمع الغريب، وعلى رأسه «القمري الأكبر»- ذلك العملاق المذهل، الذي سأمثل أمامه أخيرًا. ويرجع التطور غير المحدود لعقول الطبقة الفكرية إلى عدم وجود جمجمة عظمية في التشريح القمري، وأعني ذلك الصندوق الغريب من العظام الذي يضم العقل المتطور لدى الإنسان، مع الإصرار بشدة على «حتى الآن وليس أبعد» فيما يتعلق بجميع إمكانياته. تنقسم هذه الطبقة إلى ثلاث فئات رئيسة، تختلف اختلافًا كبيرًا من حيث التأثير والاحترام. هناك الإداريون، ومن بينهم فاي-أوو، وهم سيليناييت بارعون يتمتعون بقدرة كبيرة على المبادرة، وكلٌّ منهم مسؤولٌ عن محتوى مكعب كامل معين من كتلة القمر. الخبراء، مثل المفكر الذي تشبه رأسه كرة القدم، ويتدربون على تنفيذ عمليات خاصة بعينها. والمثقفون، الذين هم مستودعاتٌ لجميع المعارف، وهي الفئة التي ينتمي إليها تسي-بف، أول أستاذ قمري في لغات كوكب الأرض. ومن الغريب هنا ملاحظة أن النمو غير المحدود للدماغ القمري يجعل اختراع كل تلك المُعينات الميكانيكية لعمل الدماغ، التي ميَّزت مسار الإنسان، غير ضروري. لا توجد كتبٌ أو سجلاتٍ من أي نوعٍ، ولا مكتبات أو كتابة. فجميع أنواع المعرفة تُخزَّن في عقول منتفخة، مثلما يُخزِن نمل-العسل في تكساس العسل في بطونِه المنتفخة، أما بيت سومرست القمري ومكتبة المتحف البريطاني القمرية، فهي عبارة عن مجموعات من العقول الحية».

«لاحظتُ أنَّ المديرين الأقل تخصصًا يهتمون بي كثيرًا عندما يلتقون بي. يخرجون من طريقهم ويحدقون بي، ويوجِّهون أسئلة يردُّ عليها فاي-أوو. أراهم يتحركون هنا وهناك محاطين بمجموعة من الحمّالين، والمرافقين، ومُطلِقي الهتافات، وحاملي المظلات، وغيرهم- مجموعات غريبة عندما تراها. يتجاهلني تمامًا معظمُ الخبراء، ويتجاهلون حتى بعضهم؛ أو يلاحظونني فقط لبدء عرضٍ صاخبٍ لمهاراتهم المميزة. أمَّا المثقفون، فأغلبهم منغمسٌ في حالة صامتة ومُحكمة من الرضا عن النفس، ولا يثيرهم سوى إنكار سعة اطلاعهم ومعارفهم، يقودهم عادة مراقبون ومرافقون صغار، وغالبًا ما توجد مخلوقاتٌ صغيرة ذات مظهرٍ نشيطٍ، إناث صغيرات عادة، أميل إلى الاعتقاد بأنهن زوجاتهم. على أنَّ بعض العلماء الأكثر معرفة وذكاء يرون أنهم أعظم من أن يتحركوا بأنفسِهم، وبالتالي ينتقلون من مكانٍ إلى آخر في نوعٍ من الأحواض، حيث يتمايلون كهُلام من المعرفة يثير احترامي المندهش. لقد مررتُ للتوِّ بأحدِهم في أثناء مجيئي إلى هذا المكان، الذي يسمحون لي فيه التسلية بالألعاب الكهربائية. كان رأسُه ضخمًا، وحليقًا، ومهتزًّا، وأصلع، ورقيقَ البشرة، ومحمولًا على نقالته البشعة. ظهر حاملوه من الأمام والخلف؛ وأعلن عن مجيئه ناشرو الأخبار، وكانت أشكالهم غريبة ووجوههم تشبه الأبواق».

«لقد سبق أن ذكرت الحاشية التي تصاحب معظم المثقفين: المرشدون، والحمّالون، والخدم، ومرافقون ذوي مجسَّات وعضلات غريبة، لتحلَّ محلَّ ضعف القوى البدنية لدى تلك العقول

المتضخمة. ويرافقهم الحرس دائمًا. وهناك أيضًا رُسُل يتمتعون بسرعة هائلة؛ سيقانهم مثل العنكبوت، و«أيديهم» مُجهزة للإمساك بالمظلات. وهناك مرافقون يمتلكون أعضاء صوتية تكاد في قوتِها أن توقظ الموتى، وبصرف النظر عن ذكائهم الخاضع للسيطرة، يتسم هؤلاء المرؤوسون بالخمول والعجز - مثل مظلات معلَّقة في حاملٍ. ولا تجدهم إلَّا فيما يتعلَّق بالأوامر التي يتعيَّن عليهم طاعتها، والواجبات التي يتعين عليهم أداؤها».

«على أنَّني أعتقد الجزء الأكبر من هذه الحشرات، الذين يتحركون ذهابًا وإيابًا على الطرق الحلزونية، والذين يملؤون البالونات الصاعدة ويسقطون أمامي متشبثين بالمظلات الواهية، هم من فئة العاملين، يمتلك بعضهم «أياديَ آلية»، وهذه في الواقع طبيعتهم الفعلية وليس قولًا مجازيًّا؛ ذلك أنَّ المجس الوحيد لقطيع عجول القمر يجري تعديله كثيرًا من أجل الخدش، والرفع، والتوجيه، والباقي لا يزيد عن زوائد ثانوية ضرورية لهذه الأجزاء المهمة. ويوجد لدى بعضهم، الذين أتصوَّر أنهم يتعاملون مع آليات قرع الجرس، أعضاء سمعية متطورة بشكلٍ هائلٍ، والبعض الآخر قد طوَّر أجهزة سمعية هائلة؛ ومن يكمن عملهم في العمليات الكيميائية الدقيقة، يتمتعون بجهاز هائلٍ يتصل بحاسة الشم؛ وهناك آخرون لديهم أقدامٌ مسطحة للدواسات ذات المفاصل الرأسية. وقيل لي إنَّ البعض الآخر يعمل في نفخ الزجاج، ولذا تبدو رئاتهم منتفخة. على أنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء السيلينايت العاديين الذين رأيتهم يعملون، يتكيَّف بشكلٍ رائعٍ مع الاحتياج الاجتماعي الذي يلبِّيه، ويتولَّى عمال صغارٌ أداء الأعمال الدقيقة والفنية، وهؤلاء العمال أقزامٌ ومتأنقون بشكلٍ مذهلٍ، يمكنني حتى حمل بعضهم على راحة يدي. هناك أيضًا نوعٌ شائعٌ من السيلينايت الدوار الذي يكمن دوره وفرحه الوحيد في تطبيق القوة الدافعة لمختلف الأجهزة الصغيرة. وللسيطرة على هذه الأشياء وتنظيم أي ميلٍ خاطئ قد يوجد في طبائع منحرفة، هناك كائناتٌ تتمتَّع بأضخم عضلات رأيتها في القمر؛ وهو نوعٌ من الشرطة القمرية، الذين لا بُدَّ قد تدربوا من سنواتهم الأولى لتقديم الاحترام والطاعة الكاملين لأصحاب الرؤوس المنتفخة».

«لا بُدَّ من أن صُنع هذه الأنواع المختلفة من العمال هو عملية غريبة جدًّا ومثيرة للاهتمام، وأنا لا أعرف عنها أيَّ شيء، لكنَّني التقيتُ مؤخرًا عددًا من شباب السيلينايت محبوسين في جِرارٍ ولا يبرز منها سوى أطرافهم الأمامية، وفهمتُ أنَّه يجري ضغطهم ليصبحوا مُشغلين لآلاتٍ من نوعٍ خاصٍ. إن «اليد» الممتدة، في هذا النظام عالي التطور من التعليم التقني، يجري تحفيزها عن طريق مؤثِّرات خارجية وتغذيها بالحقن، بينما يتضور بقية الجسم جوعًا. أوضح فاي-أوو، ما لم أُسيء فهمه، أنَّ هذه الكائنات الصغيرة تميل في المراحل المبكرة إلى إظهار علامات المعاناة من حالات الضيق المختلفة، لكنَّها تعتاد بسهولة على مصيرها، وأخذني إلى حيث يجرى سحب عدد من الرُسُل الذين يتسمون بالمرونة وترويضهم. أعرف إنَّه أمرٌ غيرُ معقولٍ على الإطلاق، لكن تلك اللمحات عن الأساليب التعليمية لهذه الكائنات كانت تترك تأثيرًا سيئًا عليَّ. ومع ذلك، آمل أن يزول هذا التأثير، وأتمكَّن من رؤية المزيد من هذا الجانب من نظامهم الاجتماعي الرائع. ويبدو أن تلك المجسات اليدوية بائسة المظهر، التي تخرج من الجِرار، تتطلَّع بضعفٍ إلى الإمكانيات المفقودة. لا يزال هذا المشهد يطاردني، على الرغم من أنه في النهاية إجراءٌ أكثر إنسانية كثيرًا، بالطبع، من طريقتنا على كوكب الأرض في ترك الأطفال تنمو لتصبح بشرًا، ثم نصنع منهم آلات».

«وفي الآونة الأخيرة أيضًا، أعتقد في زيارتي الحادية عشرة أو الثانية عشرة إلى هذا الجهاز، ألقيتَ نظرة على حياة هؤلاء المُشغلين. أرشدني المرافق عبر طريقٍ قصيرٍ، بدلًا من النزول على الحلزون، وعلى طول أرصفة البحر المركزي، وبعد لفاتٍ ملتوية لدهليزٍ طويلٍ ومظلم، خرجنا إلى كهفٍ واسعٍ ومنخفضٍ، تنتشر فيه رائحة ترابية. سرنا في الظلام إلى أن وصلنا لضوءٍ ساطعٍ. جاء الضوء من نموٍ صاخبٍ لأشكالٍ حية من الفِطر، بعضُها في الواقع يشبه الفطر على كوكبِنا الأرضي، لكنَّه يرتفع عاليًا مثل الإنسان أو أعلى منه».

«سألت فاي-أوو: «هل يأكل القمريون هذا؟».

«نعم، طعام».

«يا إلهي!» قلتُ صائحًا. «ما هذا؟».

«التقطتْ عيني الآن هيئة لسيليناية كبيرٍ بشكلٍ استثنائي وبشعٍ، يرقد بلا حراكٍ بين سيقان النباتات ووجهه إلى أسفل. توقفنا».

«سألتُ: «هل هو ميت؟». (لم أرَ حتى الآن أي ميتٍ في القمر، وتعاظم فضولي).

«لا!»، قال فاي-أوو. «إنه عاملٌ، وليس لديه عمل الآن. يشرب قليلًا ثم ينام حتى نريده، لماذا يظل مستيقظًا، هه؟ لا نريده أن يتجول».

«قلت: «هناك آخر!».

«وبالفعل، وجدتُ أنَّ كلَّ هذه المساحة الهائلة من الأرض التي يغطيها الفِطر مليئة بأجسام راقدة، تنام مُخدَّرة إلى أن يحتاجها القمر. كان هناك العشرات منهم من جميع الأنواع. استطعنا قلَّب بعضهم، وفحصهم بدقة أكبر مما كنت قادرًا عليه من قبل. عندئذٍ تنفَّسوا بصخبٍ، لكنهم لم يستيقظوا. أتذكر أحدهم بوضوحٍ شديدٍ: أعتقد أنه ترك انطباعًا قويًّا؛ ذلك أن قوة كل من الضوء ووضعه الجسماني كان يوحي بقوة بهيئة بشرية. كانت أطرافه الأمامية طويلة، ومجساته رقيقة -كان نوعًا من المناور المهذب- ويشير وضع سباته إلى خضوعه لمعاناة. لا شكَّ أنني أخطأت بتفسير تعبيره بهذه الطريقة، لكن هذا ما فعلته. وعندما دحرجه فاي-أوو في الظلام بين النائمين، شعرتُ مرة أخرى بإحساسٍ غير سارٍ بوضوحٍ، على الرغم من أن طبيعته كحشرة ظهرت مع دحرجته».

«هذا يوضح ببساطة الطريقة غير المدروسة التي يكتسب بها المرء عادات الإحساس. إن تخدير العامل الذي لا تحتاجه وتلقيه جانبًا هو بالتأكيد أفضل بكثيرٍ من طرده من مصنعه ليتضور جوعًا في الشوارع. فكلُّ مجتمعٍ اجتماعي معقدٌ، يشهد بالضرورة انقطاع بعض العمالة المتخصصة عن العمل، وبهذه الطريقة يمكن تمامًا توقع حدوث مشكلة «البطالة». ومع ذلك، ما يفعلونه هو غير معقول حتى للعقول المدربة علميًّا. ما زلت لا أحب ذكرى تلك الأشكال الراقدة وسط أروقة النمو النباتي الهادئة والمضاءة، وأتجنَّب هذا الطريق القصير على الرغم من مضايقات الطريق الأطول والأكثر ضجيجًا وازدحامًا».

«أما الطريق البديل، فيأخذني إلى كهفٍ ضخمٍ ومظللٍ، فضلًا عن ازدحامِه الشديد وصخبِه. وهنا أخذتُ أُطِل من فتحات سداسية في جدارٍ يشبه خلية النحل، أو أستعرِض مساحة كبيرة مفتوحة في الخلف، أو أختار اللعب والتمائم التي صُنعها -بهدف إرضائهم- الجواهرجية ذوو المجسات الأنيقة الذين يعملون أدناه. الأمهات في عالم القمر، ملِكات النحل كما توجد في خلية النحل، إنهن كائناتٌ نبيلات المظهر، يتزينَّ بشكلٍ رائعٍ وأحيانًا في قمة الجمال، ويركبن عربة فخمة؛ وباستثناء أفواههن، رؤوسهن صغيرة جدًّا، شِبه مجهرية».

«وفيما يتعلَّق بالجنسين في القمر، والزواج والعطاء في الزواج، والولادة، وما إلى ذلك بين السيلينايت، فلم أعرِف حتى الآن سوى القليل جدًّا، على أنني أعتقد أنَّ جهلي هذا سوف يختفي تدريجيًّا، دون شكٍّ، مع التقدُّم المطرد في معرفة فاي-أوو باللغة الإنجليزية. وفي رأيي أنَّ هذا المجتمع يضم أغلبية كبيرة من الجنس المحايد، كما هو الحال مع النمل والنحل. يوجد بالطبع في مدننا على كوكب الأرض العديد ممن لم يعيشوا أبدًا حياة السلالة والنسب، التي تُعتبر الحياة الطبيعية للبشر. أما هنا، فالوضع يشبه الحال مع النمل، حيث أصبح هذا الشيء حالة طبيعية تتعلق بالعِرق، ويقع كل هذا الاستبدال الضروري على هذه الفئة الخاصة وليس بأي حالٍ من الأحوال فئة العديد من الأمهات، أمهات عالَم القمر، تلك الكائنات الكبيرة والجليلة المُجهزة بشكلٍ جميلٍ لتحمل يرقات السيلينايت. وما لم أكن قد أسأت فهم شرح فاي-أوو، فهن غير قادراتٍ إطلاقًا على رعاية صغارهن؛ إذ يعشن فترات متناوبة من التساهُل الأحمق وأمزجة العنف العدواني، ولذلك، يجرى في أقرب وقتٍ ممكنٍ نقل المخلوقات الصغيرة، التي تتسم بالليونة الشديدة والضعف وشحوب اللون، إلى مسؤولية إناث عزباوات، نساء «عاملات»، يتمتعن في بعض الحالات بأدمغة ذات أبعاد تكاد تكون ذكورية».

انقطعتْ الرسالة، للأسف، عند هذه المرحلة. وعلى الرغم من أنَّ المادة التي تُشكِّل هذا الفصل مُجزَّأة ومثيرة، فهي تعطي انطباعًا مشوشًا وعريضًا عن عالم غريبٍ ورائعٍ في آن؛ عالَم يتعيَّن على عالَمنا أن يتعامل معه، وإن كنَّا لا نعرف بأي سرعة سيحدث ذَلك. إنَّ هذا التَّدفُّق المتقطِّع من الرسائل، وهذا الهمس الصادر عن إبرة تسجيل في سكون المنحدرات الجبلية، هو التحذير الأول لمثل هذا التغيير في الظروف البشرية كما لم تتصورها البشرية حتى الآن. توجد في القمر التابع لكوكبنا الأرضي عناصرُ جديدة، وأجهزةٌ جديدةٌ، وتقاليد، وسيلٌ هائلٌ من الأفكار الجديدة، وعِرق غريبٌ يجب أن نكافح حتمًا من أجل السيطرة على الذهب الشائع لديه مثل الحديد أو الخشب لدينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(25)
القمري الأكبر

تصف الرسالة قبل الأخيرة، بتفاصيل دقيقة أحيانًا، اللقاء بين كافور والقمري الأكبر، حاكم القمر أو سيده. يبدو أنَّ كافور بثَّ معظمَ رسائله دون تدخل، لكنه قوطع في الجزء الأخير منها؛ ووصلت الرسالة التالية بعد توقُّفٍ دام أسبوعٌ.

تبدأ الرسالة الأولى: «أخيرًا تمكَّنت من استئناف هذا...»، ثم تصبح الرسالة غير مقروءة لمساحة، وبعد فترة تُستأنَف في منتصف جملة.

الكلمة المفقودة من الجملة التالية هي، على الأرجح، «الحشد». ويتبعها بوضوحٍ تامٍّ: «ازداد كثافة كلما اقتربنا من قصر القمري الأكبر، إن جاز لي أن أُسمي سلسلة من الحفريات قَصرًا. في كلِّ مكانٍ وجوهٌ تحدق إليَّ – أفواهٌ مفتوحة خالية من التعبير، وأقنعة، وأعين تطلُّ على نموٍ هائلٍ في أجهزة الشم، وأعين تقع أسفل لوحة الجبين الوحشية، ونمو غير مكتمل لمخلوقات صغيرة تراوغ وتعوي، ووجوه كالخوذة فوق أعناق متعرجة ذات مفاصل طويلة تظهر فوق الكتفين وتحت الإبطين. يسير حولي، محتفظًا بمسافة، مجموعة من الحراس متبلدي الإحساس ورؤوسهم تشبه الدِلاء، انضموا إلينا عندما تركنا القارب الذي أوصلنا خلال عدة قنوات إلى البحر المركزي. انضم إلينا أيضًا الفنان سريع العينين صغير الدماغ، وتمايلت مجموعة كثيفة من الحشرات الحمّالة الهزيلة، وكافحت تحت العديد من وسائل الراحة التي كانت تُعتبر ضرورية لحالتي. حملوني في محفة خلال المرحلة الأخيرة من رحلتنا، كانت المحفة مصنوعة من معدنٍ شديد المرونة، بدا داكنًا بالنسبة إليَّ، وكانت متشابكة ومنسوجة مع قضبان من معدنٍ أكثر شحوبًا. وسار حولي، خلال تقدُّمي، جمعٌ من موكبٍ طويلٍ ومعقدٍ.

«في المقدمة، وعلى طريقة المُبشرين، سار أربعة مخلوقات ذات وجهٍ يشبه البوق، وتُصدِر نهيقًا مُدمِّرًا؛ ثم جاء المرشدون السِّمان وهم يتحركون بحزم في الأمام والخلف، وعلى الجانبين مجموعةٌ من ذوي الرؤوس المثقفة، نوعٌ من موسوعة متحركَة، يقفون كما أوضح فاي-أوو حول القمري الأكبر لأغراضٍ مرجعية. (لا يوجد شيءٌ في علوم القمر، ليس وجهة نظر أو طريقة التفكير، لا تحملها هذه الكائنات الرائعة في رؤوسها!). يلي ذلك الحراس والحمّالون، ثم يأتي فاي-أوو برأسه المهتز محمولًا أيضًا على محفة، ثم تسي-بف في محفة أقل أهمية قليلًا، وبعد ذلك محفتي الأكثر أناقة من أي محفة أخرى، ويحيط بها المرافقون الذين يحملون الطعام والشراب. ويأتي بعد ذلك المزيدُ من عازفي الأبواق، يخترقون الأذن بصيحاتٍ شديدة، ثم العديد من الأدمغة الكبيرة، المراسلين الخاصين كما يمكن تسميتهم، أو المؤرخين المكلفين بمهمة مراقبة وتذكُّر كل تفاصيل هذه المقابلة عظيمة الأهمية. اختفت في الظلام الخلفي مجموعة من المرافقين يحملون ويسحبون لافتاتٍ، وكمياتٍ من الفطريات المعطرة، والرموز الغريبة. واصطفَّ على الطريق المرشدون والضباط وهم يرتدون أغطية مزركشة تلمع مثل الفولاذ، وامتدَّ وراء صفهم، بقدر ما تمكَّنت عيني من اختراق الظلام، رؤوسٌ هذا الحشد الهائل».

«لا بُدّ أن أعترف أنني لا أزال أفكر في التأثير الغريب لمظهر السيليناية، ولم يكن مقبولاً بأي حالٍ من الأحوال أن أجد نفسي منجرفًا في هذا البحر الواسع من الحشريات المتحمسة. بقيتُ لفترة أشعر بشيءٍ يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ ما يمكن أن يعنيه الناس عندما يتحدثون عن «الأهوال». شعرتُ بذلك من قبل في تلك الكهوف القمرية، عندما كنتُ أجد نفسي أحيانًا بلا سلاحٍ، وظهري غير محميٍّ وسط حشدٍ من هؤلاء السيليناية، لكنَّه لم يكن أبدًا بمثل هذا الوضوح. إنَّه، بطبيعة الحال، شعورٌ غير عقلاني على الإطلاق، وآمل أن أتخلَّص منه تدريجيًّا، لكنني، ولمجرد لحظة، انزلقتُ إلى الأمام في فوضى الحشد الهائل، إلا أنني تمكَّنتُ من التشبُّث بالمحفة بإحكام، واستدعاء كل ما لديَّ من قوة الإرادة، ونجحتُ في تجنُّب الصراخ أو غيره من مظاهر مماثلة، استغرق الأمر ثلاث دقائق ثم تماسكتُ مرة أخرى».

«صعدنا لفترة في اتجاه حلزوني في طريقٍ عموديٍّ، ثم مررنا من خلال سلسلة من القاعات الضخمة ذات الأسقف التي تتخذ شكل القبة، والمزخرفة بإتقانٍ. كان الطريق إلى موقع القمري الأكبر مُصممًا بالتأكيد لإعطاء المرء انطباعًا حيًّا عن عظمتِه. فكلُّ كهفٍ ندخله يبدو أكبر من سابقه وأكثر جرأة في تقوس سقفه. وقد تعزَّز تأثير زيادة الحجم تدريجيًّا عن طريق ضبابٍ رقيقٍ من البخور الأزرق الفوسفوري الخافت، الذي يزداد كثافة مع تقدُّمنا، ويخفي حتى أقرب الأشكال. شعرتُ أنَّني أتقدَّم باستمرارٍ إلى شيءٍ أكبر، وأقل إضاءة، وأقل مادية».

«يجب أن أعترف أنَّ كلَّ هذا الحشد جعلني أشعر بتفاهتي الشديدة وحقارتي؛ كنتُ غير حليقٍ، وأشعثَ، لم أحضر أي شفرة حلاقة، وكانت لحيتي خشنة على فمي. كنتُ أميل دائمًا، على كوكبي الأرضي، إلى ازدراء أي اهتمام بنفسي أكثر من الرعاية المناسبة للنظافة، وإنما في ظل الظروف الاستثنائية التي وجدتُ نفسي فيها هنا، ممثلًا لكوكبي ونوعي ومعتمدًا إلى حدٍّ كبيرٍ على جاذبية مظهري كي أحظى باستقبالٍ مناسبٍ، كان يمكنني إعطاء مزيدٍ من الاهتمام لشيء أكثر تأنقًا ووقارًا من القشور التي ارتديها. كنتُ أعتقد مطمئنًا تمامًا أنَّ القمرَ غيرُ مأهولٍ بالسكان، بحيث تغاضيت عن هذه الاحتياطات برمتها. كنتُ أرتدي سترة صوفية خفيفة، وبنطالًا فضفاضًا، وجوارب الجولف الملطخة بكل أنواع القاذورات القمرية، وحذاءً (كعبه الأيسر مفقودٌ)، وبطانية تنفذ رأسي من ثقب فيها. (ما زلت أرتدي هذه الملابس بالفعل). كانت الشعيرات الحادة تمثل أي شيء إلا تحسين ملامحي، وكان يوجد تمزُّقٌ عند رُكبة بنطالي ويظهر بوضوحٍ وأنا مستلقٍ على محفتي، كما استمرَّ أيضًا جوربي الأيمن في الالتفاف حول كاحلي. أنا مُدركٌ تمامًا للظلم الذي تعرَّضت له البشرية بسبب مظهري، ولو كانت أمامي أي وسيلة لأن أرتجل شَيئًا يخرجني عن الطريق وتحسين مظهري، لفعلت، لكنني لم أستطع القيام بأي شيء، فعلتُ ما بوسعي مع بطانيتي: طويتها إلى حدٍّ ما على نمط السترة، وجلستُ مستقيمًا بقدر ما يسمح تمايل المحفة».

«تخيل أكبر قاعة دخلتها أنتَ على الإطلاق، مُضاءة بشكلٍ غير كاملٍ بضوءٍ أزرق ومُعتمة نتيجة لضباب رمادي-أزرق، وتزدحم بمخلوقاتٍ رمادية زاهية أو فاتحة اللون من هذا التنوع المجنون الذي أشرت إليه. وتخيَّل أنَّ هذه القاعة تنتهي بممرٍّ مفتوحٍ وراءها، عبارة عن قاعة أكبر، وخلفها قاعة أخرى أكبر... وهكذا. وفي نهاية المشهد، تظهر في العتمة مجموعةٌ من السلالم، مثل مبنى آرا كويلي في روما، تستمرُّ صعودًا حتى تغيب عن النظر، ويبدو أنَّ هذه السلالم تزداد ارتفاعًا كلما اقترب

المرءُ من قاعدتها، لكنني وصلتَ أخيرًا إلى ممرٍّ ضخمٍ ورأيت قمة هذه السلالم، التي يقع فوقها عرش القمري الأكبر».

«كان يجلس في ما كان نسبيًّا وهجًا من الأزرق الساطع، مما أعطاه، علاوة على الظلام حوله، تأثير الطفو في فراغٍ أزرق-أسود. ظهر في البداية كسحابة صغيرة مضيئة ذاتيًّا، يطيل التفكير فوق عرشه الداكن. لا بُدَّ من أن قُطر دماغه يصل إلى عدة ياردات. لسببٍ ما لا أستطيع فهم عدد الكشافات الزرقاء التي تنبعث خلف العرش الذي جلس عليه، وعلى الفور تحيط به هالة من الضوء. يقف حوله عددٌ قليلٌ وغير واضحٍ في هذا التوهج من المرافقين الشخصيين لمساندته ودعمه. كما وقف أدناه، في نصف دائرة ضخمة، مرؤوسوه المثقفون، والمتذكرون، والحاسبون، والباحثون، والخدم، وجميع الحشرات المتميزة في بلاط القمر. وعلى درجة أدنى، يقف المرشدون والرُسُل، ثم على جميع الدرجات الأدنى التي تُعد ولا تُحصى من سلالم العرش يقف الحراس، وعند القاعدة، يوجد حشدٌ ضخمٌ متنوعٌ وغير واضحٍ من الشخصيات البارزة الأقل مقامًا في القمر، وتتلاشى في النهاية إلى سوادٍ مطلقٍ. كانت أقدامهم تكشط الأرضية الصخرية على الدوام في همسٍ، كلما أصدرت أطرافهم حفيفًا عند تحركها».

«وعندما دخلتُ القاعة قبل الأخيرة، ارتفعتْ الموسيقى وامتدتْ في صوتٍ إمبراطوري رائعٍ، وتلاشتْ صرخات حاملي الأخبار».

«دخلتُ القاعة الأخيرة والأكبر».

«انفتح موكبي مثل مروحة. توجه المرشدون والحراس المصاحبون لموكبي نحو اليمين واليسار، وتحرَّكت المحفَّات الثلاث التي تحملني وتحمل فاي-أوو وتسي-بف عبر ظلام لامعٍ من الأرضية إلى سفح السلم العملاق. بدأتْ همهمة واسعة، اختلطتْ بالموسيقى. ترجل فاي-أوو وتسي-بف، وطُلِب مني البقاء جالسًا - أتصوَّر أنَّه شرفٌ خاصٌّ. توقفتْ الموسيقى، لكنَّ الهمهمة لم تتوقف، وأدت حركة متزامنة من عشرة آلاف رأسٍ محترمة إلى توجيه انتباهي إلى الذكاء الأسمى الذي يحوم فوقي».

«عندما نظرتُ في البداية إلى هذا التوهُّج المُشع، بدا هذا الدماغ المتطور إلى حدٍّ كبيرٍ مثل بالونٍ منتفخٍ ومعتمٍ وبلا ملامحَ، مع أشباحٍ متموجة من الالتفافات تتلوَّى داخلها بوضوحٍ. ثم يرى المرء تحتَ ضخامَتِها وفوق حافة العرش مباشرة، أعينًا قزمية دقيقة تطلُّ من التوهج. ليست وجهًا، بل أعينًا، كأنَّما تحملق خلال ثقوبٍ. لم أتمكَّن في البداية من رؤية أكثر من هاتين العينين الصغيرتين المحملقتين، ثم تمكَّنتُ من تمييز جسم قزمي صغير أسفلها، وأطراف مفصلية بيضاء ذابلة لحشرات. حدَّقت العينان إليَّ بشدة غريبة، وكانَ الجزء السفلي من الكرة المنتفخة متجعدًا. استقرَّت مجسات يده الصغيرة، التي يبدو مظهرها غير فعال، على العرش».

«كان ضخمًا ويثير الشفقة. نسيت القاعة والحشد».

«صعدتُ السلم مهتزًّا على المحفة. بدا لي أنَّ هذه الدماغ المتوهجة بعتامة في الأعلى تحوم فوقي، وازداد هذا التأثير داخلي مع اقترابي. بدتْ مستويات المرافقين والمساعدين، الذين تجمعوا حول سيدهم، تتضاءل وتتلاشى في الليل. رأيتُ المرافقين منشغلين برشِّ هذا الدماغ الكبير برذاذٍ مُنعشٍ،

ويربتون عليه ويدعمونه. من جانبي، جلستَ متشبثا بمحفتي المتمايلة محدقًا بالقمري الأكبر، وغير قادر على تحويل نظري جانبًا. وأخيرًا، عندما وصلتُ إلى مهبطٍ صغيرٍ، لم يكن يفصلني عن المقعد الأعلى سوى عشر خطوات أو نحو ذلك؛ وعندئذٍ وصل نسيجُ الموسيقى الرائع إلى ذروته ثم توقفت. تركوني أعزل في ذلك الاتساع، وعينا القمري الأكبر تواصل تفحصي بدقة».

«كان يتفحص أول رجلٍ يراه على الإطلاق».

«ابتعدتُ عيني أخيرًا عن عظمته إلى شخصيات النمل في الضباب الأزرق حوله، ثم أسفل درجات السلم إلى السيلينايت المحتشدين، في سكونٍ وترقُّبٍ بالآلاف، على الأرض أدناه. شعرتُ مرة أخرى برعبٍ مفرطٍ... ثم تلاشى».

«بعد توقُّف بدأت المراسم. ساعدوني لأنزل من المحفة، ووقفتُ مرتبكًا بينما يؤدي أمامي مسؤولان نحيلان عددًا من الإيماءات الغريبة، التي لا شكَّ أنَّها ذات معنى رمزي عميق. ظهرت مجموعة المثقفين الموسوعية التي رافقتني إلى مدخل القاعة الأخيرة، ظهرت أعلى مني وعلى يميني ويساري بخطوتين، استعدادًا لتلبية حاجة القمري الأكبر. وقف فاي-أوو بدماغه الشاحب في منتصف الطريق تقريبًا إلى العرش، حيث يمكنه من هذا الموقع نقل التواصل بسهولة بيننا من دون أن يدير ظهره للقمري الأكبر أو لي. واتخذ تسي-بف موقعًا خلفه. سار المرشدون البارعون جانبًا نحوي، مع الاحتفاظ بوجوههم في اتجاه حضرة القمري الأكبر. جلستُ بالطريقة التركية، وركع أيضًا فاي-أوو وتسي-بف في موقعيهما أعلاي. حدث توقف. تحركت أنظار المجموعات القريبة: مني إلى القمري الأكبر ثم عادت إليَّ، وسرت هسهسة وزقزقة من التوقعات عبر الجموع أدناه ثم توقفت».

«توقف هذا الطنين».

«للمرة الأولى والأخيرة في تجربتي، كان القمر صامتًا».

«سمعت أزيزًا خافتًا. كان القمري الأكبر يخاطبني. وكان صوته مثل احتكاك إصبع على لوحٍ زجاجي».

«راقبته بانتباهٍ لبعض الوقت، ثم ألقيتُ نظرة خاطفة على فاي-أوو المتأهب. شعرتُ وسط هذه الكائنات النحيلة أنني سمينٌ وقويٌّ على نحوٍ يبعث على السخرية: رأسي، وفكي، وشعري الأسود. عادت عيناي إلى القمري الأكبر. كان قد توقف عن الحديث؛ ولا يزال مرافقوه مشغولين، وسطحه المشرق يلمع بفِعل رذاذ التبريد».

«أخذ فاي-أوو يفكر في تأمُّلٍ لفترة قصيرة، واستشار تسي-بف، ثم بدأ يزقزق بلغتِه الإنجليزية المميزة، ببعض العصبية في البداية، بحيث لم يكن واضحًا».

«ممم، القمري الأكبر تمنَّى أن يقول، يتمنَّى أن يقول، إنَّه يقابلك أنت، ممم، الرجل، أنك بشري من كوكب الأرض. ويود أن يقول إنَّه يرحب بك، يرحب بك، ويريد أن يعرف، يعرف، إن جاز لي استخدام الكلمة، حالة عالَمك، وسبب مجيئك إلى هنا».

«توقف فاي-أوو. كنتَ على وشك الرد عندما استأنف كلامه. شرع في ملاحظات لم تكن واضحة، وإن كنت أميل إلى الاعتقاد بأن القصد منها هو المجاملة. أخبرني أن كوكب الأرض بالنسبة للقمر مثل الشمس لكوكب الأرض، وأن السيلينايت يرغبون كثيرًا في التعرف على كوكب الأرض والبشر. ثم أخبرني -ولا شكَّ أنها مجاملة أيضًا- عن حجم الأرض والقمر النسبيين وقطريهما، والدهشة والتكهنات الدائمة التي ينظر بها السيلينايت إلى كوكبنا. فكرتُ وعيناي منخفضتان، وقررتُ أن أرد بأنَّ البشر أيضًا يتساءلون عمَّا قد يوجد في القمر، ويتصورون أنه ميتٌ، ولا يعرفون أي شيء عن هذه الروعة التي رأيتها منذ وصولي. قام القمري الأكبر، كعلامة على التقدير والامتنان، بتدوير أشعة زرقاء طويلة، بطريقة مربكة للغاية، وعندئذٍ سرت في القاعة الكبيرة أصوات الزقزقة والهمس والحفيف والهمس حول ما قلته. ثم شرع في طرح عدد من الاستفسارات على فاي-أوو، كانت الإجابة عليها يسيرة».

«لقد فهم، كما أوضح فاي-أوو، أننا نعيش على سطح كوكب الأرض، وأن هواءنا وبحرنا يقعان في الخارج، وهذا الجزء الأخير، لا بُدَّ أنه يعرفه من الفلكيين المتخصصين لديه. وكان متطلعًا للغاية لمعرفة معلومات أكثر تفصيلًا عمَّا أسماه هذه الحالة الاستثنائية، إذ نظرًا لصلابة كوكب الأرض، هناك ميلٌ دائمًا لاعتبارها غير صالحة للسكنى. رغب أولًا في التأكد من درجات الحرارة القصوى التي نتعرض لها نحن الكائنات الأرضية، وكان مهتمًا جدًّا بوصفي للغيوم والمطر. ومما ساعد خياله أن جو القمر في الدهاليز الخارجية بالجانب الليلي ليست ضبابية في كثيرٍ من الأحيان. وبدا مندهشًا من أننا لا نجد أشعة الشمس شديدة للغاية لأعيننا، واهتم بمحاولتي لشرحِ أن السماء تخففه إلى لونٍ مزرق من خلال انكسار الهواء -على الرغم من أنني أشك في أنه فهم ذلك بوضوحٍ- شرحتُ كيف يمكن لحدقة العين البشرية أن تنكمش وتنفذ الهيكل الداخلي الحساس من زيادة أشعة الشمس. وهنا سمح لي بالاقتراب منه عدة أقدام ليتمكن من رؤية هيكل عيني، وأدى ذلك إلى مقارنة بين العينين القمرية والأرضية. لا تقتصر الأعين القمرية على حساسيتها الشديدة لمثل هذا الضوء الذي يراه البشر، لكن بإمكانها أن ترى الحرارة أيضًا؛ فكل اختلاف في درجة الحرارة داخل القمر يجعل الأشياء مرئية للعين».

«كانت القزحية عضوًا جديدًا تمامًا بالنسبة للقمري الأكبر، وظلَّ لفترة يسلي نفسه بتوجيه وميض أشعته إلى وجهي، ومشاهدة بؤبؤي عينَيَّ ينكمشان، ونتيجة لذلك، شعرت بانبهار الضوء وأُصبت بالعمى لفترة قصيرة».

«وعلى الرغم من هذا الانزعاج، وجدتُ شيئًا مطمئِنًا على نحوٍ ضمنيٍّ في عقلانية السؤال والجواب، يمكنني أن أغلق عيني وأفكر في إجابتي، وأنسى أن القمري الأكبر ليس لديه وجهٌ».

«عندما نزلتُ مرة أخرى إلى مكاني، سألني القمري الأكبر كيف نحمي أنفسنا من الحرارة والعواصف؛ فشرحتُ له فنون البناء والأثاث، وهنا ظهر سوء الفهم وتعارض الأغراض، ويرجع ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ، لا بُدَّ أن أعترف، إلى عدم دقة تعبيراتي. واجهتُ لفترة طويلة صعوبة كبيرة ليفهم طبيعة البيت، فقد كان غريبًا، بلا شكٍّ، بالنسبة إليه ولمرافقيه السيلينايت أن يبني البشر البيوت رغم أن بإمكانهم النزول إلى التجاويف والكهوف. كما ظهر تعقيدٌ إضافي عندما حاولتُ أن أشرح لهم أنَّ بيوت البشر بدأت أصلًا في الكهوف، لكنهم الآن يستخدمون السكك الحديدية والعديد من الأشياء

الأخرى تحت السطح. وهنا، أعتقد أنّ الرغبة في الاكتمال الفكري لم تسعفني. حدث تشوشَ كبيرٌ أيضًا بسبب محاولة غير حكيمة بالقدر نفسه من جانبي لشرح المناجم. وأخيرًا صرف القمري الأكبر نظره عن هذا الموضوع دون أن يكتمل، واستفسر عما فعلناه بالجزء الداخلي من كرتنا الأرضية».

امتدت موجة من الهسهسة والزقزقة إلى أبعد زوايا القاعة الكبيرة، عندما أوضحت أننا نحن البشر لا نعرف شيئًا على الإطلاق عن باطن العالَم الذي نشأت عليه الأجيال السحيقة من أسلافنا. كان عليَّ أن أكرر ثلاث مرات أن البشر لا يعرفون من المسافة التي تبلغ 4000 ميل بين سطح الأرض ومركزها سوى ما يصل عمقه إلى ميلٍ، وبشكلٍ غير واضحٍ تمامًا. تصورتُ أن يسألني القمري الأكبر لماذا جئتُ إلى القمر عندما أدرك أننا بالكاد ما نعرف كوكبنا حتى الآن، لكنه لم يزعجني عندئذٍ ويلحُّ في التفسير؛ ذلك أنه كان شديدَ الحرص لمتابعة تفاصيل هذا الاختلاف المجنون بيننا وبين كل أفكاره.

«عاد إلى مسألة الطقس، وحاولتُ أن أصف التغيُّر الدائم للسماء، والثلوج، والصقيع، والأعاصير. وسألني: «ألا يصبح الجو باردًا عندما يأتي الليل؟».

«قلتُ له إن الجو في الليل أبرد من النهار».

«وهل يتجمَّد الهواء؟».

«قلتُ له: لا، لا يبرد الجو إلى هذه الدرجة، لأن لياليا قصيرة جدًّا».

«ولا يسيل حتى؟».

«كنتُ على وشك أن أقول «لا»، وإنما خطر لي أنَّ جزءًا واحدًا على الأقل من غلافنا الجوي، وهو بخار الماء، لا يسيل أحيانًا ويُشكل الندى، ويتجمد أحيانًا ويُشكل الصقيع، وهي عملية مماثلة تمامًا لتجميد كل الغلاف الجوي الخارجي للقمر خلال أطول لياليه. كنتُ واضحًا في هذه النقطة، ولذا انتقل القمري الأكبر للحديث معي عن النوم، تُعد الحاجة المنتظمة إلى النوم كل أربع وعشرين ساعة لجميع الأشياء جزءًا أيضًا من ميراثنا الأرضي. أما على القمر، فهم لا يستريحون إلا نادرًا، وبعد جهود استثنائية. ثم حاولتُ أن أصف له روعة الليالي الصيفية، ومن ذلك انتقلتُ إلى وصف لتلك الحيوانات التي تتجول ليلًا وتنام نهارًا، أخبرته عن الأسود والنمور، وهنا بدا الأمر كأننا وصلنا إلى طريقٍ مسدودٍ. ذلك أنه، باستثناء المياه، لا توجد مخلوقاتٌ في القمر، لا توجد حيوانات محلية وتخضع لإرادته، والأمر هكذا لسنواتٍ سحيقة. لديهم مخلوقاتٌ وحشية مائية، ولكن لا توجد وحوشٌ شريرة، ويصعب عليهم استيعاب فكرة وجود أي شيء قوي وكبير «في الخارج» أثناء الليل».

[وهنا أصبح السِجل متقطعًا، بحيث لا يمكن تدوين ما ورد فيه لمساحة تضم ربما عشرين كلمة أو أكثر].

«تحدث مع مرافقيه، كما أعتقد، عن غرابة سطحية ولا معقولية (البشر) الذين يعيشون على مجرد سطحٍ عالَم يتعرض للأمواج والرياح، وكل ما يمكن أن يجلبه الفضاء، ولا يستطيعون حتى الاتحاد للتغلُّب على الوحوش التي تفترسهم، ومع ذلك يتجرأون على غزو كوكبٍ آخر. جلستُ في هذه الأثناء منفردًا أفكر، ثم أخبرته، بناء على رغبته، عن أنواع البشر المختلفين. أمطرني بالأسئلة: «لديكم نفس النوع من البشر لجميع أنواع العمل؛ من يُفكر إذن؟ ومن يحكم؟»».

«شرحتَ له الخطوط العريضة للنظام الديموقراطي».

«وعندما انتهيتُ من حديثي، أمر برشٍّ رذاذ التبريد على جبينه، ثم طلب مني أن أكرر شرحي خشية ألا يكون قد فهم الموضوع تمامًا».

«قال فاي-أوو «لا يفعلون أشياء مختلفة، إذن؟».

«أوضحتُ أنَّ البعضَ يضطلع بدور المفكر، والبعض موظفون؛ والبعض يعمل في الصيد، والبعض الآخر ميكانيكيون، وهناك الفنانون، العمال الكادحون، «لكن الجميع يحكم»، قلت».

«أليس لهم أشكالٌ مختلفة تناسب واجباتهم المختلفة؟».

قلتُ: «لا شيء يمكن رؤيته، ربما باستثناء، الملابس». ثم أضفتُ بعد تفكيرٍ: «وربما تختلف عقولهم قليلًا».

فقال القمري الأكبر: «عقولهم يجب أن تختلف كثيرًا، وإلا سيرغبون جميعًا في القيام بالأشياء نفسها».

«وبهدف تحقيق وئام أوثق مع أفكاره المسبقة، أخبرته أنَّ تخمينه كان صحيحًا، قلتُ: «كل شيء مخفيٌّ في الدماغ، حيث يكمن الفرق، وربما لو أمكن أن يرى المرء عقول وأرواح البشر، لوجدهم متنوعين وغير متساوين مثل السيليناية. يوجد بشرٌ كبارٌ وبشرٌ صغارٌ، يوجد بشرٌ يستطيعون الوصول إلى مسافاتٍ بعيدة، بشرٌ قادرون على التحرك بسرعة، ويوجد بشرٌ صاخبون تشبه عقلياتهم الأبواق، وبشرٌ يمكنهم التذكُّر دون تفكير...» [وهنا لم تكن ثلاث كلمات واضحة في السِجل].

قاطعني ليُذكرني بعباراتي السابقة. قال بإصرارٍ: «لكنك قلتَ إنَّ جميع البشر يحكمون».

قلتُ: «إلى حدٍّ ما»، وأخشى أن تفسيري أدى إلى مزيدٍ من التشوش.

وهنا وصل إلى حقيقة مهمة. سألني: «هل تعني أنه لا يوجد أرضي أكبر؟».

فكرتُ في عدة أشخاصٍ، لكنني أكدتُ له في النهاية أنه لا يوجد. شرحتُ أنَّ مثل هؤلاء المستبدين والأباطرة، كما جربنا على كوكب الأرض، ينتهي بهم الأمر عادة إلى الخمر، أو الرذيلة، أو العنف. وأنَّ القسم الكبير والمؤثر من شعب الأرض التي أنتمي إليه، وهو الأنجلوساكسون، لا ينوي تجريب هذا النوع من الأشياء مرة أخرى؛ ازدادت دهشة القمري الأكبر عند سماعه ذلك.

سأل: «ولكن كيف تحافظون على الحكمة التي لديكم؟» فشرحتُ له الطريقة التي ساعدنا بها [كلمة محذوفة هنا، ربما «عقولنا»] المحدودة، وهي الكتب والمكتبات. شرحتُ له كيف كان علمنا ينمو من خلال الجهود الموحدة لعددٍ لا يُحصى من الرجال الصغار. لم يُعلّق هنا، باستثناء أننا من الواضح قد استطعنا إتقان الكثير على الرغم من وحشيتنا الاجتماعية، وإلا لم نكن لنتمكَّن من المجيء إلى القمر، ومع ذلك، كان التباين ملحوظًا للغاية. فقد أدت المعرفة إلى نمو السيليناية وتغيُّرهم؛ بينما قام البشر بتخزين المعرفة وظلّوا متوحشين على أهبة الاستعداد. قال هذا...» [هنا يوجد مقطعٌ قصيرٌ غير واضح في السِجل].

ثم طلب مني أن أصف كيف نتحرك في كوكبنا الأرضي، فوصفتَ له السكك الحديدية والسفن. ظل فترة غير قادر على فهم أننا استخدمنا البخار لمائة سنة فقط، واندهش جدًّا عندما استوعب الأمر. (وأود الإشارة هنا إلى شيء متفرد، وهو أن السيلينايت يستخدمون السنوات في الحساب كما نفعل على الأرض، على الرغم من أنني لا أفهم شيئًا عن نظامهم العددي، على أن هذه النقطة ليست ذات أهمية، لأن فاي-أوو يفهم نظامنا). ومن هنا واصلتُ كلامي، وأخبرته أن البشرية لم تسكن في مدن إلا من تسعة أو عشرة آلاف سنة، وأننا ما زلنا غير متحدين في أخوة واحدة، وإنما في ظلِّ أشكالٍ عديدة مختلفة من الحُكم. وقد أثار ذلك دهشة القمري الأكبر كثيرًا، لا سيما بعد أن أوضحتُ له الأمرَ؛ إذ تصور في البداية أننا نشير فقط إلى مناطق إدارية.

«قلتُ: «لا تزال دولنا وإمبراطورياتنا بمثابة أبسط التصميمات للنظام الذي سيتحقق في يوم ما»، وهنا أضفتُ...» [عند هذه النقطة، هناك على الأرجح ثلاثون أو أربعون كلمة غير مقروءة تمامًا].

«تعجَّب القمري الأكبر كثيرًا بحماقة البشر في التشبُّث بما يسببه وجود لغات مختلفة من إزعاجٍ. وقال: «يريدون التواصُل، ومع ذلك لا يتواصلون». ثم ظلَّ يسألني لفترة طويلة عن الحرب.

«كان في البداية متحيرًا ومتشككًا، سألني، ساعيًا إلى التأكُّد: «هل تعني أنكم تركضون فوق سطح عالمكم -هذا العالم، الذي بالكاد ما بدأتم في اكتشاف ثرواته- لتقتلون بعضكم من أجل وحوش تأكلونها؟».

«أخبرته أنَّ هذا صحيحٌ تمامًا».

«سألني عن تفاصيل تساعده على التخيُّل».

«سأل: «ولكن، ألا تُصاب سفنكم ومدنكم الصغيرة الفقيرة؟»، ووجدت أن تأثُّره بضياع الممتلكات ووسائل الراحة بمثل تأثُّره من القتل. قال القمري الأكبر: «أخبِرني بالمزيد، صف لي صورًا؛ فلا يمكنني تصور هذه الأشياء».

«وهكذا، استغرقتُ وقتًا لأقصَّ عليه قصة الحرب على كوكب الأرض، على الرغم من كراهيتي لذلك».

«أخبرته بالأوامر والطقوس الأولى للحرب، والتحذيرات والإنذارات، وحشد القوات وزحفها، وأعطيته فكرة عن المناورات، والمواقع، والانضمام إلى المعركة. أخبرته عن الحصار، والاعتداءات، وعن المجاعة والمشقة في الخنادق، وعن الحراس الذين يتجمدون في الثلج. وأخبرته عن الهزائم، والمفاجآت، والمواقف الأخيرة اليائسة، والآمال الضعيفة، والمطاردة بلا شفقة للهاربين والقتلى في الميدان. كما أخبرته أيضًا عن الماضي، عن الغزوات والمجازر، عن الهون والتتار، وعن حروب رسول الإسلام والخلفاء، والحروب الصليبية. وفي أثناء حديثي، وترجمة فاي-أوو، كان السيلينايت يهمهمون ويغمغمون في انفعالٍ يتصاعد باطرادٍ».

«أخبرتهم أن بمقدور سفينة حربية مدرعة إطلاق طنٍّ من القذائف لمسافة اثني عشر ميلًا، واختراق عشرين قدم من الحديد؛ وكيف يمكننا توجيه طوربيدات تحت الماء. كما وصفتُ المدفع الرشاش مكسيم وكيفيَّة عمله، وما أمكنني تصوره عن معركة كولينسو. كان القمري الأكبر متشككًا، لدرجة

أنه قاطع الترجمة للتحقق مما قلته. تشككوا بشكلٍ خاصٍّ في وصفي للرجال وهم يهتفون بفرحٍ خلال خوض المعركة».

«ترجم فاي-أوو تعليق القمري الأكبر: «لكنهم بالتأكيد لا يحبون الحرب!».

«أكدتُ لهم أنَّ البشر يعتبرون المعركة أكثر تجارب الحياة مجدًا؛ وعندئذٍ اندهش الحاضرون جميعًا».

ظلَّ القمري الأكبر متمسكًا بالموضوع، وسأل: «لكن ما فائدة الحرب؟».

أجبتُ: «أوه! فائدتها! إنَّها تقلل عدد السكان!».

«ولكن، لماذا توجد حاجة...؟».

«توقف، ورشَّ المرافق رذاذ التبريد على جبينه، ثم تحدث مرة أخرى».

عند هذه النقطة، بدأت سلسلة من التموجات التي كانت تظهر كتعقيدٍ مُحيرٍ -بقدر ما يعود وصف كافور للصمت الذي سبق أول حديث عن القمري الأكبر- تصبح سائدة بشكلٍ مُربكٍ في السجل. ومن الواضح أنَّ هذه التموجات هي نتيجة للإشعاعات التي تنتقل من مصدر قمري، ويوحي تقريبها المستمر لإشارات كافور المتناوبة أنَّ أحدَ القائمين على تشغيل جهاز الإرسال يسعى عمدًا إلى مزجها مع رسالته كي تصبح رسالة كافور غير مقروءة. كانت التموجات في البداية صغيرة ومنتظمة، بحيث نجحنا مع قليلٍ من العناية وفقدان عددٍ قليلٍ من الكلمات في فصل رسالة كافور. ثم أصبحت واسعة وأكبر، وفجأة غير منتظمة على نحوٍ يطرح أخيرًا أنَّ هناك من يخربش في أحد سطور الكتابة. بقينا لفترة طويلة غير قادرين على عمل أي شيء تجاه هذا التأثير المتعرج بجنونٍ. وفجأة توقَّف الانقطاع، تاركًا بضع كلمات واضحة، ثم عاد واستمرَّ لبقية الرسالة، مع طمسٍ كاملٍ لكل ما كان كافور يحاول إرساله. لماذا، إذا كان هذا بالفعل تدخلًا عمديًّا، كان على السيلينايت ترك كافور يبث رسالته دون أن يعرف أنهم يمحون السجل، ومن الواضح أنَّ هذا كان في وسعهم وأكثر سهولة وملاءمة بالنسبة لهم لوقف رسائله في أي وقت. وهذه مشكلة ليس بمقدوري حلها. يبدو أن الأمر حدث بهذه الطريقة، وهذا كل ما يمكنني قوله، وهذا المقطع الأخير من وصفه للقمري الأكبر، يبدأ من منتصف الجملة.

«... سألني بدقة شديدة عن سري، استطعتُ بعد فترة قصيرة التوصُّل إلى تفاهم معهم، وفي النهاية تفسير ما كان لغزًا بالنسبة إليَّ منذ أن أدركت مدى اتساع علمهم، وتحديدًا أنهم هَم أنفسهم لم يكتشفوا الكافوريت أبدًا. أدركت أنهم يعرفونه نظريًّا كمادة، لكنهم اعتبروها دائمًا استحالة عملية؛ ذلك أنه لسببٍ ما لا يوجد هيليوم في القمر، والهيليوم...».

بعد الحروف الأخيرة من كلمة هيليوم، ينقطع البث وينتهي استئناف هذا الخط المطموس. لاحظ كلمة «سر»، التي عليها وعليها فقط، أؤسس تفسيري للرسالة التالية، الرسالة الأخيرة، التي كنَّا نعتقد الآن، أنا والسيد ويندجي، أنَّه من غير المرجح أن يبثها كافور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(26)

آخر رسالة أرسلها كافور إلى كوكب الأرض

انتهت رسالة كافور قبل الأخيرة بطريقة غير مُرضية. أتخيله بعيدًا هناك أمام جهازه وسط الغموض الأزرق، يحاول باهتمام أن يستكمل إرسالها، وجميعنا غير مدركٍ لسِتار الارتباك الذي يقع بيننا، جميعنا غير مدركٍ أيضًا للمخاطر النهائية التي لا بُدَّ تزحف نحوه الآن. لقد أودى به افتقاره الكارثي إلى الحسِّ السليم، فقد تحدث عن الحرب، وعن قوة البشر وعنفهم غير العقلاني، وعن رغباتهم النهمة في العدوان، وعبث صراعاتهم الدائمة. لقد ملأ عالم القمر كله بهذا الانطباع عن عِرقنا، وأعتقد أنه أدلى باعترافٍ قاتلٍ: أن احتمال وصول بشر آخرين إلى القمر يتوقف عليه وحده، لفترة طويلة على الأقل. أصبح واضحًا تمامًا بالنسبة إليَّ سبب التوجه اللا إنساني البارد الذي سيتخذه القمر، وربما تشكك كافور، ثم أدرك الأمر بشكلٍ حادٍّ ومفاجئ. أتخيله الآن في القمر، يتزايد في ذهنه الندم على طيشه القاتل. كنتُ أميل إلى أنَّ القمري الأكبر أخذ فترة للتفكير في الوضع الجديد، وترك كافور يتحرك بحرية خلال تلك الفترة، لكن عقبات من نوعٍ ما حالت دون وصوله إلى جهازه الكهرومغناطيسي مرة أخرى بعد تلك الرسالة التي أوردتها. لم نتلقَّ شيئًا لعدة أيام، ربما واجه جمهورًا جديدًا، وحاول التهرب من اعترافاته السابقة. من يستطيع أن يأمل في تخمين؟

ثم فجأة، مثل صرخة في الليل، صرخة يتبعها سكون، وصلت الرسالة الأخيرة، كانت أقصر مقطع، بدايات غير منتهية لجملتين.

كانت الجملة الأولى: «كنتُ مجنونًا أن أدع القمري الأكبر يعرف...».

ثم فاصلٌ زمني ربما دقيقة. يتخيل المرء بعض الانقطاع من الخارج، الابتعاد عن جهاز الإرسال، تشوش مروع بين الأجهزة العديدة في ذلك الكهف الخافت ذي الإضاءة الزرقاء، اندفاع مفاجئ نحو الجهاز مع عزيمة جاءت بعد فوات الأوان. ثم وصلت الجملة الثانية، كأنها انتقلت على عجل: «طريقة صُنع الكافوريت هي: ضع...».

تبع ذلك كلمة واحدة، كلمة لا بلا معنى: «لا فائـ».

وهذا كل شيء.

ربما حاول متسرعًا كتابة «لا فائدة»، عندما كان مصيره يقترب منه، لا يمكننا تخمين ما كان يحدث حول جهاز الإرسال، ومهما كان، أعرف أننا لن نستقبل رسالة أخرى من القمر. من ناحيتي، راودني حلمٌ، حلمٌ واضحٌ كأنما أراه في الواقع الفعلي، أرى كافور وهو أشعث ومضاء بأشعة زرقاء، يقاوم في قبضة هؤلاء الحشرات السيليناية، يقاوم يائسًا بلا أملٍ مع زيادة ضغطهم عليه، يصرخ، ويحتج، ربما حتى في آخر معركة، ويجبرونه على التراجع خطوة بخطوة -بعيدًا عن إمكانية بث أي كلمة أو علامة لزملائه- إلى المجهول الأبدي، إلى الظلام، في ذلك الصمت الذي لا نهاية له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

(1)
السيِّد بدفورد يلتقي السيِّد كافور في ليم
(2)
صُنع الكافوريت للمرة الأولى
(3)
بناء الكرة
(4)
داخل الكرة
(5)
الرحلة إلى القمر
(6)
الهبوط على سطح القمر
(7)
شروق الشمس على القمر
(8)
صباح قمري
(9)
بداية الاستكشاف
(10)
تائهان على القمر
(11)
مراعي عجول القمر
(12)
وجه السيلينايت
(13)
السيد كافور يقدِّم بعضَ الاقتراحات
(14)
تجارِب في التواصُل
(15)
الجسر الدائري
(16)
اختلاف وجهات النظر

(17)
معركة في كهف جزاري القمر
(18)
في ضوء الشمس
(19)
السيد بدفورد بمفرده
(20)
السيد بدفورد في الفضاء اللا نهائي
(21)
السيد بدفورد في ليتلستون
(22)
التواصل المذهل مع السيد جوليوس ويندبجي
(23)
ملخص أوّل ست رسائل وردت من السيِّد كافور
(24)
التاريخ الطبيعي للسيلينايت
(25)
القمري الأكبر
(26)
آخر رسالة أرسلها كافور إلى كوكب الأرض

Notes

[←1]
(1) سيباريس: مدينة يونانية قديمة، تقع في الجزء الجنوبي من إيطاليا، على خليج تارانتو- المترجمة.

(2) رومني مارش: منطقة رطبة ذات كثافة سكانية منخفضة - المترجمة. [←2]

[←3]

(3) أشعة رونتجن هي الأشعة السينية أو أشعة إكس (X ray) – المترجمة.

[←4]

(4) الكرونومتر: نوعٌ من الساعات الدقيقة جدًّا لقياس الوقت – المترجمة.

[←5]

(5) يا له من أمرٍ غريبٍ! لم نشعر ونحن داخل الكرة بأدنى رغبة في الغذاء، كما لم نشعر بتلك الرغبة أيضًا عندما نمتنع عن الطعام. أجبرنا أنفسنا في البداية على تناول الطعام، لكنَّنا صُمنا تمامًا بعد ذلك. وإجمالًا، لم نستهلك جزءًا من المائة من المعلبات التي أحضرناها معنا. وكمية حمض الكربونيك التي تنفسناها كانت منخفضة بشكلٍ غير طبيعي أيضًا. أما السبب في ذلك، أجدني غير قادرٍ تمامًا على شرحه.

[←6]
(6) الأشنة: نبتة بطيئة النمو، تتفرع أوراقها على الصخور والجدران والأشجار – المترجمة.

[←7]

(7) عبء الرجل الأبيض (The White Man's Burden): قصيدة من عام 1899 لروديارد كبلينج (Rudyard Kipling) عن الحرب الفلبينية الأمريكية للاستيلاء الاستعماري على جزر الفلبين – المترجمة.

[←8]

(8) الرسام الألماني البرخت دورر (Albrecht Dürer (1471-1528 – المترجمة.

[←9]
(9) يوهانس كبلر (Johannes Kepler): عالم رياضيات وفلكي وفيزيائي ألماني (1571-1630) – المترجمة.

[←10]

(10) فرانسيس جالتون (1822-1911 Francis Galton): خبير إحصائي في العصر الفيكتوري، فضلًا عن اتساع معارفه وثقافته. كان أول من استخدم الأساليب الإحصائية في دراسة الاختلافات البشرية ونظرية وراثة الذكاء، وغيرها – المترجمة.

[←11]

(11) إقليدس Euclid: عالم رياضيات يوناني، ولد 300 قبل الميلاد، ومُلقب بأبي الهندسة – المترجمة.

[←12]

(12) نسبة إلى تشارلز جمراك (1815-1891) – (Charles Jamrach): وهو تاجر حيوانات برية شهير في أواخر القرن التاسع عشر، افتتح متجرًا للحيوانات باسمه في لندن – المترجمة.

(13) أحد أحياء ضواحي لندن – المترجمة. [←13]

[←14]

(14) لا أتذكر رؤية أي أشياء خشبية على سطح القمر، مثل الأبواب والمناضد. وكل ما يناظر النجارة على كوكبنا الأرضي، نجده مصنوعًا من المعدن، وأعتقد أن الجزء الأكبر مصنوعٌ من الذهب، الذي يُوصى كمعدن باستخدامه، بطبيعة الحال -مع تساوي الأشياء الأخرى- نظرًا لسهولة صياغته، فضلًا عن صلابته ومتانته.

[←15]
(15) الماجنا كارتا: وثيقة إنجليزية صدرت لأول مرة عام 1215، وتُوصف بأنها ميثاق الحريات العظيم في إنجلترا – المترجمة.

(16) أمالفي: بلدة في إيطاليا - المترجمة. [←16]

[←17]

(17) مجموعة عِرقية في جنوب إفريقيا، وينتشر بعضهم في زيمبابوي وزامبيا وموزمبيق – المترجمة.